روبرت كابلان

الحملة الأمريكية

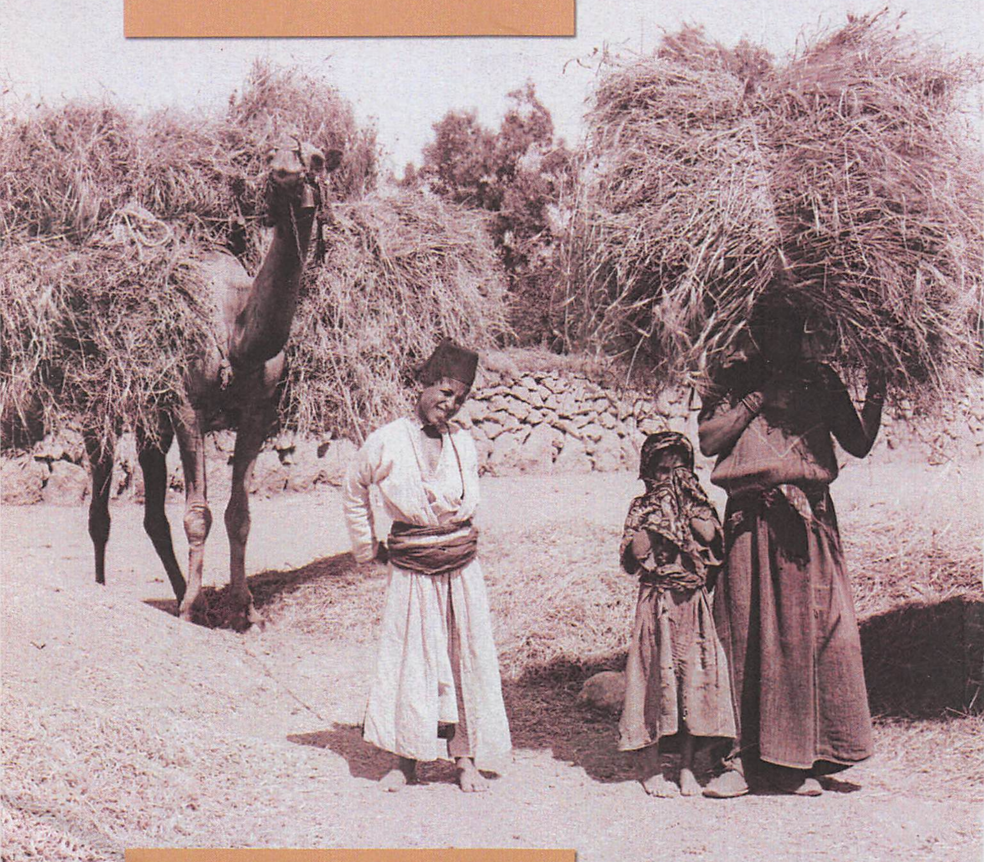
مستعربون وسفراء ورحالة

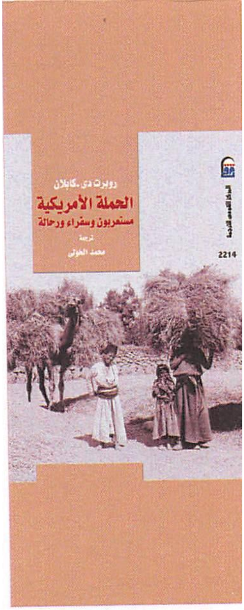
ترجمة

محمد الخولى

المركز القومى للترجمة

2214





هذا الكتاب بالغ الأهمية، نترجمه وننشره رغم خلافنا الجوهرى مع كاتبه، خاصة أنه يتضمن قدراً هائلاً من المعلومات المهمة .

فالكتاب يبشر القارئ بظهور نوع جديد من المستعربين الموالين لإسرائيل، ينظرون إلى العرب على أنهم فسيفساء من السنة والشيعة والعلويين والدروز والمارون والأرثوذكس والكاثوليك، والنجاحات التى حققتها السياسة الأمريكية نتيجة إحلالهم محل الجيل القديم، وهؤلاء يعود لهم الفضل فى مشروع التسوية العربية الإسرائيلية.

وعلى العكس تماماً، فالمستعربون الجدد الذين يؤيدون مواقف إسرائيل على طول الخط هم العقبة الرئيسة فى تحقيق السلام، وهم يصادرون إمكانية قيام علاقات متينة بين الولايات المتحدة والدول العربية .

ويثير هذا الكتاب التقدير بكمية المعلومات التى جمعها المؤلف، والتى قام جزء أساسى فيها على الأرشيف الشفاهى للخارجية الأمريكية، الذى يسجل كل من عمل فى موقع تجربته وخبرته.

الحملة الأمريكية

مستعربون وسفراء ورحالة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2214
- الحملة الأمريكية: مستعربون وسفراء ورحالة
- روبرت كابلان
- محمد الخولى
- 2014

هذه ترجمة كتاب:
THE ARABISTS
By: Robert D. Kaplan

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الحملة الأمريكية

مستعربون وسفراء ورحالة

تأليف : روبرت كابلان

ترجمة : محمد الخولى

2014

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

كابلان ؛ روبرت .

الحملة الأمريكية : مستعربون وسفراء ورحالة .

تأليف : روبرت كابلان؛ ترجمة: محمد الخولى ، ٢٠١٤

٣٩٦ ص. ٢٤ سم .

١ - الدبلوماسيون الأمريكيون .

٢ - أمريكا - السلك الدبلوماسى والقنصلى

(أ) الخولى، محمد (مترجم).

(ب) العنوان ٩٢٣,٤١٣٣

رقم الإيداع ٥٧١٩ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي (978-977-216-017-4)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

كلمة المترجم
في
تقديم الطبعة الثانية

أكثر من خمسة عشر عامًا انقضت على صدور الطبعة الأولى من ترجمتنا لكتاب المؤلف الأمريكى «روبرت كابلان» الذى سبق لى إصداره عند منتصف تسعينيات القرن الماضى بعنوان «المستعربون».

وباستخدام المصطلح المذكور، يشير المؤلف إلى ذلك الفصيل المتميز من مخضرمى الدبلوماسية الأمريكية ممن ساروا على نهج من سبقهم من الدبلوماسيين والمستشرقين والمستعربين الإنجليز الذين ما زالت حوليات التاريخ العربى المعاصر تحفل بأسمائهم وتحلل إنجازاتهم. ومن المعروف أن هذه الإنجازات كانت تصّب- بداهة- فى صالح الكيان الإمبريالى الذى كانت بريطانيا العظمى تمثله وتعززه وترعاه مع العقود الأولى من القرن العشرين. وكان على رأس هؤلاء المستشرقين - المستعربين الإنجليز رجال من أمثال «توماس إدوارد لورنس» فى مناطق الحجاز والشام أو « عبد الله فيلبي» فى المملكة السعودية أو «جون باجوت جلوب» فى الأردن... أو نساء من أمثال «جيرترود بل» فى العراق.

وفيما اتسمت سِيرَ المستعربين الإنجليز فى عمومها بسلوكيات كانت أقرب إلى دينامية الحركة، والإقدام على المغامرة، فقد اتسمت سلوكيات المستعربين الأمريكان، فى عمومها أيضًا، على نحو ما يعرض له الكتاب الذى بين أيدينا، بالجانب التبشيرى الذى قام على إنشاء المؤسسات التربوية ومنها مثلاً الجامعة الأمريكية فى بيروت والقاهرة وغيرهما من عواصم الشرق الأوسط، فيما كان الكثير منهم قد أوغلوا فى التخصص فى الدراسات العربية تاريخًا وآدابًا وتراثًا؛ ومنهم من أوصلته هذه الاهتمامات إلى موقع السفير فى خدمة السلك الدبلوماسى للولايات المتحدة.

ومن العجيب أن يتوقف «روبرت كابلان» مليًا عند سلوكيات «هنرى كيسنجر، حين كان وزيرًا للخارجية فى واشنطن، إزاء هذه الفئة من مستعربى السلك الدبلوماسى الأمريكى... وربما راعه خلال فترة ولايته فى عقد السبعينيات (حقبة الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون) كيف أن عددًا من هذه «الأيادى العربية» - يقصد هذا الفريق من هؤلاء المستعربين الأمريكيين؛ خاصة ممن خدموا فى مواقع مختلفة فى الأقطار العربية- أصبحت تربطهم بالمنطقة علاقات وطيدة، وصل بعضها إلى مستوى التواصل العاطفى؛ حيث كان بعض هؤلاء السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين يصدر عن خلفية ثقافية ومنطلق أكاديمى أوصله إلى قدر من الشغف بالتراث العربى وبطرائق الحياة العربية وإيجابية عوائدها وأعرافها... ومن هنا يوضح مؤلف الكتاب كيف اتخذ «كيسنجر» قراره باستئصال شأفة هذه العناصر المتعاطفة مع العرب مهما قام هذا التعاطف

أو التفهم على أسس موضوعية، وباعتبار أن هذا الموقف المتعاطف أو المتفاهم فى الجانب العربى، إنما يصّب فى غير مصلحة إسرائيل ومشروع الاستيطان الصهيونى فى التحليل الأخير.

والحاصل أنه منذ صدور ترجمتنا لهذا الكتاب (١٩٩٥)؛ جرت فى مسارات الأنهار العربية مياه كثيرة واضطربت واضطرمت تحت جسور هذه الأنهار أمواج بغير حدود؛ بل وهبت أعاصير سياسية وعسكرية عاتية عصفت أو كادت تعصف، ولا تزال تعصف، بأكثر من كيان سياسى وأيديولوجى فى طول المنطقة العربية وعرضها.

وفيما لا تزال الأحداث فى حال من التشكُّل والتبلور فى أقطار من المشرق والمغرب؛ فإن المشهد المصرى- بكل أهميته المحورية وطنيًّا وإقليميًّا ودوليًّا- ما برح يستجد عليه تيارات، وأحيانًا أنواء تستوجب المزيد من الوعى - سواء بما يتفاعل على الساحة المصرية من تيارات وصراعات فوق الأرض أو ما يحاك تحت سطحها من مخططات ومؤامرات.

وفى ضوء الأهمية المحورية التى تتسم بها أمريكا إزاء هذه الجوانب جميعًا؛ إيجابياتها وسلبياتها على السواء؛ يصبح الوعى بجذور إطلالتها على منطقتنا أمرًا هو من الأهمية بمكان، وهو ما تعرضه صفحات هذا الكتاب الذى حرص فيه الكاتب، وجَهد فيه المترجم- فيما نرجوه- على متابعة تطور الاهتمام الأمريكى؛ مستخدمًا أسلوب البحث والاستقصاء التاريخى الذى يجمع بين العرض العلمى والمتعة الفكرية فى آن معًا، وإن كان من الأهمية أيضًا استكمال هذه الحلقات المعرفية بما استجد مع مطالع هذه

الألفية الجديدة من دراسات وإصدارات فكرية حرصت على أن ترصد ما طرأ فى المرحلة الأخيرة من تطورات على هذا الاهتمام الذى اتخذ أشكالاً شتى خاصة فى حقبة الرئيس السابق «بوش- الابن»؛ حيث تراوحت هذه الأشكال بين ممارسة الضغوط السياسية والتلويح بالمعونات الاقتصادية والترويج لدعايات رهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا)، وبين الغزو العسكرى السافر فى أفغانستان والعراق. وبقدر ما استمر الاهتمام بالحملة الفرنسية وما نجم عنها من آثار على مصر وربوع المشرق العربى على مدار المئتى سنة الأخيرة، يلزم الاهتمام بهذه النوعية من دراسات التاريخ السياسى لما وصفه المترجم - من جانبه- بأنه «الحملة الأمريكية» التى ما زالت آثارها ماثلة ومتفاعلة فى حياة شعبنا وأمتنا حتى كتابة هذه السطور.

والله غالب على أمره ،،،،

محمد الخولي

القاهرة

١٥ أكتوبر ٢٠١١

كلمة المترجم

هذا الكتاب يستعرض، بأدوات الاستقصاء والتحليل، بانوراما ممتدة عبر الزمان إلى أكثر من ٢٠٠ سنة. ومنبسطة عبر المكان كي تسع، أو تكاد تسع، إقليم الوطن العربي الأكبر؛ من شواطئ الخليج ثم الجزيرة العربية والشام ومصر إلى المغرب العربي على مشارف الأطلسي.

ومن القسمات المميزة للكتاب، ما توسل به مؤلفه من استخدام أساليب وأدوات شتى في تناول الموضوع:

** أسلوب العرض التاريخي في متابعة ذلك الشغف الذي توهج في نفس النخبة الأمريكية بشئون المنطقة وشجونها، منذ أن نزل أول أمريكي إلى أرض الإسكندرية في يوليو من عام ١٧٨٨، أي في مخاض ولادة هذا الكيان السياسي المسمى حاليًا بالولايات المتحدة الأمريكية؛ كان هذا المواطن - اسمه جون ليديارد- مغامرًا بقدر ما كان رائدًا؛ وإلا ما أقدم وحده على قرار باستكشاف منابع النيل! وكان جريئًا بقدر ما كان مأفونًا؛ وإلا لما تجاسر على أن يصف نهر النيل ببساطة بأنه «لا يزيد في سعته على نهر كونيكتيكت»، وهو نهر متواضع يشق واحدة من أصغر الولايات الأمريكية!

وإذا كان هذا الأمريكى المغامر، الرائد، الجريء والمأفون؛ قد مات بالقاهرة ولم ينقضِ على وصوله إلى مصر عام واحد، فقد قيد للتجربة الأمريكية مع الشرق الأوسط أن تعيش وأن يعايش أصحابها - مغامرين كانوا أو مبشرين أو معلمين أو ساسة أو سفراء - تاريخ المنطقة وشعوبها وآمالها وإحباطاتها وسلوكيات زعمائها ومفكريها، وأوغادها أيضًا.

**استخدم المؤلف كذلك أسلوب المقابلة مع جميع من لا يزالون على قيد الحياة من قيادات العمل السياسى والدبلوماسى الذين لعبوا أدوارًا أو كلفوا بمهام فى العواصم العربية المختلفة. وعلى اختلاف شخصيات هؤلاء الرجال وتباين خلفياتهم الأكاديمية وأصولهم الاجتماعية ومشاربهم الفكرية؛ فإنهم حملوا - طوعًا أو كرهًا - لقب «مستعرب» وهو فى تعريفه العام -هل نقول الفضفاض - يصدُق على الأمريكى من النخبة المثقفة الذى يكون قد اكتسب خبرة مباشرة بالمنطقة العربية وقضاياها، وفى قلبها- كما سيتضح من سطور الكتاب-قضية الصراع العربى- الصهيونى. وقد يعمق تعريف «مستعرب» ليصدق على أفراد أمعنوا ونبغوا فى إتقان العربية لغة وثقافة وحضارة «السفير هيوم هوران مثلاً» أو أفراد اتصفوا بقدر من نزاهة الفكر واستقامة القصد حتى يكادوا يتوحدون مع عدالة الجانب العربى ومن ثم الفلسطينى على محور الصراع المذكور «السفير باركر أو السفير سيل... أو غيرهما كثير». وقد يتسطح مفهوم «مستغرب»؛ فيصدق على دبلوماسى التمس ترقية فلم يحصل عليها إلا فى عاصمة عربية، أو سفير عاش فى بلاد العرب ردحًا من زمن يقصر أو يطول، ولم يعرف من العربية

حرفًا؛ بل وتأخذه العزة بالإثم فلا يلــبث أن يفخر بهذا الجهل وأولئك هم «مستعربو الصدفة»، كما قد نقول.

**أفاد المؤلف كذلك من السجل الشفوى فى مركز التاريخ الدبلوماسى بالخارجية الأمريكية-وهو مؤسسة نرى أن من واجبنا الحث على إنشائها أو تطويرها فى دوائر الخارجية بمصر أو غيرها من أقطار العروبة- كل من شغل موقعًا أو تولى منصبًا ينطوى على أداء مهام سياسية أو دبلوماسية أو قنصلية فى إطار سلك الخدمة الخارجية الأمريكية يتعين عليه أن يعود إلى وطنه فُيدلى بإفادات شفوية كاملة، وفق دليل إرشادى معتمد ومقنن؛ حيث يسجل الزمن محصلة التجربة والدروس المستفادة من المأموريات المختلفة، بما يشكل مع التراكم عبر أجيال الدبلوماسيين رصيدًا هائلاً وثمينًا من الخبرة التى لا يلبث القوم أن يخضعوها للتدوين والتحرير والتبويب والفهرسة لتسهيل الإحالة إليها مرجعًا لا غنى عنه لكل من يعمل من بعد فى هذا المجال.

** ولقد حرص مؤلف الكتاب على أن يوازن بين إحالته إلى هذا الرصيد وبين محصلات المقابلات الشخصية التى أجراها؛ فضلاً عن المتابعة التحليلية التى عكف عليها من واقع مراحل تاريخ المنطقة فى عصور شتى، واستطاع من هذا كله أن يصوغ مادة كتابه فتجمع بين موضوعية السرد التاريخى وبين «شخصنة» المادة الحية المستقاة من الأفراد، وبما أتاح له رفع الستار - كلما احتاج السياق- عن دراما الصراعات بين الشخصيات والأمزجة؛ بل والأطماع والأهواء سواء فى

الميدان «الشرق الأوسط» أو فى أروقة الكابيتول هول «البيت الأبيض أو إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية» فى واشنطن.

ولأن الكتاب يسع بانوراما يتقاطع فيها محور الزمان ومحور المكان، ولأن هذه البانوراما تسع بدورها أكثر من دراما صراع بين مصائر وإرادات؛ فقد كان حريًا بالمؤلف صياغة مادة الكتاب بأسلوب يتسم بأناقة الترسل الأدبى؛ بل ويرقى فى بعض مواضعه إلى مستوى التأمل الإبداعى، وهو ما جعل جهد التعـريب – علـم الله – أشد مراسًا وأكثر تحديًا(*). ولأن العمل الفكرى اجتهاد فى كل حال؛ فقد كان طبيعيًا أن تحفل السطور بأخطاء هنا وتجاوزات هناك، وهو ما عمدنا إلى تصحيحه أو التعليق عليه – مع الحفاظ على أمانة النقل – فى أكثر من حاشية تحمل توقيع «المترجم» على متن الكتاب.

و... لا يعرف الشوق إلا من يكابده.

ولكم كابدنا – فى سياق جهد التعريب – من أجل أن نحقق اسم بلدة وردت فى المتن من أعمال الهند أو نخوض غمرات ديوان البارودي، كى نرد إلى الأصل بيتين من إبداع الشاعر العربى الكبير، بعد أن تغنى بهما فى مناسبة دبلوماسية فى واشنطن مستعرب فصيح من سفراء الولايات المتحدة الأمريكية.

هذه الأمانة العلمية التى التزمنا بها؛ ونحن بإزاء نص شديد التسييس، حافل بالأحكام جعلت الحواشى– التى أوردناها – أمرًا مندوبًا

(*) أدخل المؤلف زيادات وتنقيحات على المتن؛ تمهيدًا لإصدار طبعة ثانية مرتقبة من الكتاب. وقد حرصنا– بعد الاتصال بالمؤلف – على استيفاء كل هذه التعديلات فى ترجمتنا لنقدم للقارئ العربى نصًا مزيدًا ومنقحًا.

إليه كما يقول الفقهاء، وإن كان المطلوب فى رأينا، هو أن يتذرع القارئ بحبال التفهم والصبر؛ فالكتاب فى التحليل الأخير كاتبه أمريكى بكل قناعاته وتحيزاته وموجه بالدرجة الأولى إلى القارئ الغربي، ولكنه محصلة صورتنا عن «الآخر» سواء كان هذا «الآخر» مستشرقًا بريطانيا يطل علينا من منظوره الإمبريالى، وكأننا أيقونات حضارة بائدة أو تمائم أو تذكارات يزين بها مجموعاته الأثيرة أو كان مستعربًا أمريكيًا - ناهيك عن«المستعربين العرب» إن صح التعبير - يطل على حياتنا وقضايانا من منظور التبشير أو شعار التمدين ومنهم من يتربص بأخطائنا، والخطأ كسب إنساني، ومنهم من يتشفى فى جروحنا، والجروح دومًا إلى التئام، ومنهم من «يبشرنا» بأن قوميتنا وهم وخيال وبأن انتماء العروبة الذى يربطنا شعار لا سند له من واقع أو تاريخ!

وإذا كان لمؤلف الكتاب - الأمريكى- إثارة هذه القضايا وغيرها؛ فلا جناح عليه ولا تثريب. فإن من واجبنا، بل ومن حق القارئ العربى علينا، إتاحة الاطلاع على هذه المقولات وتفهم أبعادها ويتقصى خلفياتها مما يوسع إطار الوعى لديه باعتبار أن الوعى هو أول أسلحة العروبيين فى مواجهة ما ألمحنا إليه من تحديات.

لهذا أقدمنا على ترجمة الكتاب، نبتغى به أداء بعض واجب نحمله فى أعناقنا تجاه قومنا وثقافتنا والأمة التى نشرف بالانتماء إليها.

والله غالب على أمره.

محمد الخولي

ووتر سايد، نيويورك

أول مايو ١٩٩٥

تمهيد

ثلاثي الأجيال... والحروب... والزيجات

فى عام ١٩٦٠، ذروة الحرب الباردة، كان اليمن لا يزال متعثرًا فى القرن الثالث عشر. وبينما كان «الطيار الأمريكى»(*) فرنسيس جارى باورز يستقل طائرة التجسس «يو٢» فوق الاتحاد السوفيتى، كان بيل ستولفوز يحارب الشيوعية بأفلام العرض المنزلى. كان الروس والصينيون «فى اليمن» يقدمون فيلمين متواليين كل ليلة فى سفارتيهما. هكذا تتذكر جانيت زوجة ستولفوز « السفير الأمريكى» وتقول: إن بيل عَبَر بالتالى البحر الأحمر إلى إثيوبيا؛ حيث كان لأمريكا قاعدة جوية، وعاد وفى جعبته شريط فيلم «سبع عرائسٍ لسبعة إخوة» ونصب بيل جهاز عرض ١٦ مم على سطح مبنى متداعٍ ونظَم مقاعد منفصلة للرجال وللنساء احترامًا للتقاليد الإسلامية. وما كاَن من الفيلم إلا أن ظل يُعرض كل ليلة على مدار أسبوع، ثم حدث أن شاهده الإمام «أحمد حميد الدين» مرتين... وهكذا تحقق النصر لنا... كما تقول زوجة السفير الأمريكى.

(*) لإثراء معرفة القارئ ولشرح ما قد يغمض عليه فى سياق النص؛ عَمَدْنا إلى إيراد شروحات يطالعها القارئ بين أقواس زيادة على متن الكتاب «المترجم».

لم تكن فى اليمن وقتها مدارس ولا إذاعة ولا هواتف ولا سيارات؛ بل كانت أبواب المدينة تغلق عند الغروب، وكانت العملة الوحيدة هى ريال ماريا تريزا- عملة فضية ثقيلة الوزن موروثة من تجار القرن التاسع عشر- وكان المخالفون للأوامر يسلسلون فى الأغلال.. ثم كان قطع الرقاب ممارسة شائعة على رءوس الأشهاد.

«كان لدينا خدم حفاة وسيارة جيب نتبادل -أنا وزوج السفير بيل- قيادتها إلى عدن للتزود بالمؤن... وكنا نعيش على علب الفاصوليا المحفوظة من القاعدة العسكرية الأمريكية فى إثيوبيا، وكان بيل يأخذ إجازة قبل أى حفل عشاء نقيمه فى سفارتنا، كى يذهب إلى الصحراء يصطاد الحبارى. مع أنه كان لدينا كثير من المشروبات، وكنا فى حالة ثمل مستمر».. هكذا أضافت جين بقدر ملحوظ من المبالغة.

السفير«السابق» بيل رجل طويل القامة رياضى الجسم، فى الستينات من العمر، يجلل رأسه تاج كامل من الشعر الأبيض.. قطع حديث الذكريات «مع زوجته» ليضيف قائلاً: عندما كنت أود الذهاب إلى السخنة، حيث يقيم الإمام، كان يتعين علىَّ أن أُمضى أيامًا لا يتصل بى أحد بانتظار الإذن بالمثول. ولا أزال أتذكر القلعة ذات الجدران الطينية، حيث كان الإمام يحتفظ برهائنه.. إذ كان احتجاز الرهائن تقليدًا متبعًا فى اليمن: الإمام يحتجز أبناء المنافسين على الحكم ضمانًا لولاء الآباء.. أجل أتذكر كيف كنت أتربع مع الإمام على البساط، وكان يأمر بإحضار وحشه البرى الأثير... يفتح الإمام القفص ويدفس يده كى يلعقها الوحش القابع فيه..

وبعد أن يُخرج يده؛ يناوله الخادم فوطة يأخذها الإمام وعلى وجهه علامات رضا، ثم يمسح الدم من ظاهر يده.

يصمت السفير الأمريكى السابق ثم يقول: كنت أرقب هذا المنظر معجبًا بطريقة الإمام فى أن يترك يده لسنور متوحش كى يخمشها.. أقصد طريقته فى استشعار غضبة الوحش.

وقد يكون فى هذا ما أفضى بالسفير إلى أن يتحدث عن «غضبة المسلمين».. يقول: المسلمون لا يقبلون التكنولوجيا التى نعتمدها ولماذا يقبلون؟ إنهم لا يتصوروننا أفضل منهم لمجرد أننا أكثر حداثة.. ثم ما معنى الحداثة أصلاً؟ إننا معشر الأمريكيين مستغرقون فى ذاتنا لدرجة أننا لا نتمهل كى نتفهم ثقافات الآخرين.

السفير الأمريكى السابق مؤمن بأن حياة المسلمين وثقافتهم أو حضارتهم ستكون قوة ذات شأن فى القرن المقبل؛ بل ويرى أن الأحوال التى سادت اليمن وقتها «منذ ٣٥ عامًا» وإن كانت ترجع للقرون الوسطى، فإنها لم تكن «بدائية» قط.... ثم يضيف محترسًا: نحن فى هذا المنزل لا نستخدم مصطلح «بدائية»؛ إنه ينطوى على إصدار حكم شخصى على الآخرين.. وإنما نُفَضّل لفظة «أساسية»، وتقاطعه زوجته جانيت كى تستكمل ذكرياتهما عن اليمن.

لا تنس أماريو جوبيه يا عزيزى... وجوبيه هذا ارستقراطى إيطالى.. فاز فى مضمار الفروسية فى الأوليمبياد وكان ضابطًا فى سلاح فرسان

حملة موسولينى على الحبشة... وقد أعلن إمبرطورها هيلاسلاسى مكافأة لمن يأتى برأس جوييه هذا، فما كان منه إلا أن هرب على متن قارب إلى اليمن متنكرًا فى شخصية شخص عربى معتوه.. واستعمله الإمام معلمَ فروسية لأولاده، ثم أصبح من أقرب أصدقاء السفير الأمريكى بيل وزوجته جانيت التى تصفه قائلة: إن أماريو كان يرتدى دائمًا ملابس أهل اليمن.

أهلاً بكم فى برنستون، ولاية نيوجيرسي؛ حيث منزل السفير ويليام «بيل» ستولفوز وعقيلته جانيت، أول زوجين تبعث بهما الولايات المتحدة إلى ما لا يقل عن ستة بلدان عربية: اليمن، والبحرين، والإمارات العربية المتحدة، قطر، عمان، الكويت.

وقد لا يلفت نظرنا اليوم السجاجيد الشرقية التى نراها معروضة فى كثير من مجمعات الأسواق فى الضواحي؛ لكن الطنافس الشرقية فى هذا البيت لها إيقاع خاص.. كبيرة هى ومفرودة وسط تمائم من إثيوبيا ومشغولات نحاس من إيران، وخواتم أميرية منقوشة من البحرين وخزانة ومعها دلة نحاسية كبيرة من السعودية، ثم واجهة باب ضخم من الخشب المحفور يدويًا من الكويت يُستخدم طاولة فى غرفة المعيشة... كرمز لتجربة حياتية تختلف كثيرًا عن تجاربنا التى اعتدنا، وها هى تضع الزائر تحت تأثيرها؛ حكاية لم يكن اليمن يمثل فيها سوى فصل صغير لا يستحق سوى لوحة زيتية تصور شارعًا يمنيًا.. وقد وضعت قرب ردهة المكان.

تقول الدبلوماسية والرحالة البريطانية فريا ستارك: فى بلاد العرب.. لا يفارق المرء لحظة، ذلك الشعور الغريب بأنه لا يعيش حياة الواقع بل هو أقرب إلى أن يكون عنصرًا فى صورة أو طيفًا فى رواية.. فى تلك الحياة سمة ما قرأناه أو ما سمعنا عنه فى حكايات طفولتنا.

وفى حالة السفير بيل وزوجته جانيت؛ فإن «أرابيا» هذه - «بلاد العرب المطروحة فى كتب الحكايات»- كانت بمثابة الأمر الواقع.. وقد شكلت فصولها الأساسية الأحداث الكبرى فى حياة كل منهما.

ولد بيل ستولفوز فى بيروت عام ١٩٢٤. وهو سليل أسرة من مبشرى البروتستانت، من وسط الغرب الأمريكي. ولأن شهادة ميلاده تقول إن مسقط رأسه هو بيروت- سوريا؛ فهو يفسر ذلك بقوله: إنها لم تكن بيروت، لبنان لأن الواقع كان كذلك فقد درجنا دائمًا على أن نعتبر بيروت جزءًا من سوريا «الكبرى» (*)، أما لبنان الحديث فهو اختراع فرنسى.

التقى والدا بيل فى ملجأ للأيتام فى صيدا، حيث كان كلاهما يقدم معونات غوثية إنسانية بعد الحرب العالمية الأولى. ثم التقى بيل نفسه مع جانيت فى بيروت، بعد الحرب العالمية الثانية، وكان خرِّيجًا فى جامعة برنستون، وفى دورة متقدمة فى اللغة العربية؛ فيما كانت هى خريجة أيضًا تقوم ببعض المهام الإنسانية بين صفوف العرب. ومن أبنائهما

(*) أو «بلاد الشام» المترجم.

فيليب خريج برنستون كذلك على غرار أبيه وجده من قبل. وقد التقى عروسه الخريجة فى غمار مهمة إنسانية بعد فترة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ من اشتعال الحرب الأهلية فى لبنان... هكذا يلاحظ السفير بيل بشعور من الإجلال ثلاثة أجيال وثلاثة حروب، وثلاث زيجات.

بعد أن تزوج بيل وجانيت فى عام ١٩٥٤ أوفد إلى الكويت نائبًا للقنصل الأمريكي، فى تلك الأيام كانت الكويت عبارة عن مدينة مسورة تكاد تنتمى للقرون الوسطى؛ حيث أعطت ظهرها للصحراء. لم يكن ثمة تكييف للهواء. وقصارى الزوجين النوم فوق السطح دون غطاء فى ليالى الصيف تحت درجة حرارة تقارب الخمسين. وكان طفلهما الأول «يليام» هو أول طفل غير عربى يولد فى المستشفى الوطنى الذى كان قد أنشأه المبشرون الأمريكيون منذ نحو نصف قرن.

فى تلك الأيام انقضت أيام بيل منهمكًا فى معالجة طلبات تأشيرات اللاجئين الفلسطينيين للسفر إلى الولايات المتحدة؛ ولأن الفلسطينيين جاءوا من منطقة كثيفة السكان قرب البحر المتوسط كانت قد خضعت بواسطة البريطانيين لعملية التحديث السريع؛ فقد كانوا أفضل من سواهم تعليمًا وأشد جلدًا على أداء العمل. وبعد أربعين عامًا من ذلك التاريخ، لا تزال هذه القابلية وذلك التصميم الذى تبدًى فى صفوف اللاجئين معيارًا تحترمه جانيت التى تعمل مدرسة فى ثانوية برنستون فتقول: فى أيامنا هذه ترى اسم الكورى أو اليابانى أو الصينى ضمن قائمة الصف الدراسى؛ فتعرف أن هذا الطفل سوف يتميز عن أقرانه، تمامًا مثل الأطفال الفلسطينيين الذين عرفتهم فى الكويت.

على أنه من العسير على بيل وجانيت في ضوء ظروف الحياة التي عاشاها ألا يتعاطفا مع الفلسطينيين؛ ففي ذلك ما يجافي الروح الإنسانية. ومع ذلك تحرص جانيت على أن تضع كل أمر ضمن سياقه الطبيعي، وهي بوصفها اختصاصية في أمور التربية تنطلق في تناول المواضيع ذات الحساسية الخاصة بغير تبرم أو حساسيات.

تقول جانيت لزائرها: أنت ما زلت حديث السن، لن تدرك كيف كانت قوة الشعور بكراهية اليهود (معاداة السامية) في أمريكا عند منتصف القرن؛ عندما كنا لا نزال في المدرسة لم نكد نصادف يهودًا هنا أو هناك... لا في جامعة برنستون ولا في المدارس الإعدادية التي كنا نختلف إليها.. كم كانت أمريكا مختلفة في تلك الأيام!

لذلك فقضية الهولوكوست هي الآن أقرب إلينا عما كانت عليها في تلك الأيام التي أعقبت وقوعها مباشرة، والسبب هو ذلك السيل الذي شهدته السنوات الأخيرة من كتب وأفلام ومقاولات.

ومن الكويت نقل الدبلوماسي بيل عام ١٩٥٦، إلى سفارة أمريكا في دمشق ليعمل مسئولاً سياسيًا. وكانت سوريا للأمريكيين الآخرين بمثابة الوجه الآخر من القمر في عقد الخمسينيات؛ إذ كانت مثوى الانقلابات المخيفة والاضطراب السياسي بغير جدوى في الإصلاح؛ لكنها بالنسبة إلى بيل وجانيت كانت أقرب إلى العودة إلى الوطن.

كان بيل قد شب عن الطوق في حلب - مدرسة البازار التاريخية في شمال سوريا - بعد أن أصبح أبوه المبشِّر رئيسًا لكلية حلب.. وكانت

المدينة هى المكان الذى اختاراه للاحتفال بخطبتهما قبيل الزواج، ثم كانت هناك بيروت أيضًا على مسافة ساعات من دمشق بالسيارة؛ حيث عاد والدا بيل.. أما دمشق ذاتها- فى تلك الحقبة- فما زالت جانيت تتغزل فى جمالها إذ كانت مدينة صغيرة ذات أسواق حافلة تمتع العين وكأنها انحدرت من سطور التوراة، ثم يضيف زوجها قائلاً: كان السوريون دائمًا يتسامحون مع الأمريكان؛ وقد تبادلنا وإياهم الثقة سواء بسواء.

من هنا لم تكن العلاقات الأمريكية - السورية تتسم قط بذلك الطابع المشهود من الخصام بالنسبة لبيل ستولفوز ابن بيروت وربيب حلب على نحو ما اتسمت به فى العقود الأخيرة؛ بل استندت إلى شبكة من الصداقات الشخصية بين شريحة مثقفة من مجتمع العرب وبين المبشرين والمعلمين الأمريكيين الذين كانوا قد توافدوا إلى سوريا فى بدايات القرن التاسع عشر.

فى ذلك الوقت - وإذ كان الأتراك العثمانيون يحكمون الشرق الأوسط - لم تكن ثمة حدود بين أقطار المنطقة؛ بل كانت هناك منطقة الهضبة الجيرية إلى الشمال المعروفة باسم سوريا، وبعدها تنداح رمال الصحراء إلى مشارف اليمن فى الجنوب، وتظهر كلمة سوريا ذات الأصل اليونانى للمرة الأولى فى معرض الإشارة إلى جبل عرمون الذى يحدق بالحدود الحالية فى المنطقة، ولم يكن لبنان وقتها وحده جزءًا من سوريا «الكبرى»، بل وكان معه أيضًا فلسطين والأردن وشرقى العراق وجنوب تركيا.

والحق أن المبشرين الأمريكان- ومنهم مثلاً والد السفير بيل- هم الذين تصدروا الحركة نحو تكريس اسم سوريا؛ لا عند قومهم فى الغرب- بفضل رسائلهم إلى ذويهم أو الجمعيات التى شكلوها والمطابع التى استخدموها- بل عند العرب أنفسهم الذين كانوا حتى مقدم هؤلاء المبشرين يطلقون على تلك المنطقة اسم «الشام».

من هنا كانت سوريا «بلاد الشام» بالنسبة للدبلوماسى بيل وزوجته؛ أكثر من وطن وبيت، كانت بمثابة نسخة منقولة من منطقة نيو إنجلاند الأمريكية التى ينتميان إليها-الربى العالية التى يسكنها رفيعو الثقافة أشبه بالنساك، وقد وضعت مواطئ قدم لها على جبال لبنان.. أو مملكة سحرية لعائلات البروتستانت المفعمة بروح من المغامرة والاستقامة والمثالية.. حيث تلبثَ القرن العشرين فلم يصل إلا فى عام ١٩٤٨.. ولقد كان وصوله مشبعًا بروح الانتقام.

ليس بالضرورة أن يصبح كل موظف فى السلك الدبلوماسى سفيرًا مهما كان موهوبًا؛ فالأمر يقتضى قيراطًا من الحظ.. وبيل ستولفوز لم يكن استثناء من هذه القاعدة.. ولقد وافته ساعة الحظ الموعودة فى عام ١٩٧١؛ عندما كان الرجل الثانى فى سفارة أمريكا فى جدة بالمملكة العربية السعودية.. وأوكلوا إليه يومها تولى تنظيم زيارة سبيرو أجنيو نائب رئيس الجمهورية.

لم تكن مهمة سارة على كل حال؛ هكذا يقول السفير الأمريكى السابق «فى لقائه مع مؤلف الكتاب»، ثم يضيف مفسرًا: كان أفراد الأمن- الخدمة

السرية- لا يراعون الثقافة والتقاليد المحلية.. مثلاً كانوا يزيحون الستائر ويرفعونها فى حرملك النساء فى القصر قبل أن يصل إليه نائب الرئيس؛ حتى لعب التنس مع أجنيو لم يكن أمرًا سارًا بدوره؛ كانوا قد حذروا السفير من أن نائب الرئيس رجل يمقت الهزيمة؛ وهكذا ظل السفير يعمد إلى ضرب الكرة فى حذر وخفة؛ ثم ما لبث أن حدَّث نفسه قائلاً: «ما هذا العبث»، ومضى يسدد الضربات؛ وبدلاً من أن يغضب الرجل الثانى فى أمريكا؛ إذا بنائب الرئيس تنفرج أساريره بالإعجاب؛ وسرعان ما نمت صداقة بين الطرفين، وبعدها أسرَّ بيل إلى أجنيو ببعض ما يعرفه من معلومات عن الشرق الأوسط؛ وهنا يعلق السفير قائلاً: كان أجنيو رجلاً ممتازًا، من طراز غاية فى التهذيب؛ لكن طبعًا كانت له مشاكله؛ قالها السفير وهو يرفع حاجبيه اللذين علاهما المشيب.

ولم يطل الأمر بعد عودة سبيرو أجنيو إلى واشنطن؛ فقد تمت ترقية بيل إلى رتبة السفير.

وعندما ثارت فضيحة.. أجبر أجنيو على الاستقالة كنائب للرئيس نيكسون فى عام ١٩٧٤، ظل الرجل يختلف إلى منطقة الشرق الأوسط بوصفه رجل أعمال؛ معلنًا تبنيه للقضية العربية فى مواجهة إسرائيل.. لكن الذى لم يكد يعرفه أحد؛ هو أن جانبًا مما تعلمه سبيرو أجنيو حول سياسات الشرق الأوسط، إنما كان مصدره السفير الأمريكى بيل ستولفوز، وهو يفسر الأمر بقوله: أرأيت إلى مصالحنا الداخلية وكيف تدمِّر سياستنا الخارجية.. ولا شبهة عندى فى أن المصالح القوية والمعلنة لهذه الفئة أو

تلك من الذين يتمركزون فى المدن الكبرى والولايات الكبيرة؛ هى التى تقرر سياستنا فى الشرق الأوسط.. وإن كنت تفتش عن مؤامرة من نوع ما.. فانظر إلى تلك المصالح.

* * *

السفير السابق بيل يُدلى بهذه الأقوال فيما زائره يدون عنها ملاحظاته.. ولقد دعا زائره إلى بيته كى يضع كل الأمور فى نصابها؛ ومن ثم أصبح من واجب الزائر «المؤلف» أن يصنع الشىء نفسه.

إن ما يقصده السفير؛ هو أن الصراع بين جماعات اللوبى الأمريكى اليهودى وبين الدبلوماسيين الأمريكيين من أمثاله، صراع امتد عبر عقود طويلة من الزمن وبات لا يمكن إنكاره؛ بل هو نفسه يطرحه بصراحة ويعلن عن رواسبه التى ما زالت متبقية لديه... إلا أنه صراع يدعو للأسف بكل مقياس.

إن آخر ما يريده رجل مثل بيل؛ هو أن يتناقض باعتباره دبلوماسيًا أمريكيًا مع مجموعة أخرى من الأمريكيين.

بيل وزوجته جانيت قوم لا يزالون يتحلون بحس مرهف من مثالية الأمريكيين؛ يكفى مثلاً أن صغرى بناتهما لا تزال تعمل فى خدمات هيئة السلام الأمريكية فى إفريقيا ، وهذا أمر ينبغى أن يظل واضحًا.

* * *

السفير السابق بيل ستولفوز يوصف بأنه مستعرب «أرابيست» وتلك كلمة من أكثر التعابير المشحونة فى القاموس الأمريكى؛ فى القرون الوسطى، لم يكن «المستعرب» سوى طبيب درس الطب العربى الذى كان وقتها أشد تقدمًا بكثير من أساليب الطب الممارسة فى أوروبا.

فى أواخر القرن التاسع عشر ثم فى القرن العشرين؛ كان المستعرب هو دارس اللغة العربية تمامًا مثل المستغرق-أى دارس لغة الإغريق (اليونانية) أو دارس اللاتينية؛ لكن مع قيام إسرائيل عام ١٩٤٨، ما لبث مصطلح «مستعرب» أن حمل بسرعة معانى أخرى.

يقول ريتشارد ميرفى- مساعد وزير الخارجية الأمريكية السابق لشئون الشرق الأوسط- وقد عمل سفيرًا لدى سوريا والمملكة العربية السعودية: إن الكلمة حملت معنى من الاستهانة: وكأنها تشير إلى ذلك الذى وقع ثقافيًا وفكريًا فى غرام العرب ؛ بمعنى: ذلك الذى يفترض فيه السذاجة السياسية والانتقائية والإيغال فى توقير الثقافات غريبة الأطوار؛ بل إن مقاطع الكلمة «أرابيست» فى الإنجليزية تشير إلى شدة التعاطف لدرجة التوحد مع العرب؛ على خلاف ما تشير إليه كلمة من قبيل «صينولوجست» التى تصدق على المتخصص فى شئون الصين... وهنا تهز السيدة آن زوجة السفير ميرفى رأسها قائلة: «إن سميت نفسك «مُستعربًا» ؛ فقد يظن القوم أنك مُعادٍ لليهود».

من ناحية أخرى، يعترف السفير بيل قائلاً: إن الجالية الأمريكية فى سوريا ولبنان ظلت معارضة لدولة إسرائيل.

صحيح أن هذه الجالية تَعيَّن عليها أن تقبل بإسرائيل فى نهاية المطاف؛ لكنه لم يكن قبولاً من القلب: تمامًا كما تعيَّن على المحافظين قبول- فى نهاية المطاف- بوجود الصين الشيوعية.

* * *

لو كان لنا أن ربط بين السفير بيل وبين نوعية معينة من البشر؛ فتلك فئة يتدرج ضمنها عادة بريطانيون هاموا حبًا فى رمال الصحراء؛ منهم مثلاً سير ريتشارد فرانسيس بيرتون، وشارلس دوتي، و ت. لورانس العرب، وهارى عبد الله فيلبى وكذلك ويلفرد ثايجر، ثم جيرترود بل.. لقد استوطنوا بيئة الصحراء العربية.. وأحدثت بهم دوامات من الفانتازيا وعشقًا غريب الأطوار ونزعة العدمية.. هتف قائلهم ويلفرد ثايجر: أريد اللون والتوحش.. أريد تطهرًا يندر وجوده فى عالم البشر.. ولقد استبد بى حنين الماضى ورفض الحاضر وخوف المستقبل.

والحق أن قلة من الرسميين الأمريكيين لاقت ما صادفته فئة المستعربين هذه من عنت واستهانة؛ فيما ظل أفرادها على ما كانوا عليه من غموض وركون إلى ظلال المجهول.. والمستعربون ليسوا تلك الحفنة من كبار موظفى الخارجية الأمريكية الذين تلهبهم أعمدة الصحف بسياط الانتقاد، ولا هم عادة ذلك الطراز الذى يتحدث عن سياسات الشرق الأوسط على شاشات التليفزيون.. المستعربون رجال ونساء من طراز السفير بيل

يقرءون ويتكلمون العربية، وقد أمضوا ردحًا طويلاً من عمرهم المهنى، ومعهم عائلاتهم فى العالم العربى.. سواء كانوا دبلوماسيين، أو ملحقين عسكريين، أو عناصر استخبارات، أو حتى باحثين عن مغامرات فى مجال العلم والمعرفة.

المستعربون يمثلون أغرب مظاهر مؤسسة الساحل الشرقى بالولايات المتحدة وأشدها مثارًا للخلاف، وهو عادة ساحل الفكر والثقافة.. إن فرانسيس فوكوياما– وقد كان عضوًا سابقًا فى فريق تخطيط السياسات بالخارجية الأمريكية وهو الآن مفكر سياسى ذائع الصيت – يقول: إن المستعربين يشكلون ظاهرة سوسيولوجية... إنهم نخبة داخل النخبة ممن ظلوا مخططين على طول الخط بأكثر من الاختصاصيين فى أى مجال آخر من مجالات السلك الدبلوماسى الأمريكى ؛ ذلك لأن المستعربين لم يتبنْوا قضية العرب فحسب، بل وتبنوا كذلك نزوع العرب إلى خداع الذات (!).

مع هذا الرأى: يختلف تمامًا نيكولاس فليوتس، وقد كان بدوره مساعدًا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط، كما عمل سفيرًا فى الأردن ومصر ويقول:

كلما صادفت من ينتقد المستعربين بادرت بالرد عليه: المستعربون هم رجال ونساء أتقنوا لغة صعبة، وأمضوا سنوات من عمرهم وسط بيئة أجنبية صعبة فى خدمة الولايات المتحدة ، ولكم وددت لو كنت واحدًا من زمرتهم ولست كذلك مع الأسف.. فلم تكن عربيتى سليمة فى يوم من الأيام.

ولقد يظن القارئ أنه فهم السفير بيل ستولفوز، والأمر على خلاف الظن.. ثمة مستويات لشخصية الرجل لا يستطيع المرء اختراقها؛ إلا إذا تسنى له الاقتراب من تجربة تاريخية معينة.

بادئ ذى بدء، على المرء ألا يخلط بين رجل من طراز بيل وبين المجانين من البريطانيين؛ فأيًا كانت السمات الشخصية لأولئك المستعربين البريطانيين؛ فإنهم كانوا يعملون وقد صدروا عن خلفية من الإمبريالية.. لقد أتيحت الفرصة لهؤلاء البريطانيين من رجال ونساء، بفضل مزايا السلطة وقوة الاستعمار؛ فحققوا ذواتهم وترجموا أحلامهم فوق هذا المسرح الفريد والمثير.. وعلى الرغم من غرابة أطوار بعضهم.. فإن رجالاً مثل «لورانس» ونساء مثل «جيرترود بل» عملوا فى بلاد العرب كعملاء للحكومة البريطانية؛ ومن ثم كان ما يعنيهم أساسًا هو آليات القوة الاستعمارية.

وفيما كان المستعربون البريطانيون استعماريين، كان المستعربون الأمريكيون أصلاً مبشرين، وكان لهذا انعكاساته ودلالاته.. ومن ثم فالتبشير هو الذى حدد هوية مستعربى الأمريكان؛ فى حين أن الاستعمار حدد هوية نظرائهم البريطانيين.

ولا ريب فى أن هذا الفصيل الاجتماعى قليل الوجود باعتباره نوعًا أمريكيًا أصيلاً؛ أعنى المبشِّر ومن ثم المبشِّر «المستعرب».

إنه شخص لا يكاد يعنيه السلطة السياسية؛ قدر ما يعنيه أفعال خير التى يقوم بها من أجل عالم أفضل وابتغاء محبة المحرومين أو المحتاجين.

البريطانيون كانوا يسعون للسيطرة؛ لاكتساب أو اقتناء ثقافة، تمامًا كما يشغف المرء باقتناء نادر وجميل، وتلك استعارة يمكن ترجمتها حرفيًا حين نعرف أن د. هوجارث الذى كان يدير المكتب العربى البريطانى - قلم الاستخبارات فى المنطقة من القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى - جمع ٣٠٠ كتاب عن مواضيع عربية فى غضون الحرب.

لكن الأمريكيين- ومنهم والد السفير بيل شخصيًا- كانوا يلتمسون هدفًا أبعد منالاً، كان مبتغاهم هو تغيير تلك المنطقة.... وتحسين أحوالها باستخدام نموذجهم الذى يعتمدون، وتبدت فيهم نزعة نفسية نبعت من واقع الثورة الأمريكية.. وهو ما أدى فى نهاية المطاف إلى مأساة واحدة من سفراء أمريكا فى العراق لاحقًا بعد ٢٠٠ سنة من عمر الزمن.

فكما نعرف؛ كانت المقابلة الشهيرة فى يوليو ١٩٩٠ بين السفيرة الأمريكية أبريل جلاسبى والرئيس العراقى صدام حسين أمرًا استغرق تحقيقه- فى واقع الأمر- قرنين من الزمن. لقد دخلت السيدة جلاسبى إلى مقر صدام حسين وبين جوانحها رهبة من بضاعة تراث المستعربين القديم... ولم تكن مأساة «عراق - جيت» فضيحة فى بنك؛ بل كانت قصة إنسانية ملحمية تتوازى فصولها مع تاريخ الجمهورية الأمريكية ذاتها.

* * *

ومن العجيب أن الأمريكيين يعرفون عن الإمبريالية البريطانية أكثر مما يعرفون عن الدوافع التى كان يصدر عنها أبناء جلدتهم فى الشرق الأوسط من رجال ونساء، كان نفوذهم فى المنطقة فعالاً ومشهودًا. ولم يسبق للمنطقة أن شهدت قط ثقافة وافدة مثل تلك التى جاءت بها مستعمرات المبشرين الأمريكان فى العالم الإسلامى لا على صعيد التجربة البريطانية ولا على مستوى التجربة الأمريكية ذاتها.

إنها قصة ينبغى أن يبدأ بها البحث من أجل اكتشاف هوية، ومن ثم سلوكيات وأعمال رجال أمثال السفير بيل ستولفوز وأضرابه ممن كانوا ممسكين سرًا بعجلة القيادة لقاطرة السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

* * *

الباب الأول

الحلـم

الفصل الأول

لبنان موطنا

«انتفضت الآلات بالوجيب وارتعشت السفينة، وأخيرًا كنا على طريق نهر الهدسون فاجتزنا تمثال الحرية ثم جزيرة أساتن، ومنها انطلقنا إلى الأطلسى الكبير فى طريقنا إلى الوطن، كان الوطن بالنسبة إلى «آن بيرلى» البالغة من العمر ثمانى سنوات؛ هو مدينة صيدا على الساحل اللبنانى(*). فى عام ١٩٣٩ كانت صيدا بلدة غارقة فى السبات، ترفل فى مناظر الطبيعة الجميلة؛ ويعرفها الناس بشجرة عتيقة ارتاح تحت ظلالها النبى أيوب، ثم «تحسس قروحه».. كما عرّفوها بأن ساحلها استقبل يونس النبى خارجًا من بطن الحوت».

«آن» الصغيرة ذات الشعر الأحمر. كانت عائدة إلى صيدا بعد عام أمضته بالمدرسة فى أمريكا، وكانت تنحدر من أرومة أنجلو - أمريكية كريمة، كان جدها الأعلى هو أندرو بيرلى الذى حارب فى الحرب الفرنسية

(*) الانتداب الفرنسى كان قد أعطى لبنان فى عام ١٩٢٠: شخصية قانونية مستقلة لحين إنشاء الدولة السورية بعد الحرب العالمية الثانية. إلا أن المبشرين ظلوا ينظرون إلى لبنان وكأنه إقليم سورى.

والهندية، «وهناك لوحة مكتوبة باسمه فى الحديقة الحكومية غرب مدينة بيتسبرج فى أمريكا». أما جدها المباشر أندرو روبرتسون بيرلى؛ فكان برتبة رائد فى جيش الاتحاد أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، ثم كان أبوها القس روبت كرين بيرلى قد ولد فى المنطقة الهولندية من ولاية بنسلفانيا ثم اتجه إلى لبنان - حين كان وقتها جزءًا من سوريا الكبرى - بوصفه مبشرًا للكنيسة المشيخية(*) وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى، حيث التقى والدة آن التى انحدرت بدورها من أصلاب مبشرين من لندن. وكتب على الاثنين - على نحو ما حدث لوالدى السفير ستولفوز - أن يُمضيا ردحًا طويلاً من العمر فى الخدمة الإنسانية للعرب.

وبالنسبة إلى طفلة أمريكية فى لبنان تعيش فى مرحلة ما بين الحربين، كان الأصل البروتستانتى الذى تنحدر منه آن لائقًا بها بصورة كاملة، وكذلك كان شعورها الفريد بالهوية الوطنية. لقد شبَت عن الطوق « وهى تتحدث مزيجًا من الإنجليزية والعربية والفرنسية»، كانت مائدة الإفطار للعائلة أمريكية الطابع فيما كان الشاى إنجليزيًا، أما العشاء فكان يضم الأطباق العربية اللذيذة التى كنا نشغف بها جميعًا وكانت آن تستوعب فى اللا شعور الثقافات التى تميز البشر من حولها، ومع ذلك كم كان شعورها بالوطنية فائقًا عندما كانت تشارك بنى قومها الأمريكيين فى غناء أناشيدهم الوطنية يوم الرابع من يوليو - عيد الاستقلال الأمريكى.

(*) المنبثقة عن مذهب كالفن البروتستانتى، ويقوم على أمرها نظام من شيوخ الكهنة المتساوين فى الحقوق ... «المترجم».

أما ما كانت تهواه آن، شأنها شأن سائر الأمريكيين ممن أطلق عليهم وصف «أبناء لبنان»؛ فكان بالذات النزهات على البحر المتوسط: «عندما يكتمل القمر بدرًا كنا نبقى حتى بعد أن يُسدل الظلام ستوره.. نلعب فى الماء ونتـأمل بإعجـاب ومضـات الفوسفور التى كانت تميز ثياب استحمامنا، وكان الخدم العرب يقدمون لنا السمبوسك؛ تلك العجائن المثلثة المحشوة باللحم أو الخضر المطبوخة؛ على الأبسطة كى يتناولها الأطفال وعائلاتهم، وبعد ذلك كان الكل يُلقون بالفتات إلى سرطان البحر. وحدث أن لويز برومر- وهى من صديقات آن- أمضت إحدى تلك الليالى ثم أرسلت بعدها إلىّ قصيدة بعنوان «الروبيان السورى»؛ تقول أبياتها:

رأيت قافلة بعير وقت الغروب.

إذ كنت أسبح قرب شاطئ البحر فى صيدا.

فى سيرها الوئيد حادت عند حافة الماء.

ثم اختفت بين طيات الأفق الأزرق.

طلع البدر مثل كرة من ذهب.

ومن خلفه جبال لبنان إلى قريب.

أما نحن فكنا أشبه بالملك إينياس.

الذى تَغَنَّى بذكره شعراء الزمن القديم.

تناولنا العشاء والتهمنا ما على الأطباق.

عشاؤنا كان خبزًا وفاكهة من البحر.

فما أحلى ذكريات أيام الحبور.

التى أمضيناها فى صيدا.

* * *

وتتذكر جريس دودج، ابنة رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت، التى كانت من معارف طفولة آن، كيف كانت تمشى بين البيت والمدرسة على محاذاة البحر المتوسط فى عمق اللونين الأزرق والأخضر، وقد علته سمرة من طين نهر كان الأقدمون يسمونه «دم أدونيس» وكان جبل صنين فى خلفية الصورة يرتدى إهابًا من الثلوج تلمع فى ضوء وردى عند الغروب»؛ وبمحاذاة الطريق كانت ثمة سلسلة من الكهوف التى كثيرًا ما عمدت جريس وصديقاتها إلى استكشافها.. ويتذكر أخوها، ديفيد ستيوارت دودج الرحلات ورياضة التزلج فى جبل الأرز؛ حيث ما زالت أشجار الأرز تقف شامخة منذ الأزل، وفى أيام الصيف كانت جريس وشقيقها ديفيد يغرسان الخيام مع العائلة فى غابة الأرز التى تحميها الكنيسة المارونية. ويقول ديفيد: «لبنان الذى عرفته صبيًا كان موقعًا يظلله السلام»، وديفيد مثل أبيه وجده شب عن الطوق ليصبح بدوره رئيسًا للجامعة الأمريكية فى بيروت، وكثيرًا ما يستخدم لوصف لبنان فى تلك الحقبة ألفاظًا وعبارات من قبيل «المسالم» و«الوسنان».

تالكوت سيل الذى سيصبح سفيرًا لأمريكا لدى تونس وسوريا فى المستقبل سيظل يذكر دومًا كيف كان القوم- حتى المسلمين أنفسهم- يطربون إلى الإيقاعات الجميلة للترانيم المسيحية التى كانت تتصاعد كل صباح من الكنيسة الصغيرة، وسيذكر كذلك نوعية الحياة فى بيروت «غارقة فى الوسن وناعمة بالسلم». ديفيد زيمرمان الذى سيصبح بدوره دبلوماسيًا أمريكيًا يتذكر لعبة البيسبول كل سبت واجتماعات الكشافة فى مرفأ بيروت واحتفالات الألعاب النارية فى عيد الرابع من يوليو، وفى هذا المجال يقول السفير بيل ستولفوز: «كنا نعيش مثل نبلاء الإقطاع الإنجليز مع الخدم وكأن كلاً منا يملك جبلاً، وكان مأوانا بيوتًا شبيهة بتلك التى ضمتها بحيرات نيو إنجلاند».

آرثر وراى كلوز اللذان سيصبحان- فيما بعد- من رواد الاستخبارات الأمريكية فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية، كانا جزءًا من العصابة كذلك. هذان الشقيقان شبًا عن الطوق فى بيروت المسلمة وسط عائلة مبشرة عاشت فى لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر. وفى هذا السياق يقول آرثر: على خلاف العائلات الأمريكية الأخرى لم يكن لدينا سوى خادم واحد. وفى كل أسبوع كنا نتناول أربع وجبات عربية وثلاثًا أمريكية. وكانت أمى تتحدث العربية بطلاقة وكانت تحب العرب. وكان اللبنانيون- فى تلك الأيام- شعبًا ليِّن الجانب لدرجة المحبة، وقد نشأنا على حب ذلك البلد وما كان لديه ليقدمه لنا. ولن أنسى- ما حييت- رحلاتنا وجولاتنا خلال القرى المسلمة والدرزية. كنا نعيش حياة ريفية تكاد تكون مصطنعة.

وتعبير «مصطنعة» هنا يتوقف على ما يراه المرء؛ لكنها كانت ريفية بالفعل. ومن خلال حجب الزمن، أى بعد أكثر من عنف ساد المدن اللبنانية بصورة أقرب إلى أفلام السينما فى السبعينيات والثمانينيات، ثم سبقه نزاع سياسى دام ثلاثة عقود، نجم عن ارتفاع دعوة القومية العربية وشمل كذلك أربع حروب عربية مع إسرائيل، كل هذا جعل هذه الذكريات الفريدة عن لبنان وكأنها لم توجد قط أو تبدو بعيدة ومستحيلة ومجافية للواقع. مع ذلك فالذكريات مهمة باعتبار أن هناك من الذين حملوها بين جوانحهم من أصبح له شأن ونفوذ فى مستقبل الأيام.

ومن الصعب تصورنا شلة أسعد حظًا من الشباب بأكثر مما كانت مجموعة آن بيرلى وجريس وديفيد دودج وتالكوت سيل وبيل ستولفوز وديفيد زمرمان وآرثر وراى كلوز وأصدقائهم؛ فمن الناحية الواقعية لم تكن هناك أماكن تكاد تقارب جمال لبنان على وجه الأرض.. إنه واحدة من تلك البقاع المباركة التى يستوى فيها جمال الشتاء والصيف والبحر والصحراء والغرب والشرق، كلها تتضافر معًا فى مزيج مثير وسط خلفية من أشجار الأرز والكافور؛ حيث يمكن للمرء السباحة والطيران وسط ثلوج الجبال.. إذ قيض له أن يعرف لبنان لا قبل الحرب الأهلية فقط ولكن قبل التوترات الخارجية والداخلية التى انتابته فى الخمسينيات والستينيات يمكنه فهم كيف كان نعيمًا سابغًا.

فما بالك بطفل أمريكى عرف لبنان فى العشرينيات والثلاثينيات، حيث نَعِم بجنة ريفية لم تترك فى نفسه آثارًا اجتماعية أو اقتصادية فقط؛

بل وخلَّفت أثرًا أخلاقيًا. كذلك الجالية الأمريكية الوافدة فى لبنان قبل الحرب العالمية الثانية جاءت نتيجة استثناء مذهل بالنسبة إلى فكرة لويل توماس عن «النظام التقليدي» للغزو (الاستعمارى)- «المستكشف ثم المبشر فالجندى وبعد ذلك التاجر». فى لبنان كان المستكشف والمبشر شخصًا واحدًا وفى لبنان أيضًا لم يأت الجندى قط، وبدلاً من التاجر جاء رجل التربية والتعليم وإن لم يخل الأمر من حفنة من التجار.

وفى تناقض سافر إزاء المستعمرين الأوروبيين فى العالم المتخلف أو حتى المغتربين الأمريكيين فى منطقة قناة بنما وممتلكات أمريكا فى المحيط الهادئ؛ فإن الاتجاه الإمبريالى والاستغلال التجارى لم يكن لهما مكان داخل المتاع الذى حمله معهم المبشرون إلى لبنان، بل إن الأمريكيين لم يشكلوا يومًا تهديدًا إزاء الثقافات الدينية المحلية على نحو ما فعل- مثلاً- المبشرون فى مستعمرات الهند والصين وبورما وسيام؛ لكن إذا كانت للحقيقة أن تُروى، فبالمقارنة بالمبشرين فى الشرق الأقصى الذين استطاعوا كسب أعداد كبيرة من الصينيين لصالح المسيحية البروتستانتية، فإن المبشرين الأمريكيين فى الشرق الأوسط باءوا بالفشل الذريع والكامل. إن خصوصية الإسلام سرعان ما اضطرتهم إلى التخلى عن أى أمل فى تحويل القوم هناك إلى ديانة المسيح. وفى ملاحظة دقيقة عن النظرة إلى الأمريكيين بوصفهم قومًا لا ضرر منهم، ذكرت مسز إيلى سميث - وهى زوجة مبشر كان فى بيروت فى عام ١٨٣٩ - أن الأمريكيين كانوا فى عيون المسلمين «قومًا لا يكذبون ولا يسرقون ولا يتشاجرون ولا يفعلون أيًا من ذلك لكنهم- المساكين- ليست لهم ملة أو دين!».

إن الأمريكيين فى لبنان نجحوا فقط فى أن يكونوا مبشرين بالتعليم الغربي، ومن هنا استطاعوا نيل محبة أهل البلاد من العرب.

كان أول مواطن أمريكى- على وجه الإطلاق- يتحرك ضمن صفوف العرب هو جون لديارد أوف جرتون من ولاية كونيكتيكت. كان ليارد الذى لم يكمل دراسته فى كلية دارت موث؛ قد تجول فى أنحاء برية نيو هامشاير فى بلده، وقام برحلات سيرًا على الأقدام فى سيبيريا عام ١٧٨٦ قبل أن يقبل عرضًا من الجمعية الإفريقية فى لندن بالإبحار فى مياه النيل لاكتشاف وسط إفريقيا. وصل ليارد إلى ميناء الإسكندرية المصرى على ساحل البحر المتوسط فى يوليو ١٧٨٨؛ قبل أن يتم تنصيب جورج واشنطن رئيسًا بسنة واحدة. على أن لديارد لم يُقَدَّر له تجاوز مدينة القاهرة ؛ إذ مات هناك بعد أشهر قليلة من جراء مرض غامض زاد من تعقيده جرعة كبيرة من العقاقير الشعبية.

كانت سنة ٣٧- وباستثناء وصف غريب لنهر النيل قال فيه: « إنه لا يزيد فى حجمه على نهر كونيكتيكت» - فإن دوافع الرجل كانت تعصبه لبلاده ومن ثم فسرعان ما انزوى إلى حجب النسيان تمامًا.

مع ذلك.. فبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، شهدت منطقة غرب ماسوشوستيس علاقة درامية بين أمريكا والعالم الإسلامى بل ومع العرب على وجه الخصوص. فى عام ١٨٠٨، وفى حرم كلية ويليامز، التقى خمسة طلاب يتزعمهم صمويل ميلز الابن، وأدوا الصلاة إلى جوار كومة من العشب الجاف خلال عاصفة رعدية؛ معبِّرين فيها عن إيمانهم بالمسيح. هذه الحادثة المعروفة باسم حادثة «هاى استاك» أصبحت بمثابة أسطورة

تروى لدرجة أن تفاصيلها أصبحت يشوبها الإبهام والغموض؛ على أن المعروف أن الطلاب الخمسة نذروا أنفسهم بأن ينشروا التعاليم الطيبة بين ملايين البشر فى آسيا وإفريقيا الذين تصوروا أنهم بلا عقائد، وأنهم سيجنون الخير كله من سماع الرسالة.

هذا التدليل الغريب على الإيمان لم يكن ليحدث من فراغ؛ ولكنه جاء تتويجًا لعملية واحدة، ثم جاء بداية لعملية أخرى. كان المذهب البروتستانتى قد نشأ فى ذلك الوقت وتطور بوصفه المؤسسة الاجتماعية والثقافية الأولى لشباب الولايات المتحدة. كانت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ومن مفتتح القرن التاسع عشر؛ مرحلة شهدت معسكرات واجتماعات وحركات إحياء وتحولات عقائدية على نحو ما يلاحظ المبشر المؤرخ «ديفيد فينى»، وكانت العمليات تتعلق كلها بإحياء وتعزيز البروتستانتية على نحو لم يشهده العالم من قبل، وكان ذلك كله يتم وسط إطار من تفاؤل الرواد بصورة غير اعتيادية. كان الوعاظ من البروتستانت من كل لون وفكر؛ يتصورون أن كلاً منهم يحمل الكلمة الحقيقية ومن ثم احتدمت بينهم المنافسة الشرسة فى منطقة نيو إنجلاند من أجل هداية البشر.

وللمرة الأولى فى التاريخ الإنسانى، أصبحت العقيدة مسألة اختيار محضة. وبهذه الطريقة نشأت مختلف النِّحَل والتفريعات البروتستانتية: المشيخية، الميثودية، المعمدانية، الوحدانية، الكنيسة،المجمعية. وكما يوضح المؤرخ الدينى «مارتن مارتى» فإن الثورة الأمريكية كانت فى حقيقتها ثلاث ثورات وإن اندلعت الحرب جراء واحدة منها.

أما الثورة الثانية؛ فكانت تتمثل فى الفصل بين الكنيسة والدولة، وتلك فكـرة لم تكن نبيلـة بقدر ما جاءت بوصفهـا نموًّا عمليًّـا للتفريعات الجديدة المنبثقـة عـن البروتستانتية؛ ما جعـل من المستحيل تعريـف الأمة الجديدة وتحديد الصفوة المؤسسة لها على أساس انتمائها إلى كنيسة واحدة بعينها.

الثـورة الثالثـة جعلت الدين أمـرًا من أمور العقل قبـل أن يكون شأنا مـن شئـون الوجدان. وفى هذا يقول المؤرخ مارتـى : «أصبح الدين متاحًا للجميـع سـواء آمنـوا بالكتـاب المقدس - الإنجيـل- أو لم يؤمنـوا»، هذه الثـورة الثالثـة هى التى ارتبطت بحركة اليقظة الكبـرى التى كانت بدورها القوة المحركة لجهود التبشير.

اليقظة الكبرى، كما يراها أحد الناطقين باسمها، وهو القس «صمويل هوبكنز» فى رود أيلاند- كانت تسعى إلى نشر المجد لله كى لا يقتصر على إنسان بعينه وإنما يفيض على أكبر عدد من البشر، وفى هذا يقول القس هوبكنز: «بنشر الحب المسيحى وليس بغيره يمكن أن نجعل البشرية تقترب من يوم الخلاص؛ حيث يزول الفقر وينجلى الظلم وينجاب الاضطهاد». وهنا كان يتجسد الصوت الدينى لأمريكا الشابة بكل حيويتها وبكل نقائها وبحثها عن المساواة وثقتها فى نفسها، وجاء بوصفه نتاجًا فرعيًا للتجربة التى خاضتها الأمة الأمريكية الجديدة مع الحرية بوصفها الحل لأدواء الإنسان، تلك المعتقدات هى التى صنعت «البيوريتانى الحق» على نحو ما رآه راندولف بورن الذى كتب عام ١٩١٧ واصفًا إياه بأنه «أكثر البشر إيثارًا، وأشدهم استقامة على جادة الطريق»، وهذا أيضًا هو الذى دفع صمويل ميلز وحوارييه إلى الاجتماع قرب كومة العشب الجاف؛ بينما كان سَنَا البرق يلمع فى أنحاء المكان.

ويمكن القول إن ما يكاد يكون من جميع الطوائف البروتستانتية بدأت حركات تبشيرية جاء قادتها من منطقة نيو إنجلاند (شمال شرق الولايات المتحدة) فى منافسة محتدمة لتحويل الأهالى إلى مذهبهم؛ من ثم كان من المنطقى أن تأتى الخطوة التالية على شكل التماس بحواريين جدد فى أصقاع بعيدة، وعندما جاء القرن التاسع عشر كان المعمدانيون (*)قد بدءوا بالفعل فتح الجنوب الأمريكى فيما اختارت العناصر الميثودية (**) فتوحاتها فى الدول المتاخمة لأمريكا. مع ذلك فما إن بدأت هذه الانتصارات فى سبيل العقيدة فى العالم الجديد- ولم يكن قد تسنى بعدُ تحويل معظم السكان الهنود الحمر إلى العقيدة الدينية - حتى انتاب القوم فجأة ذلك الشعور الذى دفعهم إلى السعى نحو أعمال التبشير فى الخارج ؛ يستوى فى ذلك المجمعيون (الإبرشيون) (***) الذين تزعمهم ميلز، والذين انضم إليهم بعد ذلك المشيخيون ثم الكنيسة الإصلاحية الهولندية (****).

(*) المعمدانية دعوة إلى عدم تعميد الفرد إلا فى سن النضج لإدراك فحوى التعاليم (المترجم) .

(**) أتباع الكنيسة المنهجية الإنجليزية التى تزعَّمها «جون ويسلى» فى إكسفورد بإنجلترا فى دعوة لإصلاح وتجديد الكنيسة التقليدية . (المترجم) .

(***) أتباع الدعوة إلى استقلالية الإبرشيات (الكنائس) على الصعيد المحلى . (المترجم) .

(****) قيض للإبرشيين أن يسيطروا على أنشطة التبشير فى الشرق الأوسط حتى عام ١٨٧٠ : عندما نشأ تقسيم ودى للعمل: الإبرشيون أصبحوا مسئولين عن تركيا، والمشيخيون مسئولين عن مصر وسوريا وإيران: بينما أصبحت الكنيسة الإصلاحية الهولندية مسئولة عن الخليج العربى ..

وبالمقارنة مع الجهود الخطرة التى لم تكد تحرز نجاحًا بين السكان من الهنود الحمر فى أمريكا، افترض المجمعيون أن المشكلات فى خارج الحدود ستكون هينة؛ إذ تكون المنافسة أقل على هداية البشر، فيما تلوح إمكانات تحقيق المكانة وإحراز المجد. إن القوة الدافعة التى جعلت هؤلاء الرجال والنساء يجتازون البحار والقفار لم تكن بمختلفة عما نشهده الآن. كان الذهاب إلى الخارج سبيلاً لتحسين مكانة الفرد الاجتماعية التى كانت قد بدأت تتضاءل فى حالة الكاهن رجل الدين بسبب الموجات الكثيفة الأولى من المهاجرين الأوروبيين الذين بدءوا يصلون إلى نيو إنجلاند ليغيروا وجه الحياة فى ريفها. يومها تحوَّلت القرى لتصبح مدنًا صاخبة بالحياة وليتحول القساوسة المحليُّون ليصبحوا مجرد صوت ضمن الأصوات الكثيرة التى كانت تتنافس على اجتذاب اهتمام أمريكا الجديدة بتنوعها الثقافى المتزايد ونظامها الاقتصادى المتسع.

كانت جزر ساندويتش (هاواي) ثم الصين والساحل الغربى لإفريقيا؛ هى أول السواحل الأجنبية التى شهدت غزو بروتستانت نيو إنجلاند. لكن نداء الأراضى المقدسة كان يرتفع فوق كل النداءات؛ ولم يكن ذلك فقط بسبب أهميتها بوصفها مسقط رأس السيد المسيح. لقد رأى المبشرون فى حركتهم أنها لا تقل شأنًا عن حملة صليبية جديدة، حملة من شأنها فى نهاية المطاف أن تخلص أرض الإنجيل من التخلف الإسلامى (!)؛ لذلك نجد واحدًا منهم يسأل: ما أوامركم للزحف؟ تمامًا كما يفعل جندى ذاهب إلى ساحة القتال. شعر المجمعيون- بحق- بأن الأمريكيين - وليس الأوروبيين- هم الذين قُدِّر لهم نشر دعوة الإنجيل الغربى إلى الأرض المقدسة.

والمؤكد أن الأمريكيين ندبوا أنفسهم لهذه المهمة وهم يرتدون مسوح النقاء؛ فقد عاشوا فى أرض عذراء لم تكن قد تلطخت بالبغضاء وبكل عوامل الظلم التى انتابت العالم القديم ؛ هو ما كان يمثله فى رأيهم أحسن تمثيل؛ حقيقة إن الولايات المتحدة الجديدة كانت «الدولة المسيحية الوحيدة التى لم تضطهد قط أحفاد إسرائيل»؛ لا غرو أن تصبح معاداة السامية (بغض اليهود) يومًا ما قضية محورية بالنسبة إلى الأمريكيين فى العالم العربى... بَيْدَ أن الأمر بدأ بصورة مختلفة إلى حد كبير.

هؤلاء المجمعيون الأوائل كانوا بأدق معنى، ينحدرون من أصلاب أمريكية بيضاء خالصة : «كانوا الأخلاف الروحيين المباشرين للبيوريتان الأصليين» طبقًا لما رآه المؤرخ فيني. وقد خلعوا على أبنائهم أسماء عبرية من التوراة: دانييل، إسحاق، ناتان، ليفى، ، كان دينهم شأنهم ؛ شأن العرب، فالدين يشكل نظامًا اجتماعيًا كاملاً يبرز فيه النهى عن تناول الكحوليات ويؤكد الخير والبر والإحسان والزهد فى أمور اللباس؛ بيد أن وعيهم بالتسامح إزاء اليهود - وهو أمر شائع حتى اليوم بين الإنجليين - سيساعد فى إقامة المحطات التبشيرية الأمريكية الأولى فى العالم الإسلامى.

رؤساء الملة المجمعية رفضوا - فى بداية الأمر - خطة ميلز من أجل إنشاء إرساليات تبشيرية فى الخارج؛ لكن مناشداته ظلت بغير هوادة.

وينبغى للمرء أن تصور أن تلك كانت حقبة من فتوة المثالية. كانت هناك كليات منشأة حديثًا مثل: كلية ويليامز وميدل بورى (وبعدها هاملتون وأمهرست)، بالإضافة إلى معاهد علمية لاهوتية مثل: أندروفر ويونيون،

وكانت كلها تعمل على تخريج ذلك النوع من الشباب الفائق الثقة فى النفس والمجبول على التضحية والإيثار؛ حيث كانت الحياة فى العالم الخارجى بالنسبة إليه ضمانًا لمكانة فورية يحققها.. وفى عام ١٨١٠، أى بعد عامين لا أكثر من حادثة هاى ستاك، كان الخريجون وأفراد الشعب الكنسى قد جمعوا ما يكفى من الأموال لتنظيم مجلس أمريكى للمبشرين للبعثات التبشيرية الخارجية يسيطر عليه المجمعيون ويتخذ مقره فى بوسطن. مع ذلك لم يتح حتى عام ١٨١٩- خلال رئاسة جميس مونرو، وبعد تسعة أعوام من إنشاء المجلس المذكور وست سنوات من إقامة الإرساليات الأمريكية الأولى إلى الشرق الأقصى- أن أبحرت الإرساليات الأمريكية الأولى الموفدة إلى الأراضى المقدسة (فى الشرق الأوسط)، وسرعان ما اتضح أن الأراضى المقدسة- فى حقيقتها -كانت مكانًا مختلفًا عن الصورة التى طالما راودت أفئدة البروتستانت.

بلينى فيسك تخرَّج فى كلية ميد بلبورى فى فيرمونت ومعهد أندوفر اللاهوتى فى شمال بوسطن، وهناك تصادق مع ليفى بارسونز وكان شابًا تقيًا عاكفًا على قراءة الكتب المقدسة. ولم يكن فيسك يحب اللغات الأجنبية؛ فيما كان بارسونز متقلب الأهواء شديد التأمل ضعيف المعدة. وفى عام ١٨٢٠ وصل هذا الثنائى الغريب إلى أزمير وكانت مدينة يونانية على ساحل تركيا الشرقى تعرف يومها باسم «لؤلؤة الشرق» وكان سكانها من المسيحيين الأرثوذكس، وطائفة التجار الغربيين فيها يشكلون شريحة غريبة الطابع وسط الشرق الإسلامى (على نحو ما أصبحت إليه بيروت بعد ذلك)، مما كان يسهل الحياة على الوافدين الجدد كما فعل الأمريكيان اللذان حاولا شق طريقهما إلى الشرق.

أمضى بارسونز معظم أيامه مريضًا فى فراشه فى أزمير، وأمضى فيسك وقته فى العناية ببارسونز والصلاة. وفى عام ١٨٢٢ أبحر الاثنان إلى الإسكندرية على أمل فى تحسن صحة بارسونز؛ لكنه مات بعد شهر من وصولهما إلى مصر. وعلى الرغم من أن فيسك قام ببعض زيارات إلى القدس فى سنتى ١٨٢٣ و ١٨٢٤؛ فإنه مات فى بيروت فى عام ١٨٢٥ بعد مرض ولم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين، وكم عانى كثيرًا على فراش الاحتضار بالضبط كما سبقه إلى ذلك صديقه بارسونز.

بعد ذلك، جاء ويليام ماكلور طومسون وكان فى الثامنة والعشرين وعروسه إيليزا فى الرابعة والثلاثين، وكلاهما صادف حظًا أفضل من فيسك وبارسونز. كان الزوجان قد التقيا فى برنستون التى أنشأت تراثًا من المبشرين إلى الشرق الأوسط ومن الاختصاصيين فى الأمور العربية ظل مستمرًا حتى يومنا هذا. وبعد الوصول إلى الأرض المقدسة عام ١٨٣٤، انتفض سكان القدس العرب ضد الوالى المصرى محمد على باشا الذى كان يحكم فلسطين فى ذلك الوقت نيابة عن الأتراك وبسبب اندلاع القتال تقطعت السبل بين طومسون الذى كان- فى ذلك الوقت- على ساحل يافا وبين زوجته التى كانت فى القدس ودام الأمر شهرين. أما إيليزا طومسون التى عاشت وحدها وسط قصف المدافع وتصدع الجدران وصرخات الجيران ورعب الخدم وتوقع المذابح باستمرار؛ فقد وضعت طفلاً اسمه ويليام الابن، وبعد أقل من أسبوعين من عودة زوجها ماتت جراء الحمى. بقى ويليام طومسون فى الشرق الأوسط؛ لكنه لم يعمل كمبشر بل باعتباره كاتب رحلات؛ حيث نشر مغامرة لاقت

رواجًا منقطع النظير بعنوان «الأرض والكتاب». وفى هذا الكتاب يعترف طومسون بأن حفنة من العرب فقط هم الذين أعربوا عن الاهتمام بإنجيل الغرب، وهذه الحفنة فعلت ذلك لأنهم تصوروا أن بوسعهم كسب أموال من الأجانب الملتاثين السذج الذين يأتون إلى بلدهم. حقيقة كان وقع المبشرين الأوائل على العرب مثل وقع الهيبى الذين كانوا يسافرون فى الستينيات والسبعينيات على الآسيويين، أو كما يحدث لأكثر عمال الإغاثة الغربية سذاجة حينما يبدون فى عيون أهل العالم الثالث؛ معلنين عزمهم على العون والمساعدة لكنهم بكل أسف لا يفهمون من حولهم شيئًا.

مع ذلك فلأن هذا الفشل الذريع كان يحدث فى أصقاع العالم البعيد، فإن تفاصيله جلَّلها النسيان وإن بقى منها المجد والفخار؛ لدرجة كتب أحد الكهنة فى ذلك العصر قائلاً: «من حق المرء أن يعيد كتابة الفصل الحادى عشر من سَفر العبرانيين مُرصَّعًا بأسماء معروفة من واقع الحوليات المعاصرة للعاملين المسيحيين فى أرض التوراة... وفى طليعتهم تأتى أسماء رجال من أمثال بيلينى فيسك وليفى بارسونز». على أن مجلس الإرساليات فى بوسطن لم يَفْتّ فى عضده شيئًا؛ بل أوفد المزيد من البعثات إلى المشرق، والحقيقة أن التجارب المفجعة التى شهدتها الكنائس البروتستانتية مع الهنود الحمر فى أمريكا دفعتها إلى وقف كل جهودها لصالح هؤلاء السكان الأصليين لأمريكا؛ إلا أن ذلك لم يؤثر فى جمعها للأموال لصالح الإرساليات فيما وراء البحار؛ حتى بعد أن أصبح واضحًا أن الشرق الأوسط على الأقل فيه غالبية من المسلمين الذين لا تلوح بينهم أى فرصة من قريب أو بعيد كى يتحولوا عن ديانتهم.

لكن بحلول عام ١٨٣٠، كان مجلس الإرساليات فى بوسطن قد بلغ من اليأس درجة أنه استهدف ملة شبه مجهولة من مسيحيى المشرق، وهم النساطرة فى إيران البعيدة؛ بوصفهم يشكلون إمكانية للتحول عن مذهبهم. كانت التجارب الأولى فى أزمير والإسكندرية والقدس وبيروت، وقد علمت المجمعيين أن المسيحيين المشارقة ليسوا بأقل من المسلمين حاجة إلى فهم المسيحية إن لم يكونوا بحاجة أكثر إلى ذلك.

ومجرد استحالة تحويل المسلمين أو يهود المشرق عن ديانتهم، أجبرت المبشرين على القبول بحقيقة أن أصحاب هاتين الديانتين مختلفون تمامًا لأنهم يشكلون جزءًا من الوسط المشرقى الفريد الذى يستوجب دراسة جادة (*)؛ لكن الوصول إلى القدس- ولو على أعتاب الموت كما حدث لكل من فيسك وطومسون لمجرد رؤية كنيسة المهد المقدس وغيرها من المواقع المقدسة- «كان حافزًا كافيًا» ، وقد قام على حراستها طغمة زرية تعيش بالخرافة من اليونانيين والعرب الذين اكتسبوا الطابع اليونانى، وقد انكبوا على تقبيل الأيقونات وحرق البخور وسط أجواء مموهة بالذهب، كل هذا زاد من حنق البيوريتان المهذبين القادمين من نيو إنجلاند فى أمريكا. وفى أعين هؤلاء المبشرين كان المسيحيون المشرقيون سواء الروم الأرثوذكس أو أقباط مصر أو موارنة لبنان وغيرهم هم الذين شوهوا حقيقة الأرض المقدسة عندما أكدوا أهمية الشعائر والطقوس التى تكاد تسلم الناس إلى نوع من التنويم المغناطيسى؛ فتعلو على كلمة

(*) كان القانون العثمانى فى حقيقة الأمر يجرم أعمال التبشير المسيحية بين السكان المسلمين .

الرب! بل إن عداء المبشرين البروتستانت إزاء هذه الكنائس المشرقية وشعائرها الغريبة، بوصفها نتاجًا للحكم البيزنطى فى الشرق الأوسط منذ القرن الرابع إلى القرن السادس للميلاد، عداء لم يزل على الإطلاق؛ بل زاد فى واقع الأمر، حتى إنه فى عام ١٩٢٠ تكتب مبشرة فى بيروت اسمها مرجريت مجليفارى فتقول: «الكنيسة المشرقية جرح غائر فى قلب المسيحية، وبقدر ما أنها تمثل أكبر همزات الوصل مع الإسلام؛ فإن الأمر يدفع العالم المسيحى إلى تجديد النظام الذى يقصر عن الترويج لقضيته فى الشرق الأدنى».

ومن أجل دراسة أحوال النساطرة، اختار مجلس الإرساليات هاريسون جراى دوايت وإيلى سميث للقيام برحلة شاقة عبر الأناضول إلى المنطقة الجبلية الوعرة والمجللة بالثلوج التى تتقاطع فيها حدود تركيا وأرمينيا وإيران وجورجيا. كان الرجلان فى التاسعة والعشرين وقد تخرج دوايت فى كلية هاملتون فى أعالى ولاية نيويورك ومن معهد أندوفر اللاهوتي، أما سميث فتخرج فى بيل وأندوفر. كان دوايت رجلاً طيب المعشر متين البنيان لا يهاب الإخطار؛ وأصبح بذلك رحالة كامل الأوصاف أشبه بسلفه ويليام طومسون، حيث نجح باعتباره مكتشفًا وكاتبًا رحلات وليس باعتباره مبشرًا دينيًا. أما إيلى سميث فكان رجلاً أشد رقة وأكثر تعرضًا للأمراض؛ لكنه حقق المزيد حيث أصبح إيلى سميث أول مستعرب أمريكى فى التاريخ.

وبوسع المرء أن يؤرخ لبداية تراث الاستعراب الأمريكى فى عام ١٨٢٧؛ عندما خرج إيلى سميث اليانكى الأمريكى القادم من جامعة بيل فى ولاية كونكتيكت؛ من الأمن النسبى إلى دوائر التبشير الوليدة فى بيروت

منطلقًا إلى الجبال المحيطة كى يعيش عدة أشهر مع المسلمين فى القرى الدرزية يدرس لغتهم (فى ذلك الوقت كان ريتشارد فرانسيس بيرتون أول المستعربين البريطانيين العظماء صبيًا فى السادسة من عمره)، وعلى خلاف بلينى فيسك الذى سرعان ما تخلى عن تعلم العربية، واصل سميث تعليمه يوميًا لمدة ثلاث سنوات؛ فمهد بذلك الأرضية لحياته البحثية حتى تلقى كلمة من مجلس التبشير ليلتقى مع دوايت من أجل الرحلة التى قاما بها إلى إيران.

بدأ سميث ودوايت رحلتهما من أزمير؛ فسافرا شمالاً على متن الجياد إلى القسطنطينية وقد ارتديا الملابس وأغطية الرأس الوطنية وحملا مسدسات، وكانا ينامان على أبسطة شرقية أحضراها معهما. وكانت اللحى التى أطلقاها مناسبة تمامًا لثيابهما الوطنية، ومن هنا فقد أصبح هذان الأمريكيان نتاج ثقافة الشرق القديمة والعميقة الجذور؛ فوجداها أمرًا لا سبيل إلى مقاومته. استغرق الأمر أكثر من ثلاثة أسابيع حتى استطاع الرجلان عبور المناطق العاصفة بالرياح والغبار فى شمال الأناضول من الآستانة إلى أرضروم فى المنطقة التى يسكنها الأرمن فى شرقى تركيا. كانا ينامان فى الاسطبلات بين الجياد وروثها. وفى الصيف وصل سميث ودوايت إلى تفليس فى جورجيا؛ حيث أصيب سميث بالكوليرا، وأصبح من الضعف بمكان لدرجة العجز عن امتطاء الحصان؛ فركب خلف دوايت فى عربة تجرها الثيران، وقد يَمَّمَ الاثنان وجهيهما شطر الجنوب الشرقى عبر الجبال نحو إيران. كان سميث قد أشرف على الموت من المرض وكان عاجزًا عن النوم بسبب جحافل

البعوض التى لم تنقطع وهو يتذكر هذه المرحلة بقوله: «كنت أرقد وأبكى مثل طفل».

ولثلاثة أشهر بقى الرجلان فى مخفر أمامى لبعثة تبشير سويسرية فى أرمينيا؛ حيث استردّ عافيته.. وجاء شهر نوفمبر وبدأ الجليد يسقط على غابات الإستبس عندما انطلق الرجلان من جديد قاصدين تبريز فى الشمال الغربى لإيران. أمضيا ليلة فى زاوية متربة دون مدفئة فسقط سميث مريضًا من جديد. وفى مناسبة أخرى كانا ينامان وسط كل أنواع القاذورات والبراغيث والقمامة، واضطرا إلى أن يعيشا على الخبز الذى كان حافلاً بكل أنواع المخلوقات الزاحفة، وقد تم إنضاجه على روث البقر المجفف. أخيرًا فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٠ كان سميث قد بلغ من الضعف درجة العجز عن السير أو الوقوف؛ إلا أن هذا التاريخ جعل مدينة تبريز الإيرانية تشهد أول الأمريكيين من زوارها.

فى مارس التالي، تحسنت صحة سميث بما يكفى لدفعه مع رفيقه إلى رحلتهما نحو الشاطئ الغربى من بحيرة أورميا القريبة؛ حيث يسكن النساطرة، وربما كانت مشقة الرحلة إلى تلك النحلة المسيحية المعزولة – فضلاً عن معجزة بقائهما على قيد الحياة بحد ذاتها – هى التى دفعت سميث إلى التحمس الشديد لجعل أورميا موقعًا للعمل التبشيرى الذى اضطلعا به.

هكذا جاء عام ١٨٣٣؛ فأوفد مجلس التبشير فى بوسطن جوستين بيركنز (٢٨ سنة) وعروسه الجديدة شارلوت؛ لإنشاء بيت فى جبال غربى تبريز. وكان بركنز –خريج أمهرست ومعهد أندوفر اللاهوتى–

بمثابة براهما مجمعى نمطى، حيث اكتسب سمعته بفضل أخلاقه الحميدة وحسن تربيته العالية فضلاً عن إرادة حديدية وقوة على التحمل بالغة. انطلق الزوجان فى رحلة كانت أيسر سبيلاً؛ إذ ركبا البحر عبر شمال الأناضول على ساحل البحر الأسود إلى شرق تركيا قبل أن يشرعا فى الرحلة فى البر. وكانا قد أحضرا خيمتهما الخاصة وأدوات المطبخ. وكما قُدِّر للسيدة أليزا طومسون أن يأتيها المخاض وسط ظروف مفجعة فى القدس، حدث الأمر نفسه للسيدة شارلوت بركنز فى تبريز؛ لكن شارلوت عاشت وإن لم تكتب الحياة لطفلتها الوليدة.

هنالك أدرك مجلس بوسطن أن البعثات فى تلك المواقع البدائية مكتوب عليها الفشل دون وجود طبيب مدرب. ومن هنا ففى الأسابيع الأولى منذ عام ١٨٥٥ نزل إلى القارب فى قناة إيرى؛ طبيب يبلغ من العمر ٢٨ سنة هو أساهل جرانت من نيويورك، وزوجته جوديث. كان جرانت، على خلاف غيره من المبشرين، لا ينتمى إلى شريحة عليا فى نيو إنجلاند. كان رجلاً ضئيل الجسم سهل الاستثارة أسمر البشرة ولم يقدر له أن يتخرج فى جامعة ولا حتى فى كلية طب أصولية؛ كل ما حمله من شهادات كان تطبيقه الميدانى على يد طبيب فى أعالى نيويورك؛ فضلاً عن استغراقه فى قراءة الكتب المقدسة، لكن حماسه كان مدفوعًا بفكرة أن النساطرة يعدون بين القبائل التائهة أو الضائعة من بنى إسرائيل.

فى أول شتاء فى إيران؛ نامت عائلتا جرانت وبركنز فى مساكن الطوب اللبن مرتدين ملابس النوم التى جللها الجليد والصقيع. وفى يناير

١٨٣٦ افتتح الأمريكيون مدرسة تبشير فى بحيرة أورميا، تعلم التلاميذ قراءة صلوات الرب. لكن جرانت هو الذى قدر له - على الرغم من تواضع مولده وافتقاره إلى التعليم المنظم بل وإصابته بالكوليرا- أن يكتسب عمله الطبى قلوب سكان أورميا من مسلمين ونساطرة ويهود؛ فشرعوا يطلقون عليه لقب «حكيم صاحب» -(أى السيد الطبيب).

نمت العيادة الطبية وازدهرت، شأنها شأن المدرسة، وأصبح جرانت يعالج الآلاف تلو الآلاف من المرضى، وبعد ذلك أرسل مجلس بوسطن مطبعة للجالية أنتجت صلوات الرب وكتاب المزامير بالسوريانية (اللسان النسطورى المماثل للآرامية التى كان يتكلمها السيد المسيح).

بيد أن الجهد الجهيد والظروف الوخيمة اقتضت ضريبتها؛ فماتت جوديث جرانت واثنان من أطفالها بعد المرض، وكذلك كان مصير أربعة من أبناء بركنز. بالإضافة إلى ذلك، أصيبت شارلوت- زوجة جستين- بالصرع، واستجاب المجلس فى بوسطن بمجرد إرسال المزيد من المبشرين إلى أورميا.. ولم يطل الوقت قبل أن تقوم البعثات الأمريكية الجديدة بافتتاح مقارها فى الموصل المجاورة (شمال العراق حاليًا)، وفى آشيثا (قرب الحدود العراقية التركية الحالية).

كانت تلك ريادة أمريكية فى أقصى شجاعتها وأفضلها، وهى التى تستحق ذكرها عن جدارة فى كتبنا المدرسية الأمريكية؛ حتى بعد أن أدى تصحيح السياسات حاليًا إلى الحيلولة دون إضافة المزيد من الأسماء.

فى أمريكا فى عام ١٨٣٥ ؛ لم يكن أبراهام لينكولن - الشاب من ولاية إلينوى- قد مضى عليه سوى ثلاث سنوات منذ استطاعته إخضاع قبائل الهنود الحمر المحلية فى حقل الصقر الأسود، ولم يستطع بناء خط سكك حديدية على مدى عشرين سنة بعد ذلك، ولم تكن ولايتا نبراسكا ووسكنسن تشملان حفنة من البلدات الصغيرة والحصينة وسط البرية. وكان أوائل المستوطنين البيض يعملون جاهدين على التسلل إلى وادى ويلياميت فى أوريجون؛ فيما كانت أوكلاهوما ما زالت أرضًا مجهولة ومأهولة بالهنود الحمر. مع ذلك كانت هناك عائلتان أمريكيتان هما عائلة جوزستين بركينز وآشيل جرانتس، استطاعتا إنشاء مستوطنة عند بحيرة فى جبال إيران قرب أرمينيا وكردستان وأذربيجان، وتلك منطقة ستظل حتى تسعينيات القرن الحالى - بعبارات جوديث جرانت فى رسالة بعثت بها إلى الوطن فى عام ١٨٣٥ - من بين «أسوأ وأخطر مناطق العالم».

كان المشروع برمته غريب الأطوار، ومع ذلك فقد ظل يقف شاهدًا مبكرًا على أن العزلة الأمريكية التى طالما تحدثوا عنها كانت تخالطها روح من التفاؤل والدينامية لا تعرف حدودًا إقليمية.

ومن بين النساطرة فى أورميا كان العدد لا يزيد على ٦٠٠ فقط بالمقارنة مع ألفين من اليهود، وأكثر من ٢٧ ألفًا من المسلمين. وعلى الرغم من أن طائفة النساطرة- فضلاً عن عناصر يهودية ومسلمة أيضًا- أصبحوا من أخلص الأصدقاء بل وحماة المبشرين بفضل ما تلقوه منهم من مساعدة إنسانية؛ لم يتمكن المبشرون - سوى - من تحويل حفنة فقط إلى المذهب البروتستانتى.

على أن الأهم من ذلك؛ أنهم بفضل المدارس والعيادات الطبية فى مناطق قاسية لم تعرف يومًا خدمات حكومية، فإن المجمعيين كانوا فى واقع الأمر يقومون بإدارة أول برنامج معونة خارجية لأمريكا، وعندما تواصلوا فى المنطقة مع أحوالها ولغاتها، بدأ المجمعيون يصبحون بمثابة رواد رومانسيين بل وعاملين فى هيئات السلام الأمريكية أكثر من كونهم مبشرين حقيقيين. على سبيل المثال، كان آشيل جرانت قد أنشأ عيادته فى أورميا وبعدها انطلق ليُجرى دراسة إثنوجرافية للجبال الكردية بدعوى أنه قد يجد بعض النساطرة لتحويلهم إلى مذهبه.

لكن بيروت - الميناء الصغير سريع النمو فى سوريا الكبرى الذى كانت تحيطه أشجار الأرز فى سلسلة جبال لبنان، هى المكان الذى استطاعت فيه جالية التبشير الأمريكية بالشرق الأوسط أن تجد لشخصيتها مستقرًا ومنطلقًا.

* * *

فى نوفمبر ١٨٢٣؛ عندما وصل الأمريكيون الأوائل لميناء بيروت واستطاع بيتر آبوت - وكان قنصلاً بريطانيًا يجمع بين الحنكة والحكمة والدراية الواقعية- أن ينقذ هؤلاء القادمين الجدد من ولاية ماساشوسيتس الأمريكية (الزوجان ويليام جوديل، والزوجان إسحاق بيرد وقد خالطهم الاضطراب) من براثن الحاكم التركى مدخن الأرجيلة، ودعاهم للإقامة فى

بيته ؛ ريثما يجدون مساكن مناسبة، كان القنصل بذلك يُرسى نمطًا ثابتًا. وعلى الرغم من أن الثورة الأمريكية كانت قد وقعت منذ أربعة عقود فقط، كما انتهت حرب ١٨١٢ منذ ثمانى سنوات فحسب؛ فإن مشاعر الكراهية كانت سنة ١٨١٥ ما زالت حية فى النفوس وسط البيئة الأجنبية المعادية فى الشرق الأوسط؛ فلم يجد هؤلاء المجمعيون- أبناء نيو إنجلاند- سوى حلفاء طبيعيين وفوريين هم البريطانيون(*). ولم يقتصر الأمر على البريطانيين فى كونهم كالأمريكيين يتكلمون الإنجليزية؛ بل كانوا أيضًا بروتستانت قاموا منذ فترة قريبة بإيفاد مبشرين على نفقتهم إلى الشرق الأوسط، وكانوا قد استقروا بالفعل فى منطقة المشرق، فاستطاعوا تولى زمام القيادة بالنسبة إلى القادمين من الأمريكيين البسطاء، وستمر سنوات كثيرة يظل فيها القنصل البريطانى هو الحماية الرسمية والممثل الرسمى عن المبشرين الأمريكيين فى سوريا.

دفعت القيم بدورها بالأمريكيين إلى معسكر البريطانيين، كما أن الأمريكيين وجدوا أنفسهم متعاطفين بدورهم مع السكان العرب المحليين فى نضالهم اليومى ضد السلطة العثمانية، وكان الأمريكيون من ناحية؛ مدفوعين فى ذلك بدعوتهم التبشيرية، وكذلك بتجربتهم التى لم تكن بعيدة

(*) جوديل وبيرد كانا أول أمريكيين فى بيروت، وقد حصَّلا التعليم الاعتيادى للمبشرين البروتستانت؛ حيث كان جوديل قد تخرج فى كلية دارت موث ومعهد أندوفر اللاهوتي؛ فيما تخرج بيرد فى جامعة ييل ومعهد أندوفر أيضًا.

فى الزمن عن التحرر من الطغيان الأجنبى وكذلك فعل البريطانيون الذين كانوا بدورهم خصومًا مستنيرين للأتراك.

من ناحية أخرى؛ كان ثمة رابطة من الولاء تتشكل نحو المكان ذاته فى نفوس البريطانيين والأمريكان البروتستانت، وهذا المكان هو بيروت بل ولبنان بوصفه جزءًا متميزًا من بلاد الشام؛ وليس بوصفه بلدًا قائمًا بذاته؛ وعندما عاد سميث إلى بيروت عقب مغامرته التى أوصلته إلى حافة الموت فى إيران مع دوتيس دوايت. وبعد رحلة عند المجامع الدينية فى بوسطن وفى أندوفر القريبة منها ربما كانت القدس هى أفضل محطة لإيفاد المبعوثين؛ لكن فى واقع الأمر كانت القدس وقتها موقعًا إقليميًا يحفه الجمود والبرود والتعاسة ويقع تحت سيطرة الأتراك؛ فى حين كانت بيروت مرفأ يأخذ بأسباب التحديث وينعم بمناخ رائع وفريد وتحيط به جبال خلابة مثل نظيراتها فى أوروبا... وعندما انضم إيلى سميث وغيره إلى عائلتى جوديل وبيرد فى أواخر العشرينيات من القرن الثامن عشر، بدأت بيروت تشكل مجتمع الوافدين الحقيقى - على الرغم من ضيق مساحته- قبل أن تكون محطة أمامية لإيفاد المبشرين مثل القدس أو أورميا. رجع فيها إلى الساحل الشرقى لأمريكا للزواج... يومها شعر- بكل معنى- بأنه بعودته إلى بيروت، فإنما يعود إلى«الوطن».

عروس سميث واسمها سارة هانتنجتن؛ كانت مثل زوجها من عائلة كبيرة فى كونكتيكت. كان جدها قد ساعد فى إنشاء مجلس التبشير فى بوسطن، وما أن وجدت هذه الأرستقراطية ابنة نيو إنجلاند نفسها- فى

بيروت حتى أصبحت شغوفة ومولعة بكل ما هو إنجليزي. كان موقع «نبلاء الإنجليز» فى الكنيسة هو الذى جعلها تدرك أن«أفضل» الأمريكيين تربية هم فقط الجديرون بأن يستعرضوا أنفسهم فى سوريا وقد كتبت يومًا تقول: «إن ما يتصف به بعض مواطنينا الجمهوريين الطيبين من أخلاق ساذجة ومتفردة يتعارض إلى حد الأذى مع الذوق الأجنبى».. هكذا كانت الصفوة المتدينة من نيو إنجلاند تبدى ميلاً ملحوظًا تتطلع فيه إلى البريطانيين خصوصًا النوع المرموق والغريب منهم. مثلاً، أصبح من آيات الشرف لأى أمريكى فى ثلاثينيات القرن الماضى فى بيروت أن تتاح له فرصة الاجتماع إلى ليدى هيستر ستانهوب التى عرفوها باسم راهبة لبنان المجنونة، وهى ابنة إيرل إنجليزى عاشت طويلاً فى صفوف البدو وباتت تشغل قلعة متداعية تطل على صيدا، وكانت تدرس السحر وفن التنجيم.

وبعد أن هيأت سارة لزوجها إيلى سميث بيتًا فى بيروت، عاود على الفور دراساته العربية التى تفرغ لها على مدار السنوات الثلاث والعشرين التالية حتى وفاته عام ١٨٥٧، وكانت تتخلل هذا النشاط رحلات منظمة فى كل أنحاء سوريا الكبرى وفلسطين. وكانت إجادته للعربية من الإتقان؛ لدرجة أنه حين وفاته كان قد قطع شطرًا كبيرًا من أجل إنجاز أول ترجمة على الإطلاق لإنجيل البروتستانت من الإنجليزية إلى العربية (*). وكان سميث قد جمع قائمة موسوعية بالمدن والقرى السورية التى شكلت أساس

(*) أكمل الترجمة زميل مبشر فى بيروت هو الدكتور كورنليوس فان دايك.

المعرفة الجغرافية لمن أتى من الاختصاصيين فى الشرق الأوسط؛ ومن خلاله بدأ معنى المبشر يتغير من مجرد الواعظ أو الرحالة أو المكتشف الجهم السيئ الاستعداد إلى المستشرق المتفرد والعالم المربى الذى يتواصل مع ثقافة فريدة ومع الخط العربى الشديد الثراء.

كان المبشرون يتكيفون ببطء ولكن بثبات مع البيئة التى عاشوا فيها. كان هناك جوناس كينج خريج كلية ويليامز، يدعو من صميم قلبه إلى الخلاص من الحكم الاستبدادى المسلم للأتراك، ولكنه كان يرتدى القاووق على رأسه ويربى لحيته حتى يسهل عليه أكثر التواصل مع العرب مع ذلك... فبينما كان المبشرون قادرين على التوصل إلى أسلوب تعامل مع العرب المسلمين المحليين، فإن علاقاتهم مع المسيحيين المشرقيين كانت تتطور من سيئ إلى أسوأ.

فبسبب محاولة تحويل بعض المسيحيين إلى البروتستانتية، أعلن أن ويليام جوديل وإسحاق بيرد شخصيتان غير مرغوب فيهما بين صفوف الروم الأرثوذكس والموارنة، وكان الموارنة بالذات هم الذين ضايقوا المبشرين الأمريكيين كثيرًا، ففى عيون البروتستانت، يعد الروم الأرثوذكس مذهبًا يسجد كل وثنية الشرق وفساده ببساطة وبغير استثناء. ولكن لأن المسألة مع الموارنة كانت أكثر تعقيدًا، فإن البغضاء ضربت بجذورها فى أغوار بعيدة.

الموارنة يتخذون اسمهم من اسم راهب قديس من القرن الخامس هو مار مارون، وقد نشأ المذهب فى شمال وسط سوريا قرب مدينة حماة بوصفه انشقاقًا من المسيحية التقليدية، وهى مذهب الروم الأرثوذكس. الذى كانت تدين به إمبراطورية بيزنطة. وعندما فتح العرب المسلمون فى

القرن السابع المنطقة، فإن الموارنة رحبوا بهم وانتهى بهم الأمر إلى اتخاذ العربية لغة شعائرهم، وظلوا يستخدمونها حتى اليوم، ويبقى من غير الواضح بالضبط متى هاجر الموارنة من شمال سوريا إلى الجبال فى شمال وشمال شرقى بيروت، ولأنهم ظلوا مذهبًا صغيرًا محاطًا بالأعداء؛ فقد تعايشوا على عقد الصفقات مع أى قوة تمتلك مقاليد الأمور فى لحظة ما. وعلى الرغم من ادعائهم التفوق الدينى على كنيسة روما؛ فإن الموارنة أرسلوا التهانى إلى البابا، وانضموا إلى صفوف الصليبيين فى اللحظة التى قامت فيها أول حملة صليبية بغزو بيت المقدس.

وعندما دارت الدائرة على الصليبيين؛ تحول الموارنة بولائهم إلى المماليك فى مصر، الذين استطاعوا بعد ذلك طرد الصليبيين. ومع ضعف شوكة المماليك فى الشرق الأوسط استأنف الموارنة علاقاتهم مع الكنيسة الكاثوليكية عشية الغزو التركى- العثمانى بما ضمن لهم تحالفًا يحميهم مع فرنسا؛ بوصفها قوة كاثوليكية كبيرة فى ذلك الوقت.

والموارنة عناصر جبلية صعبة المراس؛ وهم قادرون بكل طريقة على التعايش والاستمرار. فضلاً عن ذلك كان الوقت قد حان كى يشرعوا فى تطوير عقيدتهم الوطنية. وعلى خلاف سائر أبناء سوريا الكبرى، فإن الموارنة - بمعنى سياسى على الأقل- كانوا بالفعل فى طريقهم ليصبحوا شعبًا يأخذ بأسباب الحداثة، ولأن المبشرين البروتستانت كانوا لا يشكلون بوضوح قوة سياسية تؤخذ على محمل الجد، فلم يعاملهم الموارنة قط بالاحترام والتوقير نفسه الذى عاملهم به العرب المسلمون.

أما المبشرون الكاثوليك الفرنسيون؛ فكانوا فى سوريا يعملون مع الموارنة على مدار ١٥٠ سنة قبل وصول البروتستانت الأمريكيين

من نيو إنجلاند؛ لهذا فلم يكن من العجيب أن يكون رد الفعل غاضبًا من جانب الحكومة الفرنسية والقيادات المارونية؛ إزاء كل من البريطانيين والأمريكيين وهم يذهبون لإلقاء عظات فى القرى المارونية.

زادت التوترات فى عام ١٨٤٠؛ عندما بدأت قوات محمد على من مصر فى الانسحاب من سوريا؛ ولأن الموارنة كانوا، على طريقتهم المثلى، قد دخلوا فى علاقات طيبة مع العسكرية المصرية خلال احتلالها قصير الأمد؛ فقد باتوا- فى ذلك الحين- فى موقف مكشوف، لقد عاد الأتراك فأعطوا تأييدهم العسكرى إلى الدروز، أكبر خصوم الموارنة- وهم طائفة كانت تنتمى بسبب ما للإسلام وعاشت أيضًا فى جبال لبنان، واستجاب الفرنسيون إلى استفزاز الأتراك بزيادة مساندتهم للموارنة مما دفع بالبريطانيين، وإلى حد ما بالمبشرين الأمريكيين- إلى دعم الدروز. وهكذا فبالنسبة إلى المبشرين البروتستانت كان «العدو» قد أصبح هو الموارنة ومن يحمونهم من الفرنسيين.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان البروتستانت القادمون من نيو إنجلاند إلى بيروت يقاومون المرض والموت، ولو على نطاق أضيق من إخوتهم فى إيران- وفى ضوء تشكيلة من المواقف والتحيزات - كان هذا كله من أجل تحويل ما لا يزيد على ثلاثين من أبناء سوريا المحليين إلى البروتستانتية؛ لكن الشخصية هى قدر الإنسان، وشخصية رجل واحد من ولاية فيرمونت، سرعان ما سيصل إلى بيروت، سيقدر لها أن تلم كل أطراف الأعمال الخيرة التى اجترحها المبشرون، وقد كانت مشتتة وأحيانًا لا يقدرها أحد فى سوريا ومن ثم يعطيها اتجاهًا ديناميًا ؛ حيث تؤثر فى السياسة الأمريكية فى المنطقة حتى نهاية القرن العشرين، هذا الرجل كان اسمه دانييل بليس.

الفصل الثاني

أجمل موقع فى بيروت

لو كان ثمة نموذج قح للبروتستانتى الأمريكى من الجيل الأول لكان هذا النموذج اسمه « دانييل بليس »، الذى ينحدر من عائلة مجمعية جاءت من إنجلترا بعد سنوات قليلة من مجيء الحجاج المهاجرين الأوائل إلى أمريكا ، ثم شب عن الطوق فى مزرعة نائية فى وادى فيرمونت وكأنه يكرر بذلك حياة أبراهام لنكولن الذى كان قد نشأ قبل ذلك بسنوات فى أنديانا. ثم هاجر بليس وهو فى الثالثة عشرة من عمره إلى أوهايو فى عربة مغطاة تجرها الخيول وبعدها فى قارب فى ترعة إيرى، ثم عاد شرقًا ليدرس اللاتينية واليونانية والعلوم اليهودية فى كلية أمهرست.

«بليس» شأنه شأن كثير من الأمريكيين الذين استقروا فى بيروت، نشأ فى بيئة ريفية شهدت طفولته؛ ولم تكن بالبيئة الميسورة بحال ولكنها حظيت بذكريات جميلة يتداعى معها تلك الصرامة وأحيانًا شظف العيش الذى تتولد منه شخصية فى صلابة الفولاذ وآداب مجبولة على الخير والطيبة، يقول بليس فى كتابه بعنوان «ذكريات»: «أكثر مشاهد حياتى التى بقيت فى الذاكرة هو الينبوع البارد قرب شجرة البلسم الباسقة، وهو أيضًا جمع اللوزات والفستق فى الخريف وجمع التوت بأنواعه فى

مواسمها». وكان دانييل الصغير يستعد لقدوم الشتاء بخزن البطاطس وعصر التفاح؛ وكان يمتطى جواده لحراسة الأرض ويحمل المياه من النبع ويأتى بالحطب إلى الموقد. وكشأن لنكولن أيضًا؛ ذاق بليس الصبى تجربة وفاة أمه، ومن أمه كان قد تعلم حب الكتب المقدسة التى كان ما يفتأ يستشهد بفقرات منها وكانت الدروس المستفادة من سطورها هى التى تطبق على الموقف الذى عاشه فى لبنان.

بليس كان يعشق التعليم بكل جوارحه، شأنه أيضًا شأن أبراهام لنكولن، وعندما كان فى سنوات الصبا الأولى كان يبكي، كما اعترف بعد ذلك، مثل طفل عندما كان أبوه وأخوه الأكبر يرفضان السماح له بالانتظام فى مدرسة البنين فى استنبرغ- أوهايو. وسرعان ما استطاع أن يلتحق بمدرسة من اختياره ووجد عملاً فى مزرعة قريبة أتاح له دفع المصاريف، وبعدها كان القوم يشهدون بليس -الشاب- يجول فى أنحاء منطقة بحيرة أيرى؛ يدق على بوابات المزارع بحثًا عن أى فرصة متاحة تمكنه من سبل العودة إلى سلك الدراسة. عمل فى دباغة الجلود وفى قطع الأشجار كى يمول دراسته فى كلية فى كينجز فيل فى مكان ليس بالبعيد فى شمال شرق ولاية أوهايو (كان عمره فى ذلك الوقت - ١٨٤٦ - ثلاثة وعشرين عامًا).

وفى تلك الكلية تجلى نبوغه على الفور؛ فطلب منه عميدها أن يعمل معيدًا بها وكان قد قارب السادسة والعشرين، وبعدها عاد إلى منطقة نيو إنجلاند ليدخل كلية اللاهوت الشهيرة فى أمهرست.

كانت كشأن المعاهد الرفيعة فى القرن التاسع عشر فى منطقة نيو إنجلاند؛ تؤدى دورها بوصفها مؤسسة صغيرة وحميمة إذ كانت تضم أقل من عشرة أساتذة مهمتهم الأساسية أن يعدو طلابهم من أجل «عالم متحضر ومتحول إلى الإنجيلية». وفى ضوء الطموح الذى راود الفتى- فضلاً عن تجارب التجوال التى خبرها فى شبابه فى أوهايو - بدا الأمر وكأنه كتب على بليس أن يفضى به المطاف لمهمة تبشيرية خارج الحدود.

كانت للفتى مواقف للتحدى فى أمهرست شبيهة بمواقفه فى سابقتها فى كينجز فيل. ففى خطاب استهلالى ألقاه فى الكلية دعا إلى ما وصفه بأنه «تحريك» دائم فى ميدان الديانة ومضمار السياسة؛ باعتبار أن ليس هناك «حد نهائى تقف عنده حدود الإلهام والتجليات» إلا عندما تضاء أرجاء العالم كله بالاستنارة وتشرق على آفاقه كلها شمس الحرية.

كانت لفظة بروتستانتى بالنسبة إلى بليس تفهم فى معناها اللغوى الأصلي: التمرد على نظام دينى وأخلاقى متجمد وكانت المثالية البروتستانتية التى انتفضت بالحياة بفعل الحركة السياسية؛ وزاد من شحنتها التأملات الفكرية هى التى تسيطر على الجو السائد فى أمهرست وكذلك على معهد أندوفر الدينى الذى كان المحطة التالية التى انتقل إليها بليس... يومها كان بليس يعلم زوج المؤلفة «هاريت بيتشر ستو» صاحبة رواية «كوخ العم توم» الشهيرة. أما السيدة التى تزوجها بليس وهى آبى وود؛ فكانت صديقة مقربة من الكاتبة والشاعرة الشهيرة أيضًا إميلى ديكنسن. وعندما كان صاحبنا فى الخامسة والثلاثين أبحر من ميناء

بوسطن فى ديسمبر ١٨٥٥ وبصحبته عروسه، ولم يمض على زواجهما ثلاثة أسابيع قاصدًا بلاد الشام، وكان سلوكه بهذا هو سلوك المبشر البروتستانتى فى الجوهر وفى الأساس.

من هنا لم يكن دانييل بليس يمتلك الخلفية الصحيحة لمهمته فحسب بل وكان - وهذا هو الأهم- قادرًا على تحديد نقطة البداية من خارج الصورة، كما قد نقول، ومن ثم ارتقى قمة الفئة التى ينتمى إليها بين صفوة خريجى معاهد نيو إنجلاند... ولأن مسار حياته اجتاز أكثر من محطة من المشاق إلى أن تحقق له النجاح، فلم يكن ثمة شكوك تراود الرجل وإنما كرس نفسه لتحقيق المثل المزدوج للثورى الأمريكي: إحراز التقدم وارتقاء مدارج الكمال الإنساني، كانت تحدوه قناعة مطلقة بأن التعرض لقيم الحق وتحصيل التعليم السليم هو كل ما يتطلبه توجيه الشعوب والثقافات مهما كان جنوحها إلى حيث يتحقق المجد لله، وهذا ما أودعه فى عبارات خطابه الاستهلالى فى كلية أمهرست. حتى سحنة بليس كانت تعكس هذا كله، كانت قسماته خطوطًا مستقيمة كأنما نحتت من رسم من إبداع جرانت وود؛ ملامح قاسية بزوايا حادة تطل منها عينان صافيتان على شاكلة أهل نيو إنجلاند تشعان ثقة عمياء وقناعة لا تهتز... يخالطهما حسن من تفوق الخيرين.

كانت محطته التبشيرية الأولى فى سوريا «الكبرى» فى منطقة «عبية» المرتفعة فى الجبال المحيطة ببيروت. وكانت محطته الثانية على بعد أميال قليلة شمال بيروت فى سوق الغرب. المحطة الأولى كانت تتسم بمناخ نادر

وجمال أوروبى الطابع، وفيها تعلم بليس كيف يحب لبنان. أما فى «سوق الغرب» فلم يَرُقْ له أمر المسيحيين من روم أرثوذكس وموارنة الذين سرعان ما رأى فيهم «المحرك» -بليس- تجسيدًا بليغًا لما كان يرفضه من نظام دينى واجتماعى عفى عليه الزمن وران عليه الجمود. إن رهبان الروم الأرثوذكس لم يقصروا فى إثناء الصبية المحليين عن الاختلاف إلى مدرسة التبشير التى افتتحها بليس فحسب، بل وعملوا أيضًا على أن يغلقوا أبوابها. وفى كتابه «ذكريات» يورد صاحبنا مثالاً عن تلميذ تحدى أوامر الرهبان فجاء إلى المدرسة وأصبح هذا الصبى بالذات طبيبًا وقاضيًا فى المحكمة. ولو كان بليس بحاجة إلى أى إثبات ليؤكد فعالية التعليم الغربى فى بيئة الشام الفاسدة لكان هذا الدليل هو تصميم ذلك الصبي. فبالنسبة إلى بليس كانت معاناة الصبا وحرمان الفتى من التعليم أمرًا قريب العهد فى وجدانه؛ ومن ثم كان يفهم تمامًا التوق الذى كان يتأجج بين جوانح الفتيان العرب شوقًا إلى التعليم.

وخلال نشوب القتال فى عام ١٨٦٠ بين الموارنة والدروز؛ تعلم بليس شيئًا آخر: عدم الثقة بصنعة السياسة حتى ولو كانت سياسة بريطانية أو أمريكية. وبينما كان يجهد فى إنقاذ جماعة من المدنيين المسيحيين الذين أحيط بهم وسط اشتباكات الحرب، إذا بالقنصل البريطانى يرفض مد يد المساعدة باعتبار أن ذلك من شأنه تعقيد علاقات بريطانيا مع الدروز والمسلمين، من هنا رأى بليس أن المبشرين ينبغى أن يشكلوا قوة قائمة على حدة بدلاً من أن يكونوا خاضعين لمتطلبات السياسة الدولية بكل مشاكلها.

وكان السؤال: لماذا هذا الاستقلال؟ هل ليتاح الفرصة لمجرد الوعظ والإرشاد أو لتقديم تبرعات البر والإحسان هنا أو هناك بعد اندلاع مذبحة أو تفشى وباء؟ لا، إن نتيجة مثل هذه الأنشطة فى سوريا الكبرى ثبت أنها أضعف من أن ينجم عنها أثر دائم. المبشرون بحاجة إلى أداء دور أكبر من ذلك، وهكذا أصبح واضحًا أمام بليس كما سبق أن اتضح فى عيون ويليام طومسون وإسحاق بيرد أن التعليم الغربى هو أكثر الأسلحة مضاء وفعالية.

وبحلول عام ١٨٦٠؛ كان المبشرون الأمريكيون يعملون على تشغيل ثلاث وثلاثين مدرسة فى بلاد الشام، ولأن هدفهم النهائى كان «تمدين المجتمع السورى» فبعد كثير من المناقشات وبعد أخذ ورد فى الأفكار أدركوا أن ما يحتاجونه هو كلية غير مذهبية تفتح أبوابها لكل الأجناس والأعراق وتقوم بعملها على أعلى مستويات موجودة فى منطقة نيو إنجلاند الأمريكية، ومن ثم ينجم عنها أثر دينامى بالنسبة لتوجيه الثقافة والحضارة فى بلاد الشام. مثل هذا الهدف لم يكن ليتسنى تحقيقه إلا بدمج هذه الكلية أو الجامعة مع البيئة المحلية؛ وهذا ما لم يفعله البريطانيون أو الفرنسيون على السواء.

ولتحقيقه أيضًا: فمن الطبيعى أن تكون العربية وليست الإنجليزية هى لغة التعليم. وكثيرًا ما كان مجلس التبشير فى بوسطن يؤكد أهمية اللغة العربية فى معركته لكسب متحولين إلى المسيحية فى الشرق الأوسط. على أن القرار بتعليم العرب بلغتهم ذاتها كان يتسم بشجاعة خاصة بحد

ذاته؛ لا لمجرد ما يكمن فى تعليم العربية من صعوبة بالغة، وفيما استطاع الجزويت أن يجتذبوا أعدادًا كبيرة من الطلاب إلى المدارس الكاثوليكية الفرنسية بسبب رغبة اللبنانيين فى تعلم لغة أوروبية. فإن مجلس بوسطن الأمريكى - وقد سانده فى ذلك بليس - لم يرضخ إزاء الإغراء بمنافسة الجزويت؛ فيطرح الإنجليزية كلغة تعليم فى المدارس الأمريكية. كان مبشرو نيو إنجلاند على استعداد للتضحية بقدر من النفوذ الذى تمتعوا به فى الشام؛ من أجل تمكينهم من التأثير فى قيم مجتمع تلك البلاد، كانوا يعرفون أنهم بتعليم الإنجليزية لن يتسنى لهم سوى خلق شريحة من الصفوة العربية فحسب معزولة عن شعبها، ولسوف ينتهى المطاف بكثير من عناصرها بالهجرة إلى أمريكا أو إنجلترا.

يكتب ستيفن بنروز- وهو من كبار رجال التربية الأمريكيين فى بيروت - فيقول: إن أسلافه من المبشرين لم تكن لديهم رغبة كما كان لدى غيرهم فى «فرنجة» أبناء البلاد الأصليين لأغراض إمبريالية ؛ بل أدركوا الثروة التى لا توصف للثقافة العربية المهددة بالانقراض فكان أن قرروا «الاستفادة منها».

إن اختيار البروتستانت للعربية لغة لكليتهم الجديدة، وعلى الرغم مما نجم عنه من مآل سيئ، كان مرتبطًا أوثق الارتباط بنضالهم الذى لم يهدأ لتحويل مجتمع الشام من داخله على أساس من الشراكة بدلاً من العمل من الخارج على نحو ما كان يفعله الفرنسيون أو البريطانيون. وفيما اختار الفرنسيون والبريطانيون فى سوريا التنافس وأن يتطارحوا

القوة على مسرح السياسة؛ فإن الأمريكيين ركزوا على صعيدى المجتمع والتربية والتعليم، وكان من شأن هذا أن يكسب الأمريكيين محبة العرب واحترامهم، ومن هنا يكتب جورج أنطونيوس، المؤلف المسيحى العربى فى كتابه الموسوعى حول القومية العربية الذى نشره عام ١٩٣٨ بعنوان «اليقظة العربية» فيقول:

« نجمت مزية فائقة عن الأنشطة التعليمية التى مارسها المبشرون الأمريكيون فى تلك الفترة المبكرة بين مزايا أخرى كثيرة. فقد أضفوا على العربية مكانة الاعتزاز، وألزموا أنفسهم بالتعليم بتلك اللغة فكان أن تحملوا بهمة ونشاط واجب تقديم أدبيات لها قيمتها. وفى ذلك كانوا روادًا لتلك الثورة الثقافية التى ميزت الإرهاصات الأولى لحركة الإحياء العربية التى تدين لكثير من أياديهم البيضاء».

على أن هذا الإيثار من جانب المبشرين كان له أيضًا عواقبه الأخرى؛ فقد زاد من مشاعر العداوة من جانبهم التى ضاعف منها افتراض بتفوقهم الأخلاقى إزاء الفرنسيين وإزاء الموارنة الذين يتبعون نهجًا فرانكفونيًا عميقًا، وبعد ذلك بسنوات سنجد مارجريت ماك جلفاري- سكرتيرة فرع بيروت للصليب الأحمر الأمريكى- تعرب عن سخط وغضب شديدين لأنه فيما يعمل الأمريكيون فى سوريا «بدوافع إنسانية بحتة» فإن القساوسة الفرنسيين كانوا «عملاء للبروباجندا السياسية».

من هنا تعمقت عزلة الوافدين الأمريكيين فى بيروت إزاء السياسات الواقعية للدبلوماسية البريطانية، بل وكذلك إزاء دبلوماسية بلدهم ذاته

الذى كان فى تلك الفترة مشغولاً بحربه الأهلية بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها، ومن ثم لم تستطع سياسته أن تلمح أبعاد القضايا الأخلاقية التى يحدق بها الخطر وقت ذاك فى الشرق الأوسط.

هذا الإحساس بالعزلة والتفرد، بأن القوم يحفرون قدر أمريكا فى صخر الأرض المقدسة الأصيلة دون مساعدة أو إعاقة من جانب الحكومة الأمريكية، كل هذا أضاف وقودًا سيكولوجيا تعززت به الأسباب العملية العديدة التى دفعتهم إلى إجادة العربية أو إلى أن يكونوا مستعربين تمامًا بعبارات أخرى، وكما يلاحظ ستيفن بنروز : فإن المبشرين بدءوا بأنفسهم فى تعلم العربية ثم علموا ووعظوا وكتبوا أو ترجموا المقالات والكتب باللغة العربية، ثم جاء يوم ٣ ديسمبر ١٨٦٦ ليشكل نهاية حقبة للأمريكيين فى الشرق الأوسط وبداية حقبة جديدة، فى ذلك اليوم افتتحت الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت (*) أبوابها رسميًا لينتظم فى سلكها ستة عشر طالبًا ويكون دانييل بليس أول رئيس لها (**).

أما رئيس مجلس أمناء الكلية فكان القس الأبرشى ديفيد ستيوارت دودج (وشمل المجلس أيضًا شقيق القس المذكور ويليام إيرل دودج). هكذا لم تعد الجالية الأمريكية فى بيروت تركز نفسها حول مجموعة متنوعة من المبشرين؛ بل تركزت حول كلية جامعية.

(*) المدرسة الكلية السورية الإنجيلية - قاموس الأعلام للزركلى جزء ٢ (المترجم) .

(**) بعد ثلاث سنوات فى عام ١٨٦٣ قام عضو سابق فى مجلس التبشير بفتح كلية روبرت فى إسطنبول، وفى عام ١٨٦٥ قامت الكنيسة المشيخية المتحدة لأمريكا بافتتاح كلية أسيوط فى صعيد مصر الأوسط، ولكن نفوذ وتأثير هاتين الكليتين كان هامشيًا على العلاقات العربية- الأمريكية .

فى بادئ الأمر؛ تألفت الكلية البروتستانتية السورية من بضع غرف فى حفنة مبان، وفى الوقت نفسه جاهد بليس والأخوان دودج فى البحث فى كل منطقة بيروت عن حرم جامعى دائم، وبعد عام كامل من البحث توصلوا إلى «أجمل موقع فى بيروت، إن لم يكن فى بلاد الشام بأسرها». واستطاعوا تأمينه بدفع مقدم خمسة آلاف دولار. وتشاء الأقدار أن يكون الموقع فى الجزء المسلم من مدينة بيروت فوق ربوة تطل بمنظر ساحر على البحر الأبيض المتوسط وخليج سان جورج... فى البقعة التى يقال إن القديس المسيحى قتل فيها التنين الشرير.

وفى ٧ ديسمبر ١٨٧١؛ وضع بليس والأخوان دودج حجر الأساس لحرم الكلية، والكلمات القليلة التى تفوه بها أمام الجمع الصغير ستصبح بعد ذلك مجسدة فى حوليات الاستعراب، بل وتكتسب قوة مع مرور السنين، ولا عجب ففى ذلك اليوم حدد بليس معالم رؤية الكلية السورية التى لم تكن تمثل خلاصة لروح الإنصاف والمساواة التى تطلعت إليها اليقظة العربية فحسب، بل وكانت إرهاصًا للروح الدولية التى دعا إليها الرئيس ويلسن:«إن هذه الكلية تفتح أبوابها لكل البشر من مختلف الأوضاع والطبقات دون نظر إلى لونهم أو جنسيتهم أو أرومتهم أو ديانتهم، من حق أى إنسان أبيض كان أو أسود أو أصفر أو حتى بغير ديانة أن يدخل إلى هنا وينعم بكل مزايا هذا المعهد لثلاث أو أربع أو حتى ثمانى سنوات ثم يخرج وقد آمن برب واحد أو بغير ذلك، لكن سيكون من المستحيل على أى أمرئ أن يواصل مسيرته معنا دون أن يعرف أننا نؤمن بالحق ويتعرف على أسباب هذا الإيمان».

بعبارات أخرى؛ فعلى الرغم من أن المبشرين كانوا مستعدين فى نهاية المطاف للاعتراف بفشلهم إزاء تحويل اليهود والمسلمين والمسيحيين المشارقة إلى المذهب البروتستانتى؛ فإنهم كانوا مصممين أيضًا على تحقيق فوزهم على الساحة العلمانية من خلال ما عملوا عليه من زرع القيم البروتستانتية فى مجتمع سوريا الكبرى، وهى القائمة على الديمقراطية والعمل الشاق وحرية البحث الفكرى.

وتكشف الأمر بعد سبعة عشر عامًا من المحاولة عن أن اقتصار التعليم على اللغة العربية كان أمرًا غير عملي، ويرجع هذا أساسًا إلى استحالة الحصول على كتب علمية مستحدثة بتلك اللغة، وعلى الرغم من أن الإنجليزية أصبحت منذ ذلك الحين لغة التعليم الأساسية، فإن دروس العربية ظلت جزءًا من منهج التعليم بما أزكى من روح الديمقراطية والقومية داخل الكلية السورية البروتستانتية، وقد تبددت نتائج هذا كله فى القرن العشرين الذى تلاه.

أدرك بليس أن الشرق فيه «الذاكرة مكتملة وشديدة النضوج» لدرجة متقدمة للغاية؛ ولكن هذا الأمر لا يصدق فى الوقت نفسه على العقل والمنطق. إن حشو أدمغة الطلاب بالحقائق لم يكن هو ما يحتاج إليه العرب. كان نجاح الكلية أو فشلها يتوقف على قدرتها على تعليم طلابها كيفية تنظيم الحقائق وتفسيرها. لم تكن ثمة طريقة حقيقية لإنجاز هذا الأمر على نحو ما عرفه بليس إلا بإجبار الطلاب على التفكير بصوت عالٍ فى الفصل؛ مع العمل فى الوقت ذاته على تبيان أوجه التناقض فى تفكيرهم ، ثم تشجيعهم

على حرية المناقشة حول كل قضية. فى هذا الصدد يقول ستيفن بنروز: إن بليس «كان يتمتع بقدرة نادرة على الوصول إلى أدمغة طلابه، تلك العقول الشرقية الصميمة التى تفكر بالصور والحكايات. كان أستاذًا فى أحكام التصوير وكان نموذجًا لا يبارى يحكى القصة ثم يستخلص منها الموعظة، وتلك كانت طريقة المسيح عليه السلام فى التعليم.

بطبيعة الحال؛ كان من الصعب قياس التقدم المحرز فى هذا المضمار. لقد سأل بليس نفسه فى عام ١٩١٢: من الذى صنع الكلية؟ وكانت الإجابة جديرة بأن تجرى على نسق إجابة توبسى فى كوخ العم توم عندما سألوها من الذى صنعك يا توبسي؟ فأجابت:«لا أدري، لقد ألفيت نفسى موجودة هكذا».

الكلية البروتستانتية السورية- وهى من إبداع دانييل بليس- ربما تكون أبلغ الأفكار وأكثرها تأثيرًا فى تاريخ المعونة الأجنبية. فلم يكن الأمر يقتصر على أنها كانت مشروعًا حميمًا فى الأساس لتمرير خلاصة القيم الغربية إلى العالم العربى عبر الزمن، ولكنها ظلت تمثل رمزًا جماليًا دائمًا لأمريكا فى المنطقة، وكأنها نصب تذكارى لا ينطوى على أى تهديد لسيادة أحد هنا أو هناك، بل فى واقع الأمر أصبحت الكلية عنصرًا من عناصر تعزيز السيادة العربية، وفى هذا المجال، يقول ديفيد ستيورات دودج- الذى كان جده الأعلى أول رئيس لمجلس أمناء الكلية الأمريكية-:

«عملت الكلية على نشر مناخ من التفكير الحر والحوار المفتوح؛ مما كان مهادًا ولدت فى رحمه القوميةُ العربية وأتاح للقومية العربية أن تتطور وبوسعك أن تقول إن القومية العربية نشأت فى أحضان هذه الكلية».

وودرو ويلسن (الرئيس الأمريكى الشهير) كان فتى فى الثامنة عشرة فى كلية دابتسون فى نورث كارولينا عام ١٨٧٤؛ عندما نشط الأساتذة والطلاب فى كليتهم فى بيروت، لكن الرمز الأكبر لحلمه الدولى فى تقرير مصائر الشعوب.. وقد انبثق وسط رماد حقبة ونظام استعمارى زائل - كان بالفعل قد أصبح قائمًا.

فى السنة نفسها، انتقلت مدرسة ريفية يديرها اليسوعيون إلى بيروت وأعيدت تسميتها باسم الكلية اليسوعية؛ ثم أصبحت جامعة القديس يوسف الفرنسية، وبعد الحرب العالمية الأولى غيَّرت الكلية السورية اسمها لتصبح «الجامعة الأمريكية فى بيروت» وتذيع شعبيتها تحت هذا الاسم، وعلى مدار عشرات السنين ستظل المنافسة محتدمة بين الجامعة اليسوعية والجامعة الأمريكية فى بيروت؛ لدرجة أن كلتا المؤسستين ستصبحان رمزين للبنان ذى القطبين المتعارضين: الجامعة اليسوعية رمزًا للقلب الثقافى والأيديولوجى للبنان؛ إذ يرى نفسه فرنسيًا ومارونيًا ومؤيدًا لإسرائيل وغربيًا، لبنان الذى يرى فى نفسه سليل فينيقيا القديمة، وينظر من علٍ إلى بالغ الجماهير العربية المسلمة، ثم من ناحية أخرى الجامعة الأمريكية فى بيروت التى أصبحت قلب اليقظة القومية العربية النابض التى ترى لبنان جزءًا لا يتجزأ من بلاد الشام ومن العالم العربى الأكبر، عالم جاءت دولة إسرائيل لتصبح بمثابة تذكرة مستفزة له بحقبة الاستعمار البريطاني، تمامًا كما أن لبنان الخاضع لسيطرة مارونية سيصبح رمزًا للاستعمار الفرنسى.

وبالإضافة إلى الفرنسيين والأمريكيين كان للبريطانيين والروس والألمان والإسبان والإيطاليين مدارسهم ونفوذهم المصاحب لها على قطاعات متنافسة من سكان سوريا الكبرى (المدارس البريطانية لها نفوذها على الدروز)، (والروس نفوذهم على أبناء الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وما إلى ذلك). وعليه فالأجانب الذين جاءوا بقيم غربية إلى العرب وخاصة قيم القومية الحديثة كانوا فى الوقت نفسه – ومن عجب– يعززون الانقسامات العرقية والسياسية العميقة داخل مجتمع سوريا الكبرى، مما حال بين أن منطقة سوريا وبين تصبح بحق أمة حديثة، أما جامعة بليس الأمريكية فى بيروت، فعلى الرغم من منجزاتها البارزة؛ فإنها كانت على وشك أن تجتاحها دراما تاريخية كبرى، لم يستطع المبشرون للأسف أن يفهموا بحق أبعادها ومراميها.

فى عام ١٩٠٢: كان دانييل بليس قد شارف على الثمانين من العمر، فسلم مقاليد رئاسة الكلية السورية إلى ابنه هوارد سويتسر بليس وكان كاهنًا ولد فى موقع أبيه التبشيرى فى بلدة «سوق الغرب» ثم تعلم شأن أبيه فى كلية أمهرست بأمريكا، ومثل أبيه أيضًا فإن هوارد بليس– قبل أن يعود إلى مسقط رأسه فى لبنان– اكتسب خلفيته الأمريكية عندما علم سنتين فى مدرسة توبيكا فى كانساس فى أوائل ثمانينيات القرن الماضى.

فى عام ١٩١٠: صاحب هوارد بليس (الابن) اثنين من التوءم هما بايارد وكليفلاند دودج فى أول زيارة له إلى بيروت، كانا حفيدين لواحد من الأعضاء الأصليين بمجلس أمناء الكلية، وكان كل منهما يبلغ ستة

أقدام طولاً ويتسم بالنحافة والوسامة وبعينين بهما زرقة خفيفة، وكانا قد تخرجا للتو فى جامعة برنستون، وانطلقا فى رحلة حول العالم عندما ذهب بليس الابن إلى مصر ليحضرهما.

جريس دودج - ابنة بايارد دودج - ما زالت تتذكر تمامًا أول نظرة ألقاها أبوها على بيروت عندما وقف عند مرسى السفينة يطل على بحر شديد الزرقة، ساعتها اجتاحه الإحساس بأنه يضع أقدامه على ساحل بلاد كنعان القديمة المفضية إلى فينيقيا مرورًا بيافا وصور وقيصرية وصيدا، وأخيرًا التقطت عيناه مرأى أشرطة صفراء هى السواحل، وتنهض وسطها منارة بيروت، وإذ اقترب من الميناء أشار هوارد بليس إلى حرم الجامعة فى مبانيه التى تحفها هالة سندسية ندية وترصعها أشجار الأرز الشديدة الخضرة وينهض وسطها برج حاد الزوايا علمًا علمًا ساحة الجامعة الرئيسية.

ما أجمل العالم وما أحفله بالأمل خاصة فى الشرق الأوسط! هكذا بدا الأمر فى تلك اللحظة المشمسة بالنسبة لعائلتى بليس ودودج ولجميع الأمريكيين الآخرين الذين يعيشون فى بلاد العرب. إن التصريحات النارية لقيصر ألمانى وتعبئة الجيوش عبر جنوب أوروبا وما عمدت إليه النمسا - فى آونة أخيرة - من ضم البوسنة، كل هذا بدا فى عيون الجالية الأمريكية فى بيروت وكأنه أحداث لا اتصال بينها تنتمى إلى بيئة أشد برودة وأكثر قتامة بفعل بُعد المسافة فضلاً عن انعدام الصلة مع ما هم فيه، بل إن ثورة تركيا الفتاة التى سبقت قبل عامين ظلت تنطوى على أمل بإمبراطورية عثمانية تأخذ بأسباب ديمقراطية يستطيع فيها رعاياها

من الشعوب كالعرب أن يـعيشوا بـسلام وقد طمحوا بالحلم إلى الحكم الذاتى.

«وكانت تلك سنوات من التفاؤل العظيم الذى ساد صفوف المبشرين أملاً فى أن يفسروا القرائن المتناثرة كى تعنى أنهم استطاعوا فى نهاية المطاف أن يجتازوا الحواجز إلى عالم الإسلام لكى تصل كلمتهم إلى جماهير مسلمة أوسع نطاقًا». هكذا يلاحظ جون دينوفو، وكان واحدًا من كوكبة من الأساتذة الذين يتعاملون مع الأمريكيين فى بداية القرن بالشرق الأوسط، وهو يضيف إلى ذلك قوله: «كان كثير من المبشرين يحلمون بالتأكيد بأن ثمة فجرًا جديدًا فى طريقه إلى البزوغ، إذ كانوا يتنبأون بتحويل المنطقة إلى الإنجيلية بمعنى تحويلها إلى القيم البروتستانتية الأمريكية».

وكان بوسع المبشرين أن يتصوروا هذا الأمر باعتبار أنهم كانوا- ربما بأكثر من الأوروبيين بل وأهل المنطقة أنفسهم - قوة هادئة خلف كواليس الأحداث فى تطوير المؤسسات الحيوية بمنطقة سوريا الكبرى. كانت أول مطبعة عربية فى تلك المنطقة هى مطبعة المبشرين الأمريكيين التى جاءوا بها إلى بيروت من مالطة سنة ١٨٣٤؛ مستخدمة بنطًا طباعيًا طوره إيلى سميث، فأصبح يعرف فى سوريا الكبرى باسم العربى الأمريكانى. وكانت أول رابطة ثقافية قومية عربية وهى الجمعية السورية للفنون والعلوم، وقد أنشئت عام ١٨٤٧ هى أول مشروع مشترك بين أبناء المنطقة وبين المستعربين من المبشرين الأمريكيين الأوائل ومنهم إيلى سميث وكورنيليوس فان دايك. إن إبراهيم اليازجي- وهو ابن واحد

من مؤسسى الجمعية المذكورة- كُتب ما أصبح يعرف بأول نشيد قومى عربى يظهر بالحروف اللاتينية والعربية بعنوان «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب». وهو يزين صفحة غلاف كتاب «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس الذى استوحى عنوانه من النشيد، ويشير أنطونيوس كذلك إلى « أن أول جهد منظم فى حركة القومية العربية يمكن إرجاعه إلى عام ١٨٧٥ عندما قام خمسة شباب؛ تعلموا فى الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت، بتشكيل جمعية سرية».

وبحلول عام ١٩٠٠ للميلاد، كان الأمريكان يتولون تشغيل ٩٥ مدرسة فى منطقة سوريا الكبرى؛ ويعلمون ٥٣٠٠ طالب، وكان من الجهود المرموقة لدى سكان المنطقة بصورة عامة تلك المساهمات التى أسداها الأمريكيون فى مجالات الطب والإغاثة. ففى عام ١٩٠٨-وهى السنة التى نشبت فيها ثورة تركيا الفتاة- قامت الدكتورة ميرى إيدى - ابنة أحد المبشرين فى كلية ويليامز - بافتتاح أول عيادة قرب بيروت لمعالجة مرض السل فى الإمبراطورية العثمانية، وفى غضون سنوات قلائل أصبح المبشرون الأمريكيون يعالجون ٤٠٠٠٠ من المرضى سنويًا فى مستشفيات وعيادات متناثرة فى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية.

هكذا قدر لمدرسة الطب التابعة للكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية فى بيروت) - التى فتحت فى عام ١٨٦٧ ومدرسة الصيدلة الملحقة بها التى افتتحت عام ١٨٧١ - أن تصبح محورًا لخدمة أولية للإرشاد الريفى؛ أدخلت الطب إلى القرى العربية. وبدلاً من الطلاب

الستة عشر الذين افتتح بهم دانييل بليس الكلية، أصبحت تضم ٦٠٠ من الطلاب جاءوا من جميع أنحاء العالم العربي، كانت نسبة متزايدة من الطلاب مسلمين ممن أصبحوا فى الشرق الأوسط فى مواقع القيادة فى مجتمعاتهم، وكان هذا يصدق بخاصة على خريجى مدرسة الطب. وكم من طبيب فى قرية- وهو ذلك الشخص الذى يتطلع إليه أفراد مجتمع بكل احترام، يدين بمكانته تلك إلى تعليمه الأمريكى الذى كان آية على تميز سرعان ما يعرفه ويعترف به كل مخالطوه. وعندما بدأت شمس القرن التاسع عشر فى المغيب. كان الأمريكيون - باستثناء بقاع قليلة فى الأرض الأجنبية عنهم - يبدون فى عيون السكان المحليين فى إهاب من النقاء والكمال، ويصدق هذا بخاصة على منطقة الشام.

على أن وجود الأمريكيين فى تركيا وغربى إيران كان أوسع نطاقًا؛ فالمهمة التى بدأت عام ١٨٣٠ على شكل مخاطرة أقدم عليها أوتيس دويت وإيلى سميث عندما ارتادًا جبال النساطرة سرعان ما توسعت فى عام ١٩٠٠ للميلاد لتشمل ١٤٩ محطة تبشير تضم ٢٠٦ من المبشرين الأمريكيين و١١٥٠ من المساعدين من أهل البلاد ، وكانوا يديرون تسع مستشفيات ويعلمون فى ٥٤٢ مدرسة كانت تقدم تعليمًا علمانيًا (غير لاهوتي) لما يقرب من ١٧٠٠٠ من الطلاب الأتراك والإيرانيين والأفراد والنساطرة واليهود وغيرهم، وقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ارتفع هذا الرقم إلى ما يزيد على ٢٥٠٠٠ تلميذ (*)، فإذا ما أسعد الحظ شابًا فى قرية بشرقى الأناضول أو غربى إيران كى يحصل على تعليم لائق فى تلك

(*) لا تشمل هذه الإحصاءات مدارس الأحد والمراكز اللاهوتية التى كان يديريها المبشرون .

الفترة، فالأرجح أن مدرسيه كانوا من المبشرين الأمريكيين من الكنيسة الإبرشية أو الكنيسة المشيخية.

أما العملية الأمريكية فى مصر- التى كان يديرها المشيخيون من البروتستانت- فكانت تقارب نظيرتها فى تركيا وإيران من حيث الاتساع؛ حيث تولى المبشرون تعليم ١٤٠٠٠ تلميذ فى مئتى مدرسة. وعندما افتتح المشيخيون كلية البنات الأمريكية فى القاهرة عام ١٩١٠ لم تكن الشخصية التى ترأست حفل قص الشريط بأقل من تيودور روزفلت- الرئيس الأمريكى الأسبق- الذى كان عائدًا لتوه من رحلة فى أدغال إفريقيا كان يصطاد فيها الفيلة.

ثم كانت هناك الجزيرة العربية ذاتها، ذلك الربع الخالى الحافل بالرمل الذى كان يمتد فى كل مكان جنوب هضبة سوريا الجبلية؛ فى عام ١٨٨٩ قام مبشران مدعومان من الكنيسة الإصلاحية الهولندية هما صمويل زويمر وجيمس كانتين بتنظيم بعثة إلى كل أنحاء شبة الجزيرة العربية، استفاد الرجلان بحق من حركة التبشير فى الشرق الأوسط عندما بدأت تكتسب قوة دافعة مع بداية القرن العشرين، وما كان أحدهما من صفوة نيو إنجلاند الشهيرة (الواسب- نخبة البيض فى الولايات المتحدة) ولا كان خريجًا لإحدى جامعات القمة فى أمريكا، بل كان زويمر ابن مهاجر هولندى من ميتشيجن، وكان أبوه وأكبر إخوته مستخدمين متجولين لحساب الكنيسة الإصلاحية الهولندية فى كل الولايات الأمريكية فى منطقة الغرب الأوسط والأطراف، وثمة أخ ثالث كان رائدًا تبشيريًا فى مناطق داكوتا الأمريكية الموحشة.

ويدَّعى زويمر أن والديه «نذرانى للخدمة الخارجية قبل أن أولد»، وأنه وصاحبه كانتين المنتمى إلى منطقة جبال كاتسكيل فى نيويورك «كانا مقتنعين تمامًا بأن الله يريدهما فى بلاد العرب». وبعد فترة قصيرة أمضياها فى بيروت لدراسة العربية؛ استقلا باخرة إلى ميناء عدن اليمنى عاقدين العزم على تحسس أحوال البلاد بغير دليل فى يدهما سوى كتاب أشعياء. وإذ دخلا إلى حى عدن الوطنى المحاط بالأسوار -الذى كان يمثل أول تجربة لهما فى بلاد العرب- فقد أصيبا على الفور بالملاريا على نحو ما يقول كانتين. مع ذلك كانت كلمات الرب العبرانى إلى أشعياء هى التى دفعت كانتين إلى تصور أن مشروعهما سيحقق النجاح حيث تبشرهما بأنهما «سوف يجولان فى المدينة سبع مرات ثم تسقط من حولهما أسوار المدينة»(*).

كان كل من زويمر وكانتين - بحق- مؤمنًا ورائدًا وجنديًّا من جنود الرب بكل معانى الكلمة. على مدى خمسين عامًا- من عام ١٨٨٩ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية؛ ظلاَّ مندفعين بإخلاص وتكريس جيئة وذهابًا شمالاً وجنوبًا عبر سواحل الجزيرة العربية من بغداد فى منطقة ما بين النهرين نزولاً إلى أهوار دجلة الحافلة بالبعوض فى البصرة، وهى وطن السندباد البحرى الأسطورى عند فم الخليج العربي، ثم من الكويت وغيرها من المشيخات إلى مسقط مع الالتفاف حول خليج عمان إلى عدن عند مدخل البحر الأحمر.

(*) قاما بإصدار كتاب مشترك بعنوان «معالم الطريق الذهبية» .

فى تلك الموانئ والقرى الحافلة بالعرق والهوام، أمضى زويمر وكانتين سنوات النضج من حياتهما دون خدم للمعونة وبغير مغريات المزايا التى كانت ترطب حياة الإبرشيين والمشيخيين من كنائس نيو إنجلاند الذين كانوا ينعمون بالبيئات الحضرية فى بيروت والقاهرة..كم من ليلة أمضاها الرجلان «يطالعان الأسفار الدينية بالعربية على ضوء شمعة خافت وسط أمتعة ودواب فى خان مشرقي» كما ناما على متن القوارب، وكم سكنا غرفات متسخة فى أكواخ من الطين وكثيرًا ما كانت تنتابهما الأمراض وهما يعيشان حياة أقرب إلى أسلوب الهيبى. وإن نعما بسعادة لمدة أسابيع عندما كانا ينجحان فى نهاية المطاف فى إقناع أعرابى بأن يقبل نسخة من الكتاب المقدس ناهيك عن أن يصطحبها إلى بيته. وخلال جميع السنوات التى تشهد فشلاً يوميًا، كان يعينهما دائمًا الإصحاح الأول من كتاب أشعياء حين يقول: «كل بقعة تطؤها قدماك سوف نعطيها لك».

فإلى جانب شبكة المدارس، أرسى الرجلان الأساس لخمس مستشفيات تبشيرية سوف تعالج يومًا ما يقارب ٢٣٧٠٠٠ مريض فى السنة فى منطقة الخليج العربي، ولسوف يقدر لابن «السفير» بيل ستولفوز أن يولد فى الكويت فى مستشفى كان جزءًا من تلك المزايا التى قدمتها الكنيسة الإصلاحية الهولندية.

* * *

هكذا أتاح هوارد بليس لابنى عائلة دودج أول رؤية لبيروت ولبنان؛ حيث كانت الرؤية حافلة بالوعد والبشرى. بدا البروتستانت الأمريكيون وكأنهم موشكون على قطع الطريق على مسيرة الاستعمار والإمبريالية، بعد أن شيدوا مؤسسة ترمز إلى الخير والنفوذ على شواطئ استراتيجية أجنبية، وفعلوا ذلك من خلال أعمالهم الطيبة لا غير. وكان الرئيس تيدى رزفلت فى أمريكا من بين أكبر مساندى الجامعة الأمريكية الجديدة المتحمسين. ثم قيض لهؤلاء المبشرين صديق آخر فى البيت الأبيض عندما أصبح ودرو ويلسن رئيسًا لأمريكا عام ١٩١٣، وهو ابن قسيس مشيخى وصديق قديم لابن كليفلاند دودج؛ فضلاً عن كونه من أصحاب النزعة الدولية الداعية إلى حق تقرير المصير.

هكذا شعر الأمريكيون فى بلاد الشام وقتها بأن الوقت لن يطول بالعرب إلا ويخلصون أنفسهم من براثن الأتراك وأحابيل الفرنسيين؛ بل ساد التصور أن يومًا ما سيأتى فى المستقبل؛ فإذا بالميادين العامة فى بيروت ودمشق تطلق عليها أسماء من قبيل «دانييل بليس» «وإيلى سميث» وغيرهما ممن قدموا للمنطقة تعليمًا غربيًا وكتبًا باللغة العربية بل وأتاحوا سبل قيام القومية العربية لصالح العرب. هنالك لاحت بشائر تركيبة ثقافية وتفاعل حضاري، وكما كتب هوارد بليس نفسه يومًا فإن المشاركة «مع أهل الشرق فى أفضل ما لدينا بالمغرب. معناها أن الغرب سيفوز بدوره بأشياء كثيرة ليس أقلها الصوفية الكامنة فى عقائد الشرق».

بعد ذلك جاءت نهاية يونيو ١٩١٤، حين قام واحد من صرب البوسنة ممن كانوا يعارضون ضمها إلى إمبراطورية النمسا باغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند ولى عهد الهابسبرج (حكام النمسا والمجر) وبدأت الحرب العالمية الأولى فوضعت المشكلات وعلاقات القوى فى العالم الحديث وللمرة الأولى مرة على أعتاب الأراضى المقدسة. هكذا حلت أول كارثتين فادحتين، وما لبثت أن انفجرت شظاياهما فوق رءوس الرواد من رجال الوعظ والتربية والتعليم والإغاثة فغيرت من نظرة العرب إليهم، كما بدلت من نظرتهم هم أنفسهم إلى العرب. فضلاً عن تبديل الطريقة التى كان سائر الأمريكيين ينظرون بها إلى بنى جلدتهم العاملين فى منطقة الشرق الأوسط.

الفصل الثالث

الإنجليزى مجنون الصحراء

فى ٢٧ يوليو عام ١٩١٦؛ توفى دانييل بليس، كان قد شارف على الثالثة والتسعين، وقبل وفاته بسبعة أسابيع، أطلق الشريف حسين فى مكة رصاصة بندقيته من النافذة فى بيته صوب ثكنات الجيش التركى القريبة ، وبهذا بدأت الأحداث التى تُسمى بالثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين.

وبينما كانت أسرة بليس وأصدقاؤه يحضرون مراسم الدفن فى مقابر بعثة التبشير فى ضواحى بيروت، كان توماس إدوارد لورانس- دارس العربية البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا الذى تخرج فى أوكسفورد- قد كُلِّف من جانب المخابرات العسكرية البريطانية فى القاهرة بالإبحار عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة ليستطلع آراء الشريف حسين وأبنائه بشأن عقد محالفة مع البريطانيين كان هدفها طرد الأتراك الموالين للألمان (خصوم بريطانيا فى الحرب العظمى الأولى) من منطقة الشرق الأوسط.

من بين الأغراض التى حملها لورانس بين أمتعته مجموعة من مجلدين من كتاب تشارلز دوتى بعنوان «رحلات فى صحارى بلاد العرب»، وكان مؤلفه هو البريطانى الوحيد الذى استطاع أن يخترق دواخل غرب

الجزيرة العربية؛ حيث كان لورانس قد يَمَّمَ وجهه شطرها. وكان لورانس قد اشترى الكتب حديثًا من صمويل زويمر المبشر التابع للكنيسة الإصلاحية الهولندية، الذى كان فى فترة استجمام بالقاهرة بعد جولات خاصة به طاف فيها الجزيرة العربية والتقى صدفة مع لورانس.. وقد قيل بعد ذلك إن لورانس حفظ مجلدى دوتى عن ظهر قلب. وعلى الرغم من أن تلك مبالغة بغير شك؛ فإن لورانس نفسه كان ما يفتأ يشير إلى الكتابين بوصفهما إنجيله فى التعامل مع العرب.

وقد قُدِّر للورانس - بطبيعة الحال - أن يكتب مذكرات حازت شهرة أوفر بعنوان «أعمدة الحكمة السبعة»، ولسوف يتبعها كتابات أخرى لبريطانيين عاشوا فى الجزيرة العربية؛ منهم من لم يستطع التحدث بالعربية أو فهم العرب بأكثر مما فعل أسلافهم ، مثل صمويل زويمر أو إيلى سميث أو دانييل بليس؛ لكن هؤلاء البريطانيين كتبوا عن تجاربهم بمهارة أكثر ورشاقة أبلغ وكانوا مختلفين عمن سبقهم.

لم تكن المسألة مجرد انتقاضات سياسية يغرق الوافدون الأمريكيون إلى الشرق الأوسط فى لجتها ويخضعون لتحولاتها، ولكن الأمر كان يتصل بالإبداع الأدبى أيضًا.

من هؤلاء الرحالة الإنجليز الرومانسيون الذين وصفهم لورانس ذاته بأنهم «عصبة من المغامرين بغير حدود؟ كيف وجدوا أنفسهم فى المواقع المؤثرة التى عاشوا فيها؟ وماذا كان بالضبط تأثيرهم فى أقرانهم الأمريكيين؟».

لقد كان المبشرون الأمريكيون- من أمثال صمويل زويمر وجيمس كانتين- يجهدون فى تمرير الأناجيل فى الجزيرة العربية عند بدايات القرن؛ فى حين أنه كان هناك الإنجليز الذين عكفوا على تعزيز هيكل قوة وسلطة على المستوى الإقليمى ليحمى الطريق البحرى المفضى إلى الهند البريطانية.

نابليون بونابرت هو أول من أفضت أعماله إلى التعجيل بالمصالح البريطانية فى الشرق الأوسط، عندما هدد بشن هجوم على الهند انطلاقًا من مصر التى احتلتها قواته فى الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١. وبعد مئة سنة من ذلك التاريخ، وعندما جاء قيصر ألمانيا ليهدد الهند، كانت قبضة بريطانيا على الجزيرة العربية هى التى دفعت ويلهلم الثانى (غليوم) إلى الذهاب لتركيا وإلى التخطيط لإنشاء سكة حديد ألمانية عبر آسيا الصغرى إلى بغداد. هذه المزية الاستراتيجية- فضلاً عن الحاجة إلى النفط التى طرأت على حياة هؤلاء القوم مجددًا - هى التى أعطت لبريطانيا قوة دفع فى الجزيرة العربية كى توسع نفوذها شمالاً حتى يصل إلى سوريا الكبرى، ثم بلاد ما بين النهرين (العراق).

هكذا جاءت الإمبريالية بالإنجليز إلى الشرق الأوسط؛ حيث هيأوا أرضية أسطورية من الثقافة والحضارة الوطنية التى كفلت لهم استراحة يأخذونها من حياتهم التى استبدت بها الآلة فى مجتمع (أوروبي)؛ كان يخضع وقتها لعاصفة من التصنيع السريع. يلاحظ الكاتب الإنجليزى ديفيد برسى جونز أن «الخيال البريطانى كان أسير نزعته الفريدة والمتأصلة التى تقول بضرورة صون وإعزاز كل ما هو مختلف وكل ما هو

فاتن الجمال؛ «بعبارات أخرى فإن العقل البريطانى يأسره جمال مخيمات البدو بقدر ما يأسره جمال حديقة يانعة فى وطنه. وكما أن الحديقة بحاجة إلى عناية وتشذيب بانتظام، فإن صور الخيام وأهل العباءات المسدلة الذين يربون على مهاد الرمال تحتاج إلى تفاصيل من صقل وتصوير فى إبداع الكتابة الوصفية.

ثم جاءت مسئوليات الاستعمار لتعزز هذا اللون من النشاط. فكى تستطيع السيادة على مقاليد أهل البلاد، عليك أن تفهم حياتهم وتتكلم لغتهم. هذه العملية أدت إلى فهم وتقدير لكلاً الجانبين - الحياة واللغة، ولأن الدول المعظمى الأخرى مثل فرنسا وألمانيا وروسيا؛ كانت تنافس بريطانيا على مقاليد النفوذ فى تلك المنطقة المشبعة بالأساطير، احتاج الأمر إلى كثير من الدهاء، وهذا يعنى القدرة على أن تندس بين صفوف أهل البلاد دون أن يلحظك أحد، وأن تتصرف كأنك واحد منهم، وذلك كى تعرف ما الذى يدور هنا أو هناك. وكم كانت تلك المحاولة قريبة من نفوس شرائح بعينها من الطبقات العليا بين الإنجليز الذين كانت تراودهم نزعة الغربة والتفرد، ولهذا فإن قصة «كيم» التى كتبها رأديارد كيبلنج حول التجسس وحول التزين بزى المواطنين المحليين فى الحدود الشمالية الغربية من الهند البريطانية ينظر إليها بوصفها أعظم عمل فنى من إنجازات الاستعمار.

ليست هناك شخصية فى رواية «كيم» تستأثر -بقوة- بالخيال وتجسد غرابة الأطوار التى شجعها الاستعمار مثل شخصية «لورغام صاحب»

البقال الداهية الذى يمكن أن يراه الناس كأنه هندى أو كأنه ينتمى إلى جنسيات مشرقية أخرى ، والذى تعلم منه الصبى الإيرلندى الأبيض«كيم» دروس حرفة الجاسوسية بين الكتب القديمة والأبسطة الشرقية وأقنعة عبادة الشيطان، وتماثيل بوذا المذهبة، وعجلات الصلوات فى التبت، وغير ذلك من آلات الإيقاع. ويقال إن «لورغان» وغيره من الشخصيات فى رواية «كيم» تقوم كلها - بدرجات شتى - على أساس رجل واحد يقف تجسيدًا ورمزًا حيًا على الغزو البريطانى فيما وراء البحار فى فترة القرن التاسع عشر، وهذا الرجل وهو السير ريتشارد فرانسيس بيرتون.

ريتشارد بيرتون كان «أسمر البشرة أنيقًا، عيناه كعين الفهد، وحركته مثل وحش مفترس، له جبهة معبود وفك شيطان»، وكان يتكلم تسعًا وعشرين لغة بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من الرطانات واللجهات أتاحت له أن يمضى دون أن يلحظه أحد بوصفه أفغانيًا فيدخل إلى مكة المحرمة على سواه ثم يدخل إلى منطقة نهر الأنذيز بوصفه عاملاً من الغجر وسط عصابة من العمال - كل هذا أضفى على بيرتون اسم الزنجى الأبيض. وقد اكتشف بيرتون الكاماسوترا؛ ذلك الكتيب الذى يتناول فنون الجنس الهندية، وقاد أول حملة أوروبية إلى قلب إفريقيا كى يصل إلى منابع النيل، واستكشف دواخل البرازيل ودخل إلى مدينة هرر المحرمة فى الحبشة والساحل الغربى لإفريقيا، وترجم من العربية كتاب ألف ليلة وليلة. ومع ذلك كان أكبر وأول عميل سرى للتاج البريطانى وتلك مهمة أتاحت له القيام بأنشطته الكثيرة الأخرى.

وخلال حياة بيرتون المتنوعة؛ ظلت الجزيرة العربية والإسلام معلمين مهمين؛ فإنه بالإضافة إلى بيرتون العربى كان هناك بيرتون النيل وكان هناك أيضًا أكثر من بيرتون فى حياة ذلك الرجل. هذا هو السبب الأساسى الذى يبرر أنه على الرغم من الإشارة إليه بوصفه أول وأعظم مستعرب بريطانى – لم يكن هذا وذاك فى واقع الأمر. إذ لم يكن بيرتون مهووسًا فى يوم من الأيام لا بالعرب ولا بالجزيرة العربية لدرجة أن يستبعد ما عداهم من مناطق وتخوم من خياله. وبعد زيارته مكة حوَّل اهتماماته إلى وسط إفريقيا لأن جزيرة العرب لم تعد تقدم له شيئًا أكثر من «اكتشاف الصحارى». وبالمناسبة فلسوف نرى أن الشغف الشديد بالعرب سيصبح خاصية تميز المستعربين بالدرجة الأولى.

فى الشرق الأوسط أكثر من أى مكان فى الإمبراطورية البريطانية، عمل الخيال البريطانى وعملت الاستخبارات أيضًا فى إطار متشابك قوامه الافتتان والآثار واللغة الثقافية القبلية بشكل لم يسبق له مثيل، وهذه الظاهرة كانت تصدر عن أسباب عدة؛ فمن بين كل أصقاع الإمبراطورية التى كانت تحكمها بريطانيا العظمى فى أنحاء العالم، كان الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية الأقرب إليها ومن ثم الأيسر فى بلوغه، وفضلاً عن ذلك، فكما يوضح الباحث الفلسطينى إدوارد سعيد فى دراسته بعنوان «الاستشراق»؛ فإن ديار الإسلام تتاخم بل وأحيانًا تعلو أراضى التوراة. كذلك فالعربية والعبرية لغتان ساميتان وكلتاهما تتناولان «مادة فى غاية الأهمية للمسيحية»، وهذا هو الذى جعل الإسلام «عامل استفزاز» خطير وساحر بالنسبة للبريطانيين (ثم للمبشرين الأمريكيين على السواء).

كان استيلاء الإسلام على الأرض المقدسة هو الذى أفضى إلى نشوب الحروب الصليبية؛ فضلاً عن ذلك كان الإسلام من الفطرة لدرجة أن يسهل فهمه بغير تعقيد (على خلاف أديان الهند أو إفريقيا)؛ ولكنه كان من الاختلاف بحد ذاته لدرجة تستعصى على من يفهمه من الخارج. كانت المسألة مثل حسناء فريدة أخاذة تتضوع أعطافها بأريج العطور، وعبيرها يكاد يلفح أنفاس البريطانيين، وكان هذا معناه أنه لا بد من السيطرة عليها.

وكان هناك شيء آخر لا سبيل إلى تعريفه بالضبط؛ شيء عن الصحراء بكل رتابتها الأخاذة والغريبة التى تنبت على مهادها أفكار الفراغ والعدمية بالقدر نفسه التى تعزز فيه أفكار النقاء والكمال.

فى الصحراء ليس هناك مبنى ولا أى دليل على غرور الإنسان؛ فيها الرمال تكاد تخنق الأنفاس لكنها مثل فردوس من البراءة يانع مبسوط؛ حيث كل شيء على حاله قبل وقوع الطوفان. جزء من تلك الصحراء هو الذى جذب أحبار التوراة وأنبياءها إلى البرية بالقدر نفسه الذى يعود ليجذب رجالاً ونساء ليسوا أحبارًا ولا أنبياء لكنهم مندفعون بحس عميق من الجمال، هؤلاء هم المستعربون.

إن ت. لورانس يجسد أكمل نموذج على هذه المقولة، ففى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» يروق له أن يسهب فى وصف أطلال فى شمال سوريا؛ حيث تفوح رائحة الياسمين من غرفة فيما يتصاعد أريج البنفسج من غرفة ثانية، ورائحة الورد تفوح من الغرفة الثالثة؛ لكن الغرفة التى اجتذبت وحركت مشاعر الدليل العربى الذى كان يقود لورانس ومن

ثم لورانس نفسه، كانت الغرفة التى لم يكن يتصاعد منها سوى «رياح الصحراء المفعمة بفراغ بغير حدود، وتلك رائحة لا يباريها شيء بالنسبة للإنسان» إنها عبير اللا شيء، أفضل عبير على الإطلاق».

وبينما كان المستعربون الأمريكيون يقعون فى حبائل سحر كتابات مثل مؤلفات لورانس وغيره من البريطانيين، فإن لورانس نفسه أثناء جولاته فى الشرق الأوسط كان بدوره واقعًا تحت سحر « رحلات فى صحارى بلاد العرب» ، وهو وصف من ١٢٠٠٠ صفحة لأوديسا استغرقت سنتين بين عامى ١٨٧٦ و ١٨٧٨ فيما يعرف اليوم بالشمال الغربى من المملكة العربية السعودية كتبها أحد كبار خريجى أكسفورد هو تشارلس مونتاجو دوتى.

وهذا السفر الذى استغرق من صاحبه عقدًا كاملًا من الزمان كى يكتبه؛ يتسم بقوة وشمول بالغين من حيث تأثيره وقدرته على الإحاطة بشئون العرب وصحراء الشرق الأوسط؛ لدرجة أن المرء لا يستطيع التزيد فى تأثير هذا الكتاب فى فكر المستعربين جميعًا.

إن كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» هو الذى جعل من دوتى بحق أول أعظم مستعرب بريطاني. أما ريتشارد بيرتون فكان نسيجًا وحده. كان كنجم تفجرت نيازكه فى كل مكان وفى وقت واحد؛ فلم يترك سوى فراغ أسود غداة الانفجار. ثم إن بيرتون جاء فى مرحلة مبكرة للغاية، وعندما توفى فى عام ١٨٩٠ كانت الإمبراطورية التركية بالشرق الأوسط أمامها ستة وعشرين عامًا أخرى من الحياة؛ ولكن كتاب دوتى بدأ حركة أدبية وسيكولوجية بين صفوف الغربيين قوامها الجاذبية نحو العرب،

وهذا ما لم يستطع أن يفعله بيرتون لا فى رحلة التنكر التى جاءت به إلى مكة والمدينة ولا فى ترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة. إن كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» أصبح– ربما أكثر من مؤلفه ذاته– شخصية مهمة لها اعتبارها فى حكاية الاستعراب؛ بل إن لورانس تمادى عندما كان يشير إلى الكتاب فيطلق عليه كلمة واحدة بسيطة هى: دوتى.

جزيرة العرب التى شهدها دوتى ووصفها كانت بمثابة المختبر أو المحك الذى يمكن على صراطه اختبار وتشكيل شخصية الإنجليزي، إنها أرض من الآماد والفيافى الغريبة الممتدة بغير حدود، ومن الرابع الخالى الحافل برمال الرعب ومن الكتل الهائلة والأشكال المتكررة ذات التصاوير التى تكشر عن أنيابها. إنها كون قائم بذاته يعكس قسوة العهد القديم؛ حيث يقتل اللصوص ببطء حتى الموت، وحيث يجرد الموتى على قارعة الطريق من كل ما يملكون قبل أن يجودوا بآخر أنفاسهم، وحيث البشر يمشون إلى مطهر من التعب المؤلم والمكدود، وحيث لا تكاد تجد ما تأكله سوى الجراد أو ما تشربه سوى مياه تسبح فيها البغاث.

فى مدى عامين من التجوال بين حقول اللافا البركانية وبين ركامات لا تحوى بوصة من ظل يقى من هجير الشمس، ظل دوتى يتجول فيسرق بين حين وحين وتتقطع به السبل بغير زاد أو ماء ويتهدده الموت فى كل يوم تقريبًا بسبب رفضه إنكار ديانته المسيحية والدخول فى الإسلام. وعندما يصل إلى الحامية التركية فى مدينة الطائف فى نهاية رحلته المكدودة. يصف دوتى نفسه بهذه الكلمات.

«سترتى كانت بالية فوق كاهلي، ومعطفى أصبح قديمًا ممزقًا؛ فيما تهدَّل شعرى حتى الكتفين، وتدلت لحيتى شعثاء غبراء، كانت عيونى فى حمرة الدم وقد كاد يعشى منهما البصر، وبشرتى محرقة ومشققة فوق وجهي، أرسلوا إلىَّ الحلاق وأعدوا الحمام وقدموا فنجانًا من الشاى وكم جهد العقيد التركى الطيب فى أن يحولنى قدر الإمكان إلى ما يشبه أهل المدينة والحضارة».

على أنٍ نقد دوتى للعرب (الأعراب) نقد لاذع قاس؛ فى قلوبهم الآسيوية غلاً يفوق ما تحويه القلوب من التدين». وفى ثمانينيات القرن التاسع عشر يتنبأ بأن أمم الإسلام التى تتصف بفهم بدائى تتسم بدهاء الثعالب وتتصور عن قناعة أن المعرفة هى القرآن وليس غيره، لا تستطيع أن تسلك أى سبيل من بعد إلى الخير.

إن دوتى منذ البداية حتى النهاية يرفض مجرد فكرة التشبه بأهل البلاد المحليين؛ بل ويحذر من أنه كلما طال الأمد على المرء وهو يعيش فى بلد مفعم بالأساطير تضعف لديه ملكة الحكم على الأمور، وهو يعترف عن نفسه بقوله: «إن الشمس جعلتنى عربيًا؛ ولكنها لم تجذبنى إلى حيث الاستشراق». ويلاحظ لورانس أن قوة هذا الكتاب إنما تكمن فى تمسك دوتى بجذوره كإنجليزى بصورة لم يكن على استعداد للتنازل أو التزحزح عنها. مع ذلك فالكتاب رومانسي، موقف لورانس كله منه موقف رومانسى أيضًا على نحـو ما كشـفته المـقدمة التى كتبها لدى إعادة طبع الكتاب عام ١٩٢٩.

يصف دوتى رحلته بقدر من التباعد العاطفى الذى يميز العلماء، لقد جاء مسلحًا بدفتر وبارومتر؛ وهو يعيد خلق بيئة بأكملها- على نحو يثير الإعجاب - بيئة جيولوجية ولغوية وثقافية وسيكولوجية، إنه يصف مثلاً جمال القمر وأهميته العملية للصحراء، ويصف كيفية تسمية الفصيل من صغار الإبل حسب عدد أسنانه، ويصف أنواع الصخور المصقولة والبازلت وغيرها من تكوينات الصخور فى الصحراء، ويبرر السبب أن تحايا الرجال المفعمة إنسانية وهم فى البرية ما تلبث أن يجللها النفاق عندما تستورد تلك التحيات والمجاملات إلى المدن. وهنا على وجه التحديد تكمن الرومانسية. إن الصحراء بكل جمالها المهيب وبكل رعبها وبكل رتابتها ترسم لها صورة شاملة كاملة، وهناك ما يتجاوز ذلك؛ إنها تقدم بأصواتها التى تستدعى إلى الخاطر ما سبق إليه إنجيل تندال المترجم فى القرن السادس عشر (*). فأى قارئ لدوتى لا يمكن أن ينسى مثلاً مشابهته للساميين فى الصحراء وكأنهم رجل يجلس فى عينيه قذى؛ بينما تكاد جبهته تلامس النجوم. بل إن دوتى اعترف بأنه إنما ذهب إلى بلاد العرب لأغراض شتى. منها «أن يخلص اللغة الإنجليزية من الرتابة والفهامة التى سقطت فى ربقتها منذ أيام الشاعر سبنسر».

لكن الذى حدث هو أن هذا الغرض الذى توخاه دوتى غاب عن الحسبان؛ فالمراقب البارد المحلل الذى كان يحذر سواه من التوحد مع

(*) تندال المترجم كان مصلحًا دينيًا إنجليزيًا . وقد أعدم بتهمة الهرطقة .

البيئة هو الذى تحول مع مرور الزمن إلى حكيم واثق من النفس؛ كأنه الشخصية الرئيسية على مسرح ملحمة طولها بعمر الزمن حول بلاد العرب.

إن هذه السهول المنبسطة فى تجريدها وفى لا إنسانيتها التى طالما مارست أثرها فى تغيير عقول البشر وشخصياتهم؛ ما لبثت أن تحولت للمرة الأولى على يد دوتى إلى ساحة من ساحات الإبداع مما جعل لها جاذبية وفتنة لا يستطيع المرء لها دفعًا.

لورانس نفسه أشار إلى أن قسوة البيئة الطبيعية والبشرية هى التى جعلت من بلاد العرب- كما رآها دوتى- مقياسًا من المعاناة تقاس به قدرة الرجال على الصبر والتحمل. هكذا وصف لورانس دوتى بقوله: إنه خاض هذه التجربة بنفسه، واجتاز اختبار البداوة بوصفها أقسى النظم الاجتماعية قاطبة من حيث شظف العيش، وكم كنا محظوظين عندما عمد إلى رسم هذا كله فى ألوانه الحقيقية: حياة فى غاية الشظف، الفراغ يحوطها من كل جانب، وهى تنكر كل شيء لكنها تحتفل بشيء واحد؛ هو جانب القوة والإرادة والتصميم فى شخصية البشر، وعندما مخر لورانس عباب البحر الأحمر من مصر إلى جدة، فى صيف ١٩١٦ وفى صحبته كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» كان مصممًا على أن يخوض بنفسه ذلك الاختبار فى البلاد التى وصفها سلفه، وبحكم طبيعة الاستعمار البريطانى فى الشرق الأوسط فى تلك المرحلة؛ فإن هذه الرغبة الشديدة الخصوصية لم تقف حائلاً دون ممارسة لورانس لمسئولياته المهنية إن لم تكن قد دفعت تلك المسئوليات إلى الأمام.

قبل أن يخلع على توماس إدوارد اسم «لورانس العرب». كانوا يعرفونه ببساطة على أنه «نيد» أو «صاحبنا الصغير» بسبب ضآلة حجمه؛ لكن هذا الصاحب الصغير على نحو ما يصفه «روبرت جريفز» كان يتمتع بقوة بدينة كبيرة، وقد رآه بعض وهو يرفع بندقية على طول ذراعه ممسكًا إياها من الماسورة إلى أن تصبح موازية للأرض، ثم لاحظ جريفز- وهو أحد كُتَّاب سيرة لورانس- أن الجزء الأعلى من وجهه كان يتصف بملامح من الرقة تكاد تشبه ملامح أمّ، فيما يتصف الجزء الأسفل بملامح جامدة تبوح بالقسوة، وربما كان أكثر أوصاف هذا الرجل نفاذًا بكل ما يحوطه من جدال وأساطير هو الذى صدر عن زميل له فى المكتب العربى البريطانى؛ هو هارى سان جون فيلبى الذى وصف لورانس بأنه كان يجمع بين حساسية المرأة وبين خشونة الذكر.

هذا فى الحقيقة هو الذى جعل لورانس- أيًا كان الرأى فيه- شخصية كبيرة. هذا الرجل الضئيل بيديه وقدميه الصغيرة كان قادرًا على تحمل تجربة رهيبة من شظف العيش كتلك التى تحملها دوتى من قبل ثم يكتب عنها بحساسية واهتمام بالتفاصيل على نحو خلب ألباب عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهو عالم كم كان يتوق إلى أن يرى تذكارًا فرديًا تضيؤه أشعة الشمس وترطبه نزعة الرومانسية، يتذكر بها حربًا كانت – حتى ذلك الوقت – معروفة بمشاهد الموت الجماعى لأفراد بغير أسماء وسط الوحل وأمطار الجليد المتجمد فى ميدان القتال فى الفلاندرز (*).

(*) يقصد الحرب العالمية الأولى «المترجم».

وفيما أصبح كتاب دوتى عملاً مجهولاً إلا بالنسبة إلى الخبراء فى الشئون العربية؛ فقد أصبح كتاب لورانس بعنوان «أعمدة الحكمة السبعة» واحدًا من أوسع الكتب انتشارًا باللغة الإنجليزية؛ ما جعل القوم يخلعون على مؤلفه- بمساعدة رجل الدعاية الأمريكى لويل توماس لقب «لورانس العرب». بطبيعة الحال كان لورانس يتمتع بميزة واضحة على سلفه دوتى الذى وقعت مغامرته فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية خلال فترة من الهدوء السياسى النسبى؛ حيث كان التركى يغفو ولكن قبضته كانت شديدة على أقدار المنطقة وإن لم يدم ذلك طويلاً. أما مغامرة لورانس فقد وقعت فى غضون اشتعال حرب عالمية ما زالت آثارها محسوسة حتى الآن فى منطقة الشرق الأوسط؛ ما يضفى أهمية دائمة على كتابه «أعمدة الحكمة السبعة».

على أن لورانس كانت له ميزة أخرى، أدبية هذه المرة: إن إنجليزية إنجيل المترجم كيم تندال والتى كتب بها دوتى؛ كان يمكن أن تستأثر بإعجاب المتأدبين؛ لكنها كانت غريبة على الجمهور العام. وفى حقيقة الأمر فالفقرات التى لا تُنسى من كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» تنطلق أساسًا من وحى دوتى نفسه، لكن لورانس استطاع ترجمتها إلى لغة إنجليزية أبسط وأشد دقة ؛ كى تستجيب للقارئ العادى المعاصر. كان تصور دوتى للعربى فى الصحراء أنه رجل- كما أسلفنا- يحمل القذى فى عيونه لكن جبهته تطال عنان السماء، وهى صورة قال لورانس: إنها تلخص تمامًا ما يتمتع به العرب من قوة وما يشوبهم من ضعف، فضلاً عن أوجه التناقض الغريبة فى تفكيرهم. ثم زاد عليها لورانس تحليلاً، ربما يعد أشهر تحليلاً

قام به مستعرب غربى للعقل العربى؛ وإن كان يعد ثاقبًا عند قوم فيما يعد عنصريًا عند آخرين:

« فى أول لقاء مع العرب تجد نفسك حيال وضوح كونى وثقة وطيدة فى المعتقدات تكاد تصل إلى أبعاد رياضية شديدة التحديد؛ فيما تتخذ شكلاً بعيدًا عن كل تعاطف يشعر به البشر. كانوا قومًا من ألوان بدائية أو فلنقل هم أهل الأسود والأبيض، يطلون على العالم ضمن خطوط شديدة التحديد.. هم قوم العقائد الثابتة يحتقرون التقاعس والتشكك، والشك هو تاج الشوك الذى نعتز به نحن أهل العصر الحديث؛ أما العرب فلم يفهموا مشكلاتنا الميتافيزيقية ولا تأملاتنا الباطنية وإنما تركوا أنفسهم عند أقسى جانبى التطرف.. هم يعشقون المبالغة باختيارهم ولم يرتضوا قط أنصاف الحلول. إنهم يتبعون منطقًا قوامه الآراء العديدة التى لا لقاء بينها ويصلون بالمنطق إلى أقصى الحدود دون الإدراك كم أن هذا غريب بل وسخيف. لقد شقوا طريقهم بين رموز القبيلة والكهف على السواء».

إن هذه اللغة الإنجليزية المستقاة من تقاليد أكسفورد وكمبريدج التى كتب بها أعمدة الحكمة السبعة تبدو فى وقتنا هذا – أواخر القرن العشرين– لغة غنية وجليلة؛ فى حين أن كتاب لورانس يبدو بمقاييس سلفه –دوتى إلى حد كبير نسخة موجزة مكثفة من كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» ، ومن المؤسف أن هذا أصبح اتجاهًا معتمدًا؛ فحركة الاستعراب بالبريطانى– بوصفها نمطًا ثقافيًا فرعيًا – ظلت دائمًا محكومة بمقاييس الإبداع الأدبى، والمشكلة أن الأدب ظل يتدنى باستمرار ليصبح أكثر شخصانية وأكثر

اتجاهًا نحو الجانب السيكو-جنسى وأشد إيغالاً فى الرومانسية جيلاً بعد جيل. إن لفظة«أنا» عند دوتى لا تنسى بسبب قوة شخصية دوتى نفسه والتى تستمد أصولها من حكاياته التى رويت بكل تفصيل عن الصحراء.. بيد أن «أنا» فى أعمدة الحكمة السبعة، كما يلاحظ- بحق- البروفيسور إيلى قدورى «تتفق مع أعراف فن الدراما بمعنى البدايات الصغيرة العفوية وطرح الرؤية عن الصحراء وسنوات التنظيم والدهاء فى رسم الخطط والقتال والإرادة ومحاولة إتقان الأشياء، ثم يتوج هذا- كله فى نهاية المطاف- فى استثمار الأحداث والاستيلاء على دمشق؛ كما لو كانت تلك الحادثة هى الذروة (الدرامية) المتوخاة لكل الحوادث التى شهدتها حرب الصحراء والتى اكتسبت من خلالها معناها وتجانسها».

- هذا النمط يبدأ منذ الوهلة الأولى كقصيدة يُهدى بها لورانس كتابه، ويفترض أنه وجهها إلى صاحبه العربى الحميم:

«عندما أحببتك...أخذت مواكب الرجال بين يدى

وكتبت وصيتى عبر السماء عند مراقى النجوم».

وتلى ذلك الملحمة الشهيرة التى جعلت من رجل أشقر مثل لورانس (وهو أيرلندى فى الجانب منه مثل كيم بطل رواية كبلينج)، يخلع زى الخاكى للجيش البريطانى ثم لا يكتفى بأن يرتدى الدشداشة البيضاء بل يكاد يتقمص سيكولوجيا هوية العربى فى الصحراء، ثم يتولى وحده قيادة هؤلاء الذين يجمعون بين البداوة والنبالة إلى النصر على الأتراك العثمانيين.

بطبيعة الحال، لم يتمكن عرب لورانس قط من تحرير دمشق بمعنى الكلمة؛ فالذى قام بالتحرير-حقيقة- هو الجيوش النظامية للحلفاء؛ بما أتاح للعرب أن مواصلة زحفهم المنتصر إلى تلك المدينة علامة على الفخر والاعتزاز.. ويعترف لورانس - بحق - بهذا فى رسالة إلى كاتب سيرته روبرت جريفز؛ ملاحظًا أن الفصل المتعلق بدمشق فى كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» حافل بأنصاف الحقائق بل وإن الثورة العربية- كلها بالطبع التى تولى لورانس قيادتها- كانت «عرضًا جانبيًّا متفرعًا من عرض جانبى» فى مشاهد الحرب العالمية الأولى.. كان مسرح الشرق الأوسط أقل أهمية بكثير من المسرح الأوروبى؛ ثم كانت تلك الثورة العربية عنصرًا ثانويًا على مسرح الشرق الأوسط، فلم تكن تتألف بأكثر من العصبة من المحاربين غير النظاميين الذين قادهم لورانس كى يفجروا سكة حديد الحجاز التى أقامها الأتراك فى هذا الموقع منها أو ذاك حتى يسببوا من المضايقات أكثر من الدمار.

ثم كانت هناك - أيضًا - حادثة درعا الشهيرة جنوبى دمشق؛ حيث يصف لورانس بتفاصيل دقيقة- بل ويمكن وصفها بأنها شغوفة- كيف أهين جسديًّا ثم ضرب بالسياط بواسطة بيك تركى.. هناك عدد ليس بالقليل زعم أن هذا الأمر لم يحدث قط، وكل ما هنالك أن لورانس كانت تراوده الرغبة فى حدوثه، تمامًا كما كان يمضى بحياته فى الصحراء حيث يقول إن الإنسان يعيش مع الإنسان بغير حواجز أو مداراة، وحيث يمكن للمرء أن يراوده اعتزاز وحشى بإهانة جسده بأى طريقة تعده بألم أو إهانة فى جسمه(!)، وفيما ذهب دوتى إلى الصحراء رائدًا علميًا؛ فإن لورانس ذهب

إليها بعقدة شذوذه وعدم شرعية مولده، وكان فى هذا كله يبحث عن نوع خاص للغاية من أنواع السلام العاطفى.

مع ذلك؛ ففى جنازته عام ١٩٣٥ بكى ونستون تشرشل وقال: «أيًّا كانت حاجتنا بعد ذلك فلن نجد إنسانًا مثله قط[*]، وكان تشرشل على حق وعلى الرغم من العيوب الشخصية التى شابت لورانس، وأيًّا كانت المبالغة فى الدور الذى لعبه مع العرب الذين انتمى إليهم وانتموا إليه؛ فإن لورانس- فى واقع الأمر- هو«كيم» فى الحياة الحقيقية؛ بمعنى أنه كان يمارس أحلامه وهذيانه بينما كان يجمع- فى الوقت نفسه- معلومات استخبارية لها قيمتها، من خلال مجمل الفترة التى أمضاها فى بلاد العرب؛ كان مركزه الرسمى هو ضابط مخابرات سياسى استطاع- فى نهاية المطاف- تسليم العرب إلى أيادى بريطانيا العظمى.

كان لورانس يفكر بوصفه استعماريًا، كان يحبذ وعد بلفور والمشروع الصيهونى (فى فلسطين) كوسيلة لإبعاد الفرنسيين عن فلسطين، وربما عن سائر بلاد الشام، وتصدى لقيادة المفاوضات السيئة الحظ التى تمت بين الأمير فيصل ابن شريف مكة وبين حاييم ، وايزمان (الذى كان لورانس يكنّ له إعجابًا أصيلاً)، وكانت تحيزات لورانس ذات دوافع إمبريالية؛ إذ كان يكره- بل يمقت- الأتراك والفرنسيين، ويحترم اليهود «كلما استطاع اليهود زراعتها (يقصد فلسطين) فهذا خير وأبقى».. هكذا

(*) توفى لورانس فى حادثة دراجة وكان عمره ٤٦ عامًا .

كتب لورانس فى رسالة بعث بها إلى الوطن، وفى «أعمدة الحكمة السبعة» ؛ يلاحظ أنه - فقط- فى المعجزة الدائمة لليهودية استطاع الساميون الأبعدون المحافظة على هويتهم وقوتهم فى عالم أوسع نطاقًا.

مع ذلك؛ فقد بقى التزام لورانس العاطفى إزاء العرب (الذين كانوا فى نزاع مبدئى فى ذلك الوقت، لا مع اليهود ولكن مع الأتراك ومع الفرنسيين حول سوريا) وبقى هذا الالتزام غير مشروط لدرجة فإنه مؤتمر الصلح والسلام فى فرساى حينما كان لورانس جزءًا من الوفد البريطانى إلا أنه كان يرتدى الملابس العربية كاملة. لورانس كان مقتدرًا بوصفه عميلاً سريًا، لكن يتساءل المرء: كيف تسنى لمثل هذا الفرد بكل عاطفيته وبكل انفعالاته المشبوبة تحقيق ما حققه من شأو بعيد فى مضمار رسم السياسة؟

تكمن الإجابة فى أنه مهما كانت مكانة الشرق الأوسط وأهميته بالنسبة مثلاً إلى إفريقيا أو غيرها من الممتلكات الإمبريالية، وبالمقارنة إلى أوروبا؛ فإن الشرق الأوسط ظل ساحة قصية مفعمة بالأسرار ومستعصية من ثم على معظم البريطانيين من رفيعى المكانة.

فى ذلك الوقت؛ كان عدد البريطانيين من ذوى المهارات اللغوية وغيرهم من خبراء المنطقة صغيرًا؛ لدرجة أن لم يكن ثمة تمييز بين العالم والدبلوماسى وبين عميل المخابرات العسكرية، ولو كان للمرء أن «يمتلك» ناصية العربية لاستطاع أن يكون هذه المهن الثلاث على حد سواء.

وفـى أكسفـورد أصبح لورانس صنيعة ديفيد جـورج هوجارث عالم الآثـار والمستشـرق ذائـع الصيت الـذى كان متضلعًـا أيضًا فـى العربية والتركية، واحتفظ بصلات ممتازة داخـل مؤسسة الإمبريالية البريطانية؛ هكـذا رتب هوجارث أن يعمـل لورانس فى موقع أثرى فـى كرشميش على الحـدود التركيـة- السوريـة، (كثيرًا مـا كان العمل الأثرى فـى الحفريات هـو الغطـاء التلقيدى لمهمـات المخابـرات)، وبعـد ذلك أصبـح هوجارث رئيسًـا للمكتـب العربى فى القاهـرة عندما نشبت الحـرب العالمية الأولى، مـن ثم وجد لورانس مكانًا فى سلك المخابرات العسكرية عند بداية الثورة العربيـة، وفـى نهاية الحرب كان لورانس قد عاش مع البدو وقاد جيشًا من البـدو على مدار سنتين؛ ومن ثم اكتسب مـن الصلات والخبرات؛ ما جعله فى مكانـة مستشار رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج؛ وعلى الرغم من كل شئ فالسؤال يبقى: كم من الرجال أو النساء كانوا على شاكلة لورانس؟

والإجابة إن كان هناك كثرة من هؤلاء جميعًا.... إن عرب لورانس لم يكونوا هم العرب الوحيدون فى الصحراء، لقد ذهب لورانس إلى الجزيرة العربية مستشارًا لحاكم بعينه هو حسين شريف مكة، واستطاع تشكيل رابطة وثيقة خاصة مع واحد من أبناء الشريف هو فيصل، كان رجال فيصل من المحاربين العرب هم الذين جاء لورانس كى يقودهم، هؤلاء المقاتلون جاءوا جميعًا من منطقة غرب وشمال غرب الجزيرة العربية التى تعرف باسم الحجاز؛ حيث تقع مكة والمدينة المقدستان عند المسلمين. وفيما كان الحجازيون- خاصة أسرة الشريف فى مكة المعروفة باسم الهاشميين- يتمتعون بمكانة سامية فى كل أنحاء الوطن العربى (بحكم دورهم كَسَدَنَة للأماكن المقدسة ومقولتهم بأنهم ينحدرون مباشرة من

نسل النبى محمد عليه السلام) ، فإن الحجاز لم يستطع- فى رأى بعض- إنشاء أفضل المقاتلين؛ بل ولا أتقى المسلمين؛ لكن هذا التميز يصدق على أهل القبائل فى وسط الجزيرة العربية؛ حيث المنطقة المعروفة باسم نجد، وفيها عاش الوهابيون أتباع محمد بن عبد الوهاب- وهو داعية سلفى من القرن الثامن عشر دعا إلى تفسير للقرآن الكريم على أساس من التقشف والتزهد... وفى ضوء معايير الوهابيين الصارمة؛ فإن الحجازيين ليسوا من الخشونة كما ينبغى بل إن تدينهم يشوبه شرك وشخصيتهم أساء إليهما قربهم من البحر الأحمر وصلاتهم بالعالم الخارجي، وكان أقوى زعماء القبائل فى نجد هو عبد العزيز بن سعود.

عشية قيام الحرب العظمى الأولى، كان للبريطانيين عميل أو وكيل سياسى مرتبط بقبيلة ابن سعود- هو الكابتن وليم هـ. شكسبير، وهذا الشكسبير-الذى ينتمى بصلة قرابة بعيدة للشاعر الكبير الذى حمل اسمه- كان مكتشفًا مقتدرًا، بل وكان أول أوروبى يعبر الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها؛ أى من الكويت إلى السويس وذلك إنجاز لا يطاوله إنجاز فى تلك الأيام؛ لكن شكسبير - على خلاف لورانس- لم يكن يرى التزين بزى العرب، وهذا كلفه حياته نفسها، ففى معركة دارت فى عام ١٩١٥ بين ابن سعود ورجال قبيلة خصمه ابن الرشيد، الذى كان مواليًا للأتراك، ما أيسر أن كان الزى البريطانى غنيمة سائغة للرماة من رجال ابن الرشيد، ولو عاش الكابتن شكسبير لكان الاحتمال أن يكون ذلك الرجل، وليس لورانس هو الذى يقود الثورة العربية ضد الأتراك، والعرب فى مثل هذا الظرف سيكونون عرب ابن سعود وليسوا عرب فيصل بن الحسين.

وبدلاً من شكسبير ؛ بعثت بريطانيا إلى نجد هارى سان جون بريدجر فيلبى أو جاك فيلبي، كما كان يعرفه زملاؤه الإنجليز، وفيما كانت مبادىء لورانس تتأرجح بين مساندة المصالح الاستعمارية البريطانية وبين ما رآه مطالب فيصل المشروعة فى سوريا؛ فإن جاك فيلبى لم تكن تراوده هذه الوخزات من الضمير بشأن الولاء المزدوج ، كان دائمًا يعرف أن ولاءه الحقيقى يكمن عند ابن سعود والوهابيين.

الكاتب الإنجليزى روبرت ليسى يصف فيلبى بأنه « ماكر داهية مثابر بكل مقياس».. جاك فيلبى كان – بالطبع – والد العميل البريطانى المزودج كيم كيم فيلبى الذى هرب إلى الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٦٣ بينما كان عضوًا رفيع المكانة فى المخابرات البريطانية. ومن العجيب أنه على الرغم من كل ما كتب من عمليات الجاسوسية فى الحرب الباردة فلم يستطع مؤلف واحد معالجة– بصورة منهجية– تلك العلاقة المثيرة للعجب بين هذا الأب والابن وكلاهما تخرج فى كلية ترينيتى فى كمبريدج، وكلاهما كان– بهذا الشكل– خائنًا بارزًا لبلده الأصلى، خاصة لأن كيم فيلبى نما وسط بيئة استعرابية من ثم احترف الصحافة فى الشرق الأوسط ومع ذلك فلم يُفضِ به هذا إلى نفس حب العرب على نحو ما كان أبوه، ذات مرة كان كيم فيلبى يثرثر ثملاً فى حانة فى بيروت فقال: «العرب هم الشعب الوحيد الذى أعرف أنه يجمع بين الجهل والغرور»، وعلى الرغم من أن كيم فيلبى رفض أباه وعرب أبيه ، فإنه انتهى به الأمر وقد كرر نفس سلوك أبيه نفسه وهو أمر طبيعى لمثل هذا الضرب من الأبناء.

جاك فيلبى بدأ حياته العملية مع نهاية القرن الماضى فى الهند كوكيل استعمارى بريطانى؛ يعالج الأمور اليومية كجباية الضرائب ومكافحة الفيضان فى منطقة البنجاب، سرعان ما أظهر فيلبى مقدرة مرموقة فى اللغات واللهجات؛ فأتقن بسهولة الهندية والبوشتو والبنغالية ولغات أخرى. وكم كان سعيدًا عندما كان ينغمس فى أى ثقافة بعيدة عن ثقافته الوطنية. وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى وأصبحت بلاد العراق ساحة حرب استراتيجية بين البريطانيين والأتراك الذين انحازوا إلى قيصر ألمانيا، كان فيلبى واحدًا من ضباط عديدين تم تجنيدهم لحساب البعثة البريطانية فى البصرة؛ حيث أضاف العربية بسرعة إلى قائمة اللغات التى أجاد استخدامها، وفجأة نسى الهند وأصبح فيلبى مدمنًا للثقافة البدوية العربية يمضى الساعات الطوال يتتبع القبائل وأحسابها معترفًا بأن هذا العمل لم يكن يمت بصلة ما إلى عمله باعتباره دبلوماسيًا، ولكنه كان «مجرد ناتج فرعى لدراساتى اللغوية» على أن فيلبى ظل فى بلاد ما بين النهرين مجرد سمكة صغيرة فى بحر كبير من الموظفين البريطانيين الموهوبين، ثم جاء موت الكابتن شكسبير؛ فأتاح له الفرصة كى «يتبنى» زعيمًا عربيًا كبيرًا.

وكان يعرف ما يتعين على المرء فعله؛ كى يحدث أثرًا فعالاً. لورانس كان له فيصل والحجازيون، وها هو ذا فيلبى يكون له ابن سعود والوهابيون. وفن العمالة كان مشكلة بدأت بوصفها ضرورة فى عصر لم تكن الدول العربية (المشرقية) قد خرجت رسميًا فيه بعد إلى حيز الوجود، ولم يكن ثمة آلية رسمية لهؤلاء الزعماء القبليين كى يعبروا عن

مشاعرهم إلا من خلال ضباط بريطانيين متعاطفين معهم؛ ترتفع أقدارهم المهنية وتسقط بقدر ما يحدث لهؤلاء القبليين الذين كانوا مرتبطين بهم؛ فضلاً عن ذلك كانت تكنولوجيا الاتصالات من البدائية لدرجة أن المسئول الاستعماری فی بلاد العرب فی أثناء الحرب العالمية الأولى كان على صلة واهية جدًّا بمكتبه فی الوطن على خلاف الصلة التی تربط الدبلوماسی بوطنه فی يومنا هذا، مثل هذا المسئول القديم كان يمكن أن يمضی شهورًا عدة لا يصحبه أحد سوى رجال القبائل الذين تبناهم.. وهذه الحقيقة جعلت تجربته فيما وراء البحار أكثر تركيزًا وأشد كثافة، وكلما زاد تركيز التجربة، زادت كثافة الولاء المتطور والناجم عنها.

هكذا لم يضيِّع فيلبی وقتًا كی يكسب ود عبد العزيز بن سعود؛ ففی مدى أسبوع واحد بعد نوفمبر ١٩١٧ الذی شهد لقاءه خارج الرياض مع الزعيم العربی الوسيم، وفی خشونة طويل القامة- وجد فيلبی نفسه فی خصومة مريرة مع الكولونيل ر. هاملتون الوكيل البريطانی لشيخ الكويت مبارك الصباح ؛ حيث عبر هاملتون عن ازدرائه بعد اقتراح فيلبی السماح لابن سعود بالاستيلاء على الكويت من أيدی عائلة الصباح.

لم يكن ثمة شیء فی شخصية جاك فيلبی يخضع للسيطرة أو ينبئ بالتواضع؛ حتى صديقته وزميلته المستعربة «جرترود بل»؛ كانت تتصوره «متسيدًا وصعبًا بأكثر مما ينبغی»، سرعان ما خرج فيلبی على الناس يرتدی الثياب العربية ويمتطی جملاً ويصحب محاربی ابن سعود من الوهابيين ويعلن نفسه «النجم الجديد فی السماوات العربية». وكما

يكتب فى سيرته الذاتية «أيام عربية» قال: أستطعت أن أضيف كمًا هائلاً إلى معرفتنا المتاحة بأحوال جزيرة العرب، وأن أبدأ عهدًا جديدًا جعلنى عدوًا للجميع وكان لدى الشجاعة لأن أعبر عن قناعتى بأن رجل الأقدار فى جزيرة العرب هو عبد العزيز آل سعود وليس الحسين بن على (شريف مكة)، وكان الأخير هو المقرب إلى كل من لورانس والمؤسسة الاستعمارية البريطانية.

كانت مقولة وزارة المستعمرات وقتها، وكان كل مستعرب ما عدا فيلبى يوافق عليها هى التالي: عندما يختفى الأتراك من المسرح فليس هناك سوى العائلة الهاشمية لشريف مكة هم النسل المباشر للرسول؛ هم الحائزون على المطلوب من حيث المكانة السياسية والدينية؛ كى يحكموا فى ظل استقرار الجزيرة العربية، ولكن فى عام ١٩٢٥ استطاعت قوات ابن سعود أن تسلك طريقها زاحفة نحو الغرب من وسط الجزيرة العربية؛ فاجتاحت بذلك منطقة الحجاز، وهكذا ذهب شريف مكة إلى المنفى، وأصبحت مدينتا مكة والمدينة المقدستان جزءًا من المملكة المتوسعة حديثًا التى عرفت باسم المملكة العربية السعودية، وأثبت جاك فيلبى أن كل زملائه البريطانيين كانوا على خطأ وما كانت هذه الحقيقة بالشىء القليل الذى يستهان به.

هكذا لم يخرج فيلبى من غبار هذه الأحداث بوصفه فقط اليد اليمنى للملك عبد العزيز آل سعود الذى كان يشاركه فى التسرى بالسبايا؛ بل كان يناقشه مطولاً فى آيات القرآن؛ بل إنه أصبح بعد ذلك بمثابة أمين لسر الملك وحاجبه.

كل غربى كان يأتى إلى الرياض خلال ربع القرن الذى تلا السعى نحو امتيازات النفط وغير ذلك من العقود التجارية؛ كان عليه بدء مباحثاته التجارية أولاً مع جاك فيلبي، وبصرف النظر عما تراكم لديه من الثروة جراء هذا النشاط فإنه استغل موقعه المميز هذا لكى يسافر باستمرار إلى أماكن لم يكن يسمح عادة للأجانب بالولوج إليها؛ ثم ينتج عشرات من الكتب حول الثقافة العربية والإنسان العربي، والكشوف الجغرافية التى تصنف الآن بوصفها من الكتابات الكلاسيكية المرموقة التى لا تقدر بثمن بالنسبة إلى خبراء تلك المنطقة.

وفى عام ١٩٢٩ ، بعد تحسن علاقته الرسمية مع الحكومة البريطانية تحرك فيلبى إلى بيت بغدادى- وهو نُزُل على شكل قلعة من الرمال يحوى شرفات معلقة على شط البحر الأحمر فى جدة حيث عاش جنبًا إلى جنب مع مجموعة كانت متنامية من القردة العربية التى كانت تشغل أقفاصًا على الشرفة.

فى عام ١٩٣٠ ، أصبح فيلبى على استعداد لاتخاذ الخطوة الأخيرة فيما كانت عملية تدريجية من الانسلاخ عن شخصية الإنسان واصطناع شخصية جديدة؛ أو كما عبر هو نفسه «أن يذهب مع العرب إلى آخر الشوط». ففى أوائل أغسطس من ذلك العام ارتدى ثياب شيخ عربى وقام بتوقيع وثيقة تشهد بقبوله الإسلام واتخاذه اسم عبد الله؛ ومن ثم استطاع عبد الله فيلبى السفر للمرة الأولى إلى مكة وتأدية شعائر العمرة وهى الحجة الأصغر حيث طاف بالكعبة مع المتعبدين، ووصف ذلك بقوله:

إنها كانت تجربة مؤثرة؛ تبعث الرهبة فى النفس فيما كانت أيضًا فى غاية من المودة والدفء؛ كأنما هى شيء غامض يتذكره الإنسان من ماض مطوى فى زوايا النسيان. هكذا أصبح قادرًا على المشاركة كاملاً فى ساحات البلاط الملكى؛ وبعدها وهب له ابن سعود سرية اسمها مريم على سبيل الهدية تكريمًا لتحوله إلى الإسلام.

لكن سيقيض له أن يكون صديقه وبطله ابن سعود هو الذى سيتخلى عنه فيما بعد، فعندما زادت سطوة النازى فى أوروبا أصاب فيلبى اليأس من إشعال حرب ضد أدولف هتلر، فبدأ يهمس فى أذن الملك: أن لا بأس ولا تثريب إذا ما عقدت إنجلترا سلامًا على أساس شروط هتلر من قريب أو بعيد، مع ذلك كان الملك حصيفًا فأراد اللعب على كلا الحبلين؛ فبالإضافة إلى عقد صفقات أسلحة مع ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية أبلغ الملك إنجلترا بأمر جولة لمناهضة الحرب سيتحدث فيها فيلبى ويبدأها عام ١٩٤٠، وما إن غادر فيلبى المملكة السعودية حتى ألقت القبض عليه المخابرات البريطانية.

بعد ذلك سمح لفيلبى بالعودة إلى المملكة، وعاد ليجد سلواه فى الوهابية التى حمته تقاليدها الصارمة بالتقيد بالمبادئ السلفية إزاء مقتضيات عالم سريع التغير. وفى عام ١٩٥٥ كان قد بلغ التاسعة والستين، فانتهى حلم عبد الله فيلبي، وبعد أن شكى للملك الجديد سعود من «الفساد الضارب أطنابه» فى المملكة، استدعى سعود فيلبى إلى حضرته وبصق عليه على رءوس الأشهاد؛ ثم أمر بنفى فيلبى إلى لبنان.

* * *

عندما وصل فيلبى – للمرة الأولى – إلى بلاد ما بين النهرين قادمًا من الهند فى عام ١٩١٦؛ سرعان ما أنشأ صداقة مع جرترود بل وهو يصف ذلك بقوله: اكتشفنا اهتمامًا مشتركًا بأشياء غريبة؛ منها مثلاً، أنساب القبائل والحكام العرب. الآنسة «بل» كانت تتمتع بجمال طابعه أرستقراطى إنجليزي، طويلة القامة حادة الملامح ذات شعر فضي، وعندما التقى معها فيلبى – كانت تتكلم العربية بلهجة لا تكاد تعكس أى رطانة غريبة، من الناحية الرسمية كانت «مس بل» ضابطًا سياسيًا تابعًا للمكتب العربى البريطانى فى العراق، وفى الحقيقة كانت هى القوة المسيطرة خلف قيام دولة يحاولون تجميع أطرافها من كردستان فى الشمال ومن منطقتى السنة والشيعة فى بلاد ما بين النهرين التى أصبحت تعرف باسم العراق؛ وهى كلمة تعبر فى العربية عن الأصالة وطيب المحتد.

«جرترود مارجريت لوسيان بل»، نشأت فى الريف الإنجليزى محاطة بالثروة والنفوذ. فى عام ١٨٨٨ كانت قد بلغت العشرين وتخرجت مبكرًا فى أكسفورد وأصبحت تجيد اللاتينية والفرنسية والألمانية، وتعاملت مع الدبلوماسيين البريطانيين فى إسطنبول؛ حيث نما لديها فضول عميق وشوق شديد إلى ما يقع على الجانب الآخر من البوسفور فى آسيا.. وفى أوائل تسعينيات القرن الماضى نجدها فى طهران تجيد الفارسية وتنشر مذكراتها لرحلاتها الفارسية؛ ثم تترجم أعمال حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى الذى عاش فى القرن الرابع عشر، ومن فارس كانت خطوة منطقية تالية مغامرتها إلى سوريا ثم ما بين النهرين لإتقان اللغة العربية، وفى سوريا وما بين النهرين وشمال شبه الجزيرة فى السنوات الأولى من

القرن العشرين اكتشفت الآنسة «بل» الشهامة التى لا تقاوم للصحراء؛ فأصبحت رحالة متفرغة وآثارية هاوية؛ وإن كانت تصر على اصطحابها أفضل أدوات مطبخها وأجمل ملابس السهرة لديها فى كل الجولات التى قامت بها، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت قد ألفت نصف دستة من الكتب عن الاستكشافات الاستشراقية بما فى ذلك «الصحراء: والسهل الخصيب» الذى لا يجاريه- حتى اليوم- أى وصف لرحالة لمدن سوريا الكبرى وشعوبها، على أن حبها لم يقتصر على الصحراء: لقد دخلت فى علاقة عاطفية غير مشروعة مع ضابط متزوج من فرقة الرماة الملكية هو تشارلس مونتاجو دوتى - ويلي، ابن أخ مؤلف «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وسميُّه، وفى أبريل ١٩١٥ كان الكولونيل ويلى يقود قوة من الجنود الأستراليين فى مهمة بطولية أخيرة فى جاليبولى عندما قتله الأتراك برصاصة فى رأسه؛ ومن بعدها عمدت الآنسة «بل» إلى توجيه كل عواطفها إلى الشعب الذى تبنته، وهم عرب ما بين النهرين وإلى الدولة الجديدة، العراق التى كانت مصممة على أن تولد على يديها؛ هؤلاء أصبحوا بمثابة العائلة التى لم يقدر لها أن تضم غيرها طيلة حياتها.

وعندما نشبت الحرب، كانت السلطات البريطانية بحاجة إلى معارف الآنسة «بل» اللغوية والبشرية لأغراض الدبلوماسية وأعمال المخابرات.

وبعد فاة ويلي، أصبحت هذه المهمة شغلها الشاغل، وبين إصابات ونوبات بالملاريا وبين الإشراف على تحرير صحيفة عربية محلية وكتابة تقارير الدبلوماسية والاستخبارات فى مواسم الشتاء الحافلة بالمطر

والوحل فى بغداد فى السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، أنتجت الآنسة «بل» مجموعة من الدراسات الإثنوغرافية عن مواضيع مثل التقاليد الشيعية وكتابة العربية بحروف إنجليزية، وكذلك كانت تقيم حفلات؛ وإن كان حتى أقرانها من البريطانيين انتقدوها، على نحو ما يقول كاتب سيرتها: «بسبب غرورها الزائد وكراهيتها للنساء العربيات اللهم إلا إذا كن ينتمين - كما قالت الآنسة بل نفسها - إلى طبقات أعلى».

كان الذى يربط بين هذه الأنشطة جميعًا: حلمها بعراق المستقبل الذى كانت تريده مركزًا للحضارة والرخاء عندما نتمكن من جعل بلاد ما بين النهرين دولة عربية نموذجية، وساعتها لن يكون هناك عربى فى الشام أو فلسطين بغير رغبة فى أن يصبح جزءًا منها؛ فى ذلك الحين كان المسئولون البريطانيون عاكفين على عملية اصطناع هذه الدولة؛ ومن أجل خدمة أغراضهم الاستراتيجية أرادوها تشمل حقول النفط فى جنوب كردستان، وتتمتع بمنفذ على الخليج العربى لدعم وجودهم فى الهند. وعلى الرغم من أن هذا كان يعنى توحيد عدة أقاليم تخلى عنها العثمانيون دون أن يكون بينها رابط مشترك اللهم إلا كراهيتها العودة إلى القديم؛ فإن هذا كله لم يكن ليشغل «الآنسة بل»؛ فقد كان العراق لعبتها التجريبية وعندما أصبح العراق حقيقة واقعة اعترفت بأنها بينما استخدمت فى برقياتها حججًا لتعزيز خلق العراق بالنسبة إلى وزارة الخارجية فى لندن وكانت حججًا سياسية واقتصادية؛ فإن مفتاح الموقف فى العراق فى نظرها كان دائمًا هو «الشغف الرومانسي».

لم تعد الآنسة«بل» قط إلى إنجلترا، بل بقيت فى بغداد وحيدة لتصبح مديرة شئون الآثار فى الدولة العراقية الجديدة وواحدة من خلصاء ملكه الجديد فيصل الأول (*)؛ إلا أن حكم فيصل تطور بالتدريج ليصبح أكثر خبثًا وفسادًا، ومن ثم فإن محادثاتها مع ملك العراق أصبحت تتخذ شكل معجب خاب أمله إزاء بطله السابق.

كانت تقول: بدأت أسأل (الملك فيصل) عما إذا كان يؤمن بإخلاص الشخص والثقة فيه، فقال: إنه لا يشك فى ذلك، وقلت فى هذه الحالة فأنا أستطيع أن أتكلم بحرية كاملة رغم أننى فى غاية التعاسة، لقد صنعت صورة جميلة ورشيقة من الثلج وشعرت إزاءها بالولاء، وها آنذا أراها تذوب أمام ناظري.

(نزعة الآنسة«بل» إلى المبالغة والترسل فى الحديث ؛ يمكن أن تجد شبيهًا لها فى المحادثات التى تمت عام ١٩٩٠ بين حاكم عراقى آخر ودبلوماسية غربية أخرى أمضت- بدورها- كثيرًا من سنوات حياتها فى العالم العربى) (**).

(*) هو فيصل نفسه الذى حارب مع لورانس ضد الأتراك، ثم كافأته بريطانيا بعرش العراق بعد أن أجبرته السلطات الاستعمارية الفرنسية على الخروج من سوريا .

(**) الأقواس هذه المرة من وضع المؤلف ويقصد بالطبع المقابلة الشهيرة بين صدام حسين والسفيرة الأمريكية أبريل جلاسبى «المترجم» .

أعلنت الآنسة «بل» نفسها قائلة: «أنا عراقية»، ثم اتخذت لنفسها – فيما بعد– لقب «أم المؤمنين» (!)، وكان العراقيون يسمونها الخاتون أو سيدة القصر. وعندما ماتت دفنت فى بغداد عام ١٩٢٦ قبل عيد ميلادها الخامس والثمانين بيومين، بعد تناولها جرعة مميتة من عقار البربيتوريت، إلا أن قصة أخطاء بريطانيا فى العراق ظلت مستمرة خلال الحرب العالمية الثانية، ولسوف تعرضها سطور الكتاب فيما بعد.

* * *

وعلى الرغم من أن الساحة شملت آخرين، فإن «لورانس» و«فيلبي» والآنسة «بل» هم أكثر الشخصيات التى لا تزال ذاكراها ماثلة بين الأفراد البريطانيين الذين عملوا فى الحرب العالمية الأولى وجمعوا بين العلم والعمالة الإمبريالية، وامتلكوا الوسائل المالية للسفر على هواهم، وسحر كل منهم الآخر تمامًا. كما أن كلاً منهم كان مسحور اللب بالعرب. لكن نفوذهم لم يقتصر على أن يكون مجرد معرفة ثقافية مكتسبة، إن مفتاح القوة لكل منهم كان قدرته باعتباره كاتبًا وقبل أن تؤثر كتب لورانس أو فيلبى أو الآنسة بل وغيرهم من البريطانيين الذين أثروا فى أجيال من المستعربين الذين أنجبتهم أمريكا، إلا أن برقياتهم الدبلوماسية كان لها– بدورها –تأثيرها فى راسمى السياسات فى لندن.. إن هـ. وينستون– كاتب سيرة الآنسة بل– يلاحظ أنها ولورانس قدما مادة للقراءة فى فترة الحرب لم يبارها بالتأكيد أى وثائق تابعة للمخابرات؛ بل إن موظفى الخارجية

البريطانيـة كانوا يتقاتلـون للحصول عليهـا؛ لكن بينما كانـوا أساتذة فى حرفـة الكلمـة فإنهم لم يكونوا لا من الوضـوح ولا الاتساق فى الآراء التى طرحوهـا، وهذا بدوره، علـى ما يقول وينستون، هو العيـب المأساوى فى المستعرب البريطاني: «كانوا فى غاية الأناقة اللفظية، العالم بالنسبة إليهم كان يمكن أن يكون مكانًا أكثر سلمًا للأجيال القادمة؛ لو لم يكونوا هم ومن على شاكلتهم كتابًا ومؤلفين على قدر مشهود من الكفاءة والإقناع».

لورانس بالذات كان شخصًا يؤثر فيه مسرح الأحداث تأثيرًا بالغًا؛ بين صفوف العرب فى الصحراء كان مؤيدًا للعرب.. فى دوائر الخارجية البريطانية فى هوايت هول كان مؤيدًا للإمبراطورية، مع حاييم وايزمان كان يستشعر فى نفسه صهيونيًا مخلصًا، وهكذا فعند قراءة حوليات الحرب من لورانس أو الآنسة بل أو غيرهما يحار المرء كثيرًا عندما يقرأ مثلاً أن القومية العربية- فى مناسبة ما- هى العلاج الشافى لكل الأدواء؛ بينما يقرأ فى مناسبة أخرى أن الحكم الذاتى فى العراق وسوريا هو الحل الناجع للمشكلات... هذا الارتباك والاضطراب هو بالضبط الذى يجسده الشرق الأوسط الذى صنعه البريطانيون وساعدهم فى ذلك الفرنسيون فى مرحلة ما بعد الدولة العثمانية.

العراق، تلك المملكة المصنوعة فى بريطانيا، جاء كفصل تالٍ لما عمد إليه البريطانيون والفرنسيون من تقطيع أوصال بلاد الشام، وهو ما أحبط كثيرًا مما كان المبشرون الأمريكيون يحاولون إنجازه فى الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية) وغيرها من المعاهد العلمية.

لقد كانت الثورة العربية التى ألقت قيادها إلى لورانس، مجرد نظير عسكرى لحركة اليقظة العربية التى قادها المبشرون الأمريكيون، وقد شهدتها مدن كثيرة فى بلاد الشام فى القرن التاسع عشر من خلال تشكيل الجمعيات الثقافية والسياسية السرية، وهذا التراث جعل دمشق موئلاً لمشاعر العروبة مع نهاية الحرب العالمية الأولى؛ حيث أصبحت قلب العروبة النابض كما كانوا يسمونها، وبالنسبة إلى قلة من المبشرين بدت بلاد الشام- فى نهاية المطاف -كأنها ستنحو نحو اتباع خطى أمريكا بوصفها مجتمعًا مستقلاً وموحدًا وليبراليًّا وديمقراطيًّا؛ لكن هذه القومية العربية التى لا تعرف الحدود والتى ساندها المبشرون لم تكن تلقى عطفًا إلا من جانب الغالبية السنية المسلمة، هؤلاء الذين كانوا يعيشون أساسًا على طول محور الشمال والجنوب فى دمشق وحمص وحماة، وفى غير ذلك كانت سوريا بمثابة رقعة شطرنج لأطراف متنازعة ما بين المذاهب والأديان والمصالح القبلية فى الشرق الأوسط، كانت مجرد مصطلح على نحو ما قالته الآنسة «بل» فى لحظة صفاء فى بداية حياتها العملية قبل موت صديقها المحبب دوتى ويلى: « مجرد مصطلح جغرافى لا تتوازى معه أى مشاعر وطنية فى صدور السكان».

وإلى جانب الموارنة والروم الأرثوذكس؛ كانت جيوب من الأرمن واليهود الشركس وكثير من المذاهب الباطنية المختلفة المتخلفة عن مد الإسلام الشيعى الذى كان قد اجتاح المنطقة غربًا من إيران إلى سوريا، ثم انحسر قبل ذلك العهد بألف سنة. كان هنا الدروز والإسماعيليون والعلويون. وكما سبق إيضاحه؛ فإن المجموعات المختلفة من المبشرين

الأجانب الذين كانوا يعملون لأغراض شتى من خلال مؤسساتهم التعليمية التى كانت كل منها تلبى احتياجات نِحلة بعينها، كانوا فى واقع الأمر يعملون على تجزئة السكان فيما كانوا يناضلون من أجل توحيدهم، وعندما استطاعت قوات الحلفاء بمساعدة من رجال لورانس من المحاربين العرب اجتياح دمشق فى عام ١٩١٧ وتطرد الأتراك العثمانيين، مضى البريطانيون والفرنسيون فى توطيد وتكريس هذه الانقسامات العربية لتصبح بمثابة صخر صلد؛ بينما قطعوا أوصال الأغلبية من عرب السنة عن بعضها بعض.

كانت منطقة سوريا العثمانية سابقًا منقسمة إلى ست مناطق مختلفة: جزء من شمال سوريا ضموه إلى دولة تركية جديدة؛ بدأ مصطفى كمال أتاتورك يقتطعها من واقع الخلافة العثمانية القديمة، وجنوب سوريا انقسم إلى منطقتين: منطقة انتداب فى فلسطين (وعدت بريطانيا مرتين أن بإعطائها لليهود وللعرب)؛ ثم مملكة فى شرق الأردن يحكمها واحد من حلفاء لورانس فى الحرب العالمية الأولى هو عبد الله شقيق فيصل وابن شريف مكة، أما الجزء الشرقى من بلاد الشام فقد أصبح جزءًا من العراق - البريطانى، والفرنسيون أخذوا ما تبقى وقاموا بدورهم بتقسيمه من خلال إعلان دولة لبنانية موسعة تُعرف باسم لبنان الكبير؛ لكى يعزز وجود أصدقائهم المسيحيين الموارنة الذين سيضعون - منذ تلك اللحظة - عددًا كبيرًا من السكان المسلمين السنة تحت سيطرتهم.

فى الوقت نفسه؛ حصل فيصل رفيق لورانس فى السلاح فى الحرب العالمية الأولى وابن شريف مكة على مكافأة عن خدماته، ومن ثم قامت بريطانيا بتنصيبه ملكًا على سوريا فى عام ١٩٢٠، وعاشت مملكته تلك مئة يوم، إلى أن أخرجه منها الفرنسيون. حينئذ مضى لورانس وصحبه فطوحوا بفيصل إلى العراق؛ حيث لم يكن قومه- الهاشميون القادمون من غرب الجزيرة العربية- يتمتعون بأى مساندة محلية ويومها تطوعت الآنسة «بل» المتحمسة بالمساعدة فى بناء قاعدة قوة لصالحه.

لكن بينما كان البريطانيون والفرنسيون يرسمون خطوطًا على الخريطة ويحركون الحكام هنا وهناك مثل قطع الشطرنج، كان الأمريكيون البروتستانت يعانون جنبًا إلى جنب مع ضحايا المجاعة والمذابح التى كانت ناجمة عن الحرب العالمية الأولى. وعندما كان هناك بريطانيون من أمثال لورانس وفيلبى والآنسة «بل»؛ يقعون فى غرام العرب، كان المبشرون يتعلمون ربما أكثر من ذى قبل معنى ما يشعر به المرء بحق عندما يكون عربيًا فى الحانات والمطاعم الشعبية الخيرية بسوريا فى الحرب العالمية الأولى، بعيدًا عن مضارب خيام الملوك ومراكز القوة فى لندن، وهنا يتعين علينا العودة فنلتحق بمسيرة الإنجيليين البروتستانت الأمريكيين.

الفصل الرابع

نهاية الطيف الملون

عندما يأتى ذكر الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأوسط؛ تسجل الذاكرة المعاصرة صور الصحراء وفيالق الجمالية ولورانس مرتديًا الدشداشة والعقال العربي، لكنها لا تسجل الوجوه الضامرة لـ ٣٠٠٠٠٠ من أبناء الشام- كثير منهم أطفال- الذين تضوروا جوعًا حتى الموت فى غمار إحدى المجاعات التى طال عليها النسيان فى هذا القرن.

بايارد دودج خريج جامعة برنستون الذى ذهب مع أخيه التوءم إلى بيروت فى قارب فى عام ١٩١٠، عاد إلى المدينة من جديد لدراسة العربية وللمساعدة فى جهود الإغاثة وقت الحرب. كان ينعم باستقلال الثراء فاستطاع أن دعم شبكة من المطاعم الشعبية الخيرية التى تولت إطعام ١٢٠٠٠ عربى فى الجبال المحيطة ببيروت. كتب يومًا يقول: « كان الهواء حافلاً برنين الأجراس التى تعلن؛ الجنازات وكان الأطفال يبكون من أجل لقمة خبز يتبلغون بها، كانت الملابس شحيحة لدرجة أن الأمريكيين حولوا ستراتهم واستخدمت النساء الستائر لصناعة فساتين، وكان الكيروسين من الندرة لدرجة أن الأهالى استخدموا لمبات بزيت الزيتون، تمامًا كما كان أسلافهم الفينيقيون يفعلون.. كان الناس يتقاتلون على أكوام الزبالة،

وأصبح كثير من البيوت فى الجبال خالية بعد أن مات شاغلوها واستخدمت أبوابها لصناعة الأكفان».

هكذا كان السكان المدنيون فى بلاد الشام هم الذين دفعوا ثمن الثورة العربية التى قادها البريطانيون فى الحجاز، أصبحوا بكل معنى الكلمة سجناء عند الأتراك الذين فرضوا حصارًا على المؤن الغذائية داخل سوريا الكبرى، أما المغتربون الأمريكيون الذين كانت حكومتهم برئاسة ودرو ويلسن موالية للبريطانيين، وسرعان ما أعلنت الحرب على تركيا وغيرها من القوى فى وسط أوروبا؛ فكانوا بدورهم سجناء يتهددهم الأتراك باستمرار بالترحيل فى حافلات مقفلة إلى دواخل الصحراء؛ بينما كانوا يفعلون ما يستطيعون لتخفيف المعاناة التى كانوا يطالعونها من حولهم هنا وهناك.

هوارد بليس رئيس الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية)، وهو مستعرب، محيط بموضوعه، تمامًا كما كان لورانس أو الآنسة «بل»- أمضى سنوات الحرب فى كفاح لا يهدأ لمجرد إيجاده الطعام لأعضاء هيئة التدريس من أبناء المنطقة ويجعل الكلية تطفو بعيدًا عن الغوص فى هاوية الديون إزاء مغارم الجهود الإنسانية التى قامت بها، لم يكن يمضى يوم بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ إلا وكانت السلطة التركية تهدد -أو على الأقل تثير المتاعب- لرئيس الكلية الأمريكية.

بالإضافة إلى أنشطة الإغاثة التى قامت بها الكلية المذكورة؛ أنفق المبشرون الأمريكيون فى سوريا ١٦ مليون دولار- وهو مبلغ جسيم فى

ذلك الزمان– على علميات إطعام وإلباس العرب المحتاجين. كان رواد الكنائس فى أمريكا ذاتها هم الذين يجمعون الأموال، ومع ذلك ففى اشتعال أتون الحرب عبر ساحات أوروبا بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، ومع اقتراب أمريكا من الالتحاق بهذا الأتون؛ فإن الجماهير فى الوطن الأمريكى لم تكن تركز على المأساة فى بلاد الشام، وعلى ذلك فإن المغتربين الأمريكان كانوا مثل الضباط السياسيين البريطانيين المنتدبين لقيادة القبائل العربية يشعرون بالعزلة؛ وبأنهم متروكون لشأنهم إزاء تجربة شخصية غاية فى التوتر. بدا الأمر وكأنه أوكل إليهم سر عظيم ينوء به قلب الإنسان لا يكاد يهتم به خارج نطاقهم فى العالم إلا قلة قليلة. أدى ذلك إلى إحباط الأمريكيين فى سوريا الكبرى بل وتعميق مشاعرهم إزاء الأرض التى تبنتهم أو تبنوها. كانوا يعرفون كما تقول مرجريت مكجلفارى – هى مبشرة فى بيروت – أن «أعمال الأمريكيين» أدت إلى نتيجة سياسية لم يكن يكترث أحد فى واشنطن حتى لمجرد متابعتها.. الحق أن أمريكا أعطت بسخاء ولكن دون اكتراث يذكر حول ما إذا كان هذا السخاء سيعود عليها عندما يأتى يوم تعترف فيه الأمة فى سوريا بأمريكا بوصفها صديقًا لا مصلحة له إلا الصداقة، وتتذكر جريس دودج – ابنة بايارد دودج– أن أمريكا كانت تمثل فى نظر عرب سوريا «نهاية الطيوف الملونة».

الوافدون الأمريكيون من جانبهم، كما كتبت مكجلفاري، كانوا يستوحون سلوكهم من الاتجاه القومى عند العرب الذى رأى فيه هؤلاء المغتربون علامات مبشرة بأن سوريا الكبرى تتمتع بامتلاكها عناصر قوة كامنة بل وشرارة من نار مقدسة. وعند نهاية الحرب، أبحر بليس إلى

مؤتمـر السلام فى فرساى ليلقى خطابًا مشبوبًـا بالعاطفة لصالح القضية القوميـة العربية.. وعلى خلاف لورانس وغيره من البريطانيين؛ فإن إيمان بليس وسائر المغتربين الأمريكييـن بالقومية العربيـة كان إيمانًا شاملاً؛ إذ لـم يكـن أى منهم يمثـل أى مؤسسة إمبريالية لهـا دوافعها الخاصة فى المنطقـة (الحكومة فى واشنطـن، كما سوف نرى، لـم تصبح بحق مدركة لأهمية منطقة الشرق الأوسط إلا بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية).

وفيما كانت الجالية الأمريكية فى سوريا متحدة فى دعمها لقضية القومية العربية، فإن أربع سنوات من الاحتلال التركى الوحشى زادت من تفاقم التباين المستمر بين هيئة التدريس فى الكلية البروتستانتية السورية وبين سائر المبشرين الأمريكيين. إن مكجلفارى- التى عملت فى فرع بيروت من الصليب الأحمر- اتهمت بليس والعاملين معه فى الكلية المذكورة فى كتابها «فجر حقبة جديدة فى سوريا «بأنهم» كانوا يتقربون من الأتراك »، كما أن ستيفن بنروز فى التاريخ الذى كتبه للكلية بعنوان «بحثًا عن الحياة» كتب يصف بليس - إذ حافظ على موقف متسق من الولاء للحكومة العثمانية القائمة فى ظل الاعتقاد فى أن لها حقًا أن تطلب من الكلية بوصفها مؤسسة مرتبطة بالنظام التعليمى للإمبراطورية، موقف الطاعة والانصياع.

وبعد الحرب علمت مكجلفارى بالجهود الكاملة التى كان قد بذلها بليس فاعتذرت له، ولكن الغبار الذى أثير حول مجاراة السلطات التى كانت تحكم بيروت؛ عصف بالكلية منذ ذلك الحين فصاعدا، لقد كان اتخاذ موقف أخلاقى مثالى معناه أن تغلق الكلية منذ وقت طويل، بينما أدى

التعامل مع العسكرتاريا العثمانية (ومن بعدهم الاستعماريين الفرنسيين ثم بعد ذلك حركة المقاومة الفلسطينية فى لبنان على نحو ما اضطرت الجامعة مرارًا إلى سلوكه) إلى تعريض إدارتها وأساتذتها لتهمة مداراة العناصر المحلية. وفى عام ١٩٩١، تناول ويليام برنز من كبار مساعدى وزير الخارجية الأمريكية السابق جيمس بيكر لشئون الشرق الأوسط هذه الأزمة التى عاناها المستعربون فقال: «العالم العربى يمكن أن يكون مكانًا سيئًا؛ ولكن المستعرب هو إنسان لا يملك ترف التنظير وهو يقف على الحواف والهوامش، إن عليه- فى حقيقة الأمر- أن يعيش هناك ويعمل وحده ويتعامل مع هذا الواقع الذى لا يمكن تقصى أبعاده».

وإلى جانب الدمار الذى لحق أوروبا، فإن المجاعة التى أصابت بلاد الشام كان عليها أن تتنافس أيضًا كى تحوز الاهتمام مع كارثة إنسانية كبيرة أخرى تمثلت فى القضاء على ما يزيد على مليون من الأرمن بواسطة من خلال السلطات التركية فى الجزء الشرقى من آسيا الصغرى عام ١٩١٥، وكان المبشرون الأمريكيون فى تلك المنطقة هم أول من أبلغ العالم حول ما كان يحدث هناك من خلال إشارات مبطنة فى الرسائل التى كانوا يبعثون بها إلى الوطن.

«ويليام نسبيت تشامبرز» خريج برينستون- وهو مبشر مجمعى- يتذكر: «إنها كانت تجربة مهمة عندما كان المرء يدخل فى جدال مع عصبة عازمة على إراقة الدم وسلب الأموال؛ حيث كانت شهوة الدم تطل من العيون»، وقد وصف تشامبرز كيف أنه حاول إنقاذ قسيس أرمنى إلا أن

واحدًا من عصبة الأتراك أطلق الرصاص على القسيس فى ظهره؛ بينما أغمد آخر خنجرًا فى الجانب الآخر من جسد الرجل، من ثم «سقط بين ذراعى جثة هامدة».

هذه التجربة وغيرها دفعت تشامبرز إلى كتابة رسالة إلى واحد آخر من خريجى برنستون هو الرئيس ودرو ويلسن شخصيًا، قال فيها: «كم يود المرء لو أن دولة كالولايات المتحدة تصبح قوية فى البر والبحر لدرجة تحول بين حكومة كتركيا وبين أن تتجاسر يومًا على أن ترتكب مثل هذه الجريمة البشعة»، وكان المطلوب - على نحو ما نصح به المبشر المجمعى بلحيته البيضاء- هو سياسة خارجية أمريكية تمتشق فى يد «بندقية ضخمة بينما تمد يدها الأخرى وهى تحمل الإنجيل».

والحق أن الرئيس الأمريكى وقد أسعده الانتصار على تركيا، ثم أغضبته أحابيل البريطانيين والفرنسيين التى وصفها الرئيس ويلسن بأنها عملية سباق يثير الاشمئزاز تمامًا على بلاد الشام؛ كان بدروه يتطلع إلى الانصياع لنصيحة تشامبرز وغيره من المبشرين كى ينضم إليهم فى جهد يرمى إلى إعادة صياغة العالم على نسق أمريكا وصورتها.. وعليه، ففى عام ١٩١٩ أوفد ويلسن هنرى كينج، رئيس كلية أوبرلين فى أوهايو وتشارلس كرين، وهو مليونير من شيكاغو كان أبوه قد كون ثروة فى صناعة المرافق الصحية إلى سوريا لاستطلاع الرغبات السياسية للسكان المحليين. لجنة كينج - كرين؛ كما تذكر فى التاريخ كانت فى حقيقتها لجنة كرين - كينج، بمعنى أن تشارلس كرين كان العنصر المهيمن والقوة الدافعة فيما كان هنرى كينج بمثابة القوة التابعة.

فى شخص تشارلس كرين نرى نوعية جديدة من الأمريكيين اجتاحت العالم العربى تختلف بصورة ما عن نوعية المبشر: شدة الدعاية وقلة العوائد. وهكذا فبينما تشكل لجنة كينج - كرين مجرد حاشية على متن التاريخ، إلا أن تشارلس كرين يستحق الوقوف عنده بالوصف.

فى مقال كتب فى الخمسينيات يقول كريستوفر راند، وكان من ألمع المراسلين الخارجيين لجريدة نيويورك هيرالد تريبيون القديمة: «إن من أسوأ خطايا زملائه الصحفيين هو ذلك الاتجاه الذى يدفعهم للنظر إلى الشرق بوصفه مجرد خلفية مثيرة للاهتمام بالنسبة لشخصية الإنسان، وتلك نوعية من الأنانية- وربما من الرومانسية- يتصف بها من أسميهم «طيور الأعشاش»، رجال دأبوا على جمع نتف من آسيا وكأنما يزينون بها أعشاشهم وهم ينغمسون فى دراساتهم عاكفين على أطباق وأيقونات ورماح ومخلفات وأوان من الفخار أو الصينى وغير ذلك من التحف الصغيرة. إننى أربط هذه الموجة بمعاصرى الرئيس الأسبق تيودور روزفلت».

روزفلت كان بطبيعة الحال، منشئ هذه النوعية من الأمريكيين؛ حيث كان يعود وسط جلبة إلى الوطن من الأدغال الإفريقية وغيرها من الأماكن الغريبة؛ ومعه عينات يضمها إلى مكتبته وإلى نادى هارفارد ومؤسسة متحف سميثونيان. وفى أيام روزفلت كان كل من يملك المال للسفر إلى تلك الأصقاع الغريبة ويعود بأشياء أغرب ينظرون إليه أتوماتيكيًا وكأنه خبير بها. هكذا يقول رائد: «كانت تلك طريقة رخيصة لشراء دبلومة»؛ بل إن مثل هذه الوصمة كان يمكن وراثتها. الرئيس فرانكلين روزفلت كان يتصور

أنه على معرفة جيدة بالصين لمجرد أن أحد أسلافه كان فى يوم من الأيام يباشر تجارة من نوع ما حول منطقة هونج كونج، وكم كان هذا يتفق مع العصر الذهبى عندما كان لدينا فى أمريكا طبقة عليا محدودة العدد؛ لكنها تفرض وصايتها على الآخرين، وكان أعضاؤها يستطيعون الاقتراب من أى فرد ومعالجة أى شيء من خلال ما يتوافر لديهم من صداقات شخصية أو إجادة التعرف على الناس والأشياء.

تشارلس كرين كان جزءًا من ذلك العصر الذهبي، ورث أموالاً عن أبيه وسافر باستمرار دون حاجة للعمل كى يكسب عيشًا وكان يصف ملاحظاته عن الثقافات والحضارات الأجنبية بأنها «دراسات» على الرغم من أنه لم يتوافر لديه تعليم منظم ولم يكن يتكلم أى لغة أجنبية.

كانت روسيا أول هدف شغف به كرين. كتب ليو بوكاك الذى وضع سيرة كرين: «كانت تجمعات الأصدقاء حول سماور للشاى وهناك تتيح له من الغبطة لدرجة أن يحمل هذه العادة ليكررها فى الوطن ويبدى فى ذلك قدرًا كبيرًا من الاعتزاز عندما يقدم الشاى لضيوفه من سماور.

كان أكبر جاذب لروسيا فى عين رين هو كنائسها التى تتلألأ بالذهب والأيقونات، ولم يطل به الأمد حتى أصبحت من هوايته جمع أيقونات دينية من روسيا، ولأنه كان أمريكيًا ثريًا فى روسيا فى بدايات القرن، فقد اجتمع إلى القيصر نيقولا الثانى وأصبح من أشد مؤيدى روسيا فى حربها ضد اليابان، وفى دعايتها الحربية التى دفعت بها تهمة معاداة السامية (كان يعتبر أن المذابح التى قادها القوزاق ضد اليهود مجرد مضايقات). هذه

العواطف الثقافية أفضت بتشارلس كرين إلى أن يحب بسهولة ويكره بسهولة. وكانت عداوته لليابان بسبب انتصارها على روسيا هى التى شجعت شغفه بالصين بوصفها العدو التقليدى لليابان، فقام بزيارات عدة إلى الصين؛ حيث التقط «بعض تعابير قليلة» فى لغتها؛ مما أضفى عليه سمعة المرجع الثقة فى شئون تلك البلاد، وأفضى بالرئيس الأمريكى ويليام هوارد تافت إلى تعيينه وزيرًا مفوضًا لأمريكا لدى الصين.

فى تلك الأيام كانت مهام السفارة فى الصين لا تعدو أكثر من إضافة معلومات أساسية مثيرة للاهتمام إلى شخصية المرء.. أو هى بمثابة أسلوب لأحد السادة كى يمضى الوقت ذاته. ولقد نصح واحد من العارفين بالأمور صديقه كرين بأن يتخذ من التصوير الفوتوغرافى هواية له، فلن يكون لديه ما يفعله فى بكين، والحاصل أن كرين لم يذهب- فى نهاية المطاف- إلى الصين؛ إذ تراجع الرئيس تافت عن التعيين؛ أولاً لأن وزارة الخارجية الأمريكية حتى بمعايير ١٩٠٩ كانت ترى فى كرين شخصًا مشاغبًا ومشغولاً؛ وثانيًا لأن الرئيس تافت نفسه صُدم إزاء الكراهية السافرة التى كان كرين يضمرها بالنسبة إلى « اليابانيين واليهود»؛ مما جعله يخلص إلى أن تعيين كرين سيكون «تعيينًا خطرًا».

ولم يَفُتَّ هذا فى عضد كرين، بل أصبح أكبر متبرع فى الحملة الانتخابية للرئيس ودرو ويلسن سنة ١٩١٢؛ من ثم أصبح من أقرب أصدقاء الرئيس (سيكون أيضًا من حملة نعش الرئيس ويلسن فى جنازته). ولقد كان ويلسن يلتمس آراء كرين بشأن روسيا وكان صاحبنا يقدمها بحرية تامة. كان كرين يشعر بأن الروس شعب برىء تمامًا من الوحشية، ومن ثم فالبولشفيك (الشيوعيون) جماعة لا سبيل إلى أخذهم على محمل الجد.

ولأن هؤلاء القوم (يعنى يهود أمريكا) يسيطرون على الصحافة وأجهزة التعبير عن الرأى العام؛ فإن أمريكا لا تحصل على صورة دقيقة لما يحدث فى روسيا، فى واقع الأمر فإن كرين، كما أوضح كاتب سيرته لم يكن لديه اهتمام حقيقى قط بالسياسة فى روسيا التى كانت بالنسبة إليه انحرافًا مرهقًا عن شغفه الشديد بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية، والقطع الفنية التى أبدعتها والتى كان عاكفًا على جمعها.

عرض ويلسن على كرين منصب السفير لدى روسيا، وهو ما اعتذر عنه كرين؛ إذ كان اهتمامه قد تحول إلى محنة الأرمن فى آسيا الصغرى؛ حيث أصبح مشاركًا مع كليفلاند دودج والد بايارد والمبشرين المجمعيين فى تمويل وتنظيم جهود الإغاثة ؛ ثم انضم كرين إلى مجلس أمناء كلية روبرت فى القسطنطينية (إسطنبول) وهى معهد أنشأه المبشرون قبيل سنوات من إنشاء الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية). وقد انغمس كرين فى شئون الشرق الأوسط فى الوقت نفسه الذى كانت المنطقة تشهد فيه المعاناة الإنسانية الكبرى؛ فيما كانت مؤامرات البريطانيين والفرنسيين قد بدأت فى تخريب أهداف الرئيس ويلسن فى تقرير المصير لأهل سوريا الكبرى وغيرهم. وكان من الطبيعى أن يتبنى كرين نفس كراهية المبشرين للبريطانيين والفرنسيين، ومن ثم كان طبيعيًا أن تنمو لديه عاطفة من المحبة للعرب وثقافتهم من النوع الذى كان قد وقر لديه بالنسبة إلى الروس والصينيين من قبل (*).

(*) ربما كانت هذه المحبة للعرب وثقافتهم سببًا فيما لقيه كرين وسيرته من تحامل من المؤلف والمؤرخين الأمريكيين «المترجم».

فى عام ١٩١٩؛ أوفد الرئيس ويلسن صديقه كرين رئيسًا للجنة أمريكية، تتولى توثيق ما يريده أهل سوريا الكبرى أنفسهم فى مجال السلام. وفى رسالة بعث بها إلى زوجته كورنيليا، لاحظ كرين أن ثمة «شعورًا واضحًا» بين صفوف العرب الذين التقى معهم بتهديد من جانب اليهود المحدثين والمتطفلين. وفى واقع الأمر؛ فإن لجنة كينج - كرين أوصت بالتخلى عن فكرة إيجاد وطن قومى يهودى؛ وبأن تفرض قيودًا صارمة على الهجرة اليهودية وأن تصبح فلسطين جزءًا من دولة سوريا يتم حكمها تحت انتداب أمريكى أو بريطاني، دون أن يكون للفرنسيين دور فى أى حال. ولقد دفع كرين، مثل تشامبرز - المبشر المقيم فى آسيا الصغرى- بألا تعود أمريكا إلى أسوار العزلة السابقة بل وتستخدم قوتها لخير السكان من أبناء منطقة الشرق الأوسط.

لكن هذا لم يحدث؛ ففرنسا وإنجلترا قسمتا سوريا، أما أمريكا التى كانت قد بعثت شبابها ليقاتلوا ويموتوا فى أوروبا؛ فلم يقدِّر لها سوى أن تشهد سلامًا يائسًا ينبثق عن الانتصار الذى تحقق؛ ثم تجد تجربتها الأولية بوصفها رجل الشرطة فى العالم تجربة كئيبة بكل معنى، ومن ثم سارعت بالانسحاب إلى داخل ذاتها مرة أخرى، وسرعان ما أدى زئير الأطلسى إلى إخماد صيحات الحرية فى الشرق الأوسط والبلقان بعد أن استطاع- لمدة وجيزة من الزمن - الاستئثار باهتمام الرأى العام.

هذا الوضع ترك كرين وأصدقاءه المبشرين وهم فى غاية الإحباط؛ لكن شغف كرين بالعرب لم يكن ليفارقه، فقد بدأ دراسة شخصية للتراث

والحضارة الإسلامية، مما أخذه فى نهاية المطاف إلى أسفار فى الهند وجاوه، ثم واصل جمع القطع الفنية ليودعها فى بيته.

هذا التعاطف من جانبه لم يكن سرًا؛ فقد اجتذب يومًا فى دمشق حشدًا من مئات العرب المرحبين الذين دعوه إلى مسجدهم وهم يهتفون «عاشت سوريا مستقلة»، ولقد ظلت شخصية كرين تُرى باستمرار فى الشرق الأوسط بقبعته السوداء ولحيته البيضاء وإطلالته التى تجمع بين العطف والكبرياء. أصبح واحدًا من أوائل الأمريكيين الذين قدر لهم أن يخترقوا أبواب صنعاء التى كانت تنتمى للعصور الوسطى فى اليمن؛ حيث أصبح صديقًا للإمام ووافق على تمويل أول عملية للتنقيب عن النفط هناك. وعمل كرين أيضًا مع جاك فيلبى لمساعدة الملك عبد العزيز آل سعود، وهو صديق آخر لكرين، لبدء عمليات التنقيب عن النفط فى المملكة العربية السعودية.

يكتب مؤلف سيرته فيقول:«أبرز تحيز كان يسيطر على فكر كرين خلال سنواته الأخيرة تجسد فى بغضه غير المحدود لليهود؛ إذ حاول كرين إقناع الرئيس فرانكلين روزفلت – وكان قد انتخب حديثًا – برفض مشورات فيلكس فرانكفورتر يتحاشى تعيين يهود آخرين فى مناصب حكومية وكان كرين يتصور بأن ثمة محاولة على مستوى العالم يقوم بها اليهود لتشويه حياة الأديان كلها. وشعر بأن إحباط هذه المخططات لن يكون من القوة بمكان إلا من خلال ائتلاف بين المسلمين والروم والكاثوليك. وفى عام ١٩٣٣ اقترح كرين– بالفعل– على الحاج أمين الحسينى مفتى القدس أن يبدأ المفتى محادثات مع الفاتيكان لتخطيط حملة مناهضة لليهود.

أدى هذا إلى أن وقر لدى كرين إعجاب شديد بأدولف هتلر.. إذ رأى - كرين - أن ألمانيا فى عهده أصبحت «الحصن السياسى الحقيقى للثقافة المسيحية». من ثم كان من السهل أن يحظى بمقابلة الفوهرر - كما سبق له - بالنسبة إلى قيصر روسيا. وقد تيسر ذلك بحكم معتقدات رجل مثل كرين والوسائل المالية التى كان ينعم بها. وجد هتلر وكرين أنهما يتشاركان فى كراهية البريطانيين والفرنسيين وكذلك اليهود. وآخر رسالة لكرين عن الشئون العالمية قبل موته؛ كانت إلى هتلر يوجه فيها اللوم لليهود على المشكلات التى نجمت فى الشرق الأوسط. فى ذلك الوقت كان كرين - على الرغم من كراهيته للبولشفيك - قد أعلن عن مساندته لعمليات التطهير التى قام بها ستالين ضد اليهود فى روسيا السوفيتية.

وقد يلحظ القارئ أن جورج أنطونيوس قد أهدى كتابه «اليقظة العربية» إلى تشارلس ر. كرين، الذى يكنى - بحق - باسم هارون الرشيد مع المودة، كان كرين شخصية محببة بين كوكبة من المثقفين العرب، مسيحيين ومسلمين على السواء، ومنهم أنطونيوس نفسه الذى كان قد عمل بين حين وآخر مترجمًا لكرين. وفى واقع الأمر، فقد كان أنطونيوس الكبير «اليقظة العربية» هو الذى قدم للمرة الأولى وجهة نظر العالم العربى الحديث إلى العالم الأدبى فى الغرب وقام كرين بتمويله. إن تشارلس كرين لم يخدع العرب، لكنه فعلها دون قصد منه عندما أعطى أنطونيوس وغيره من المثقفين العرب الانطباع الخاطئ بأن معظم الأمريكيين يشاركونه حبه الرومانسى للعرب مقرونًا ببغض عاطفى متساوٍ لليهود. لم يكن الأمر

بالتأكيد على هذه الحال فيما بين الأمريكيين بعامة، ولا كان على هذه الحال تمامًا بين صفوف جالية المغتربين الأمريكيين فى بلاد الشام.

كانت الضغوط التى يعانيها هوارد بليس فى إدارة الكلية البروتستانتية السورية تحت الاحتلال التركى وبعد ذلك ضغوط الدفاع عن قضية العرب فى مؤتمر الصلح فى فرساى أكثر مما تحتمله قواه، وقد عاد من أمريكا فى عام ١٩١٩ بعد علاج طبي، وتوفى بعد ذلك بوقت قصير جراء السل فى منطقة ساراناك ليك- نيوريورك، وسط أفراد عائلته. وقبيل ساعات من وفاته كان قد تكلم مطولاً باللغة العربية، لغة بلاد الشام التى شهدت مسقط رأسه. وكان قد سمع العربية أولاً وهو طفل، إذ إن والده دانييل بليس كان يتحدث بها إلى والدته؛ كى تتعلم هذه اللغة بوتيرة أسرع.

فى السنة ذاتها؛ غيرت الكلية البروتستانتية السورية اسمها رسميًا لتصبح الجامعة الأمريكية فى بيروت، وبعد سنتين من البحث قام مجلس إدارة الجامعة بتعيين بايارد دودج البالغ من العمر ٣٤ سنة، بوصفه أول رئيس للمؤسسة التى حملت الاسم الجديد. وقد يبدو للناظر إلى الأمور من الخارج أن هذا الاختيار حمل فى طياته قدرًا من المحسوبية، فلم يكن بايارد بدودج بمثابة حفيد فقط لأول رئيس لمجلس أمناء الكلية؛ ولكنه أيضًا كان زوج مارى بليس، ابنة هوارد بليس ذاته وحفيدة دانييل بليس. لكن الاختيار- فى واقع الأمر- جاء طبيعيًا بل وملهمًا، وبحلول عام ١٩٢٢ كان دودج الشاب من العناصر المخضرمة شديدة المراس فى بيروت؛ حيث أثبت مواهبه القيادية فى أعمال الإغاثة وقت الحرب... وفضلاً عن

ذلك، ومع أن مواهبه الأخرى كانت ستتبدى مع مرور الزمن؛ فإنه كان نابغًا فى فن الحلول الوسط على نحو شديد البراعة، وفى قدراته لمسايرة الظروف السياسية التى لم تكن بالضرورة ودية إزاء الأمريكيين، وفى ظل بايارد دودج، تصل الجامعة الأمريكية فى بيروت، بل وتصل حركة الاستعراب من المبشرين الأمريكيين لآخر مرحلة إنجاز صادق وصاف قبل أن يتغشى سجلها تحديات معنوية وسياسية صاحبت مولد إسرائيل.

وعلى غرار صديق والده تشارلس كرين، لم يكن بايارد دودج من العناصر المتطرفة أو من الشخصيات الهازلة، فى حالة دودج تمثلت وتشابكت كل عوامل الحرفة بصورة صحية فى غالب الأمر؛ فقد كان قد نشأ نشأة طيبة وتلقى تعليمًا رفيعًا فى برنستون ودير اللاهوت المتحد، يكاد يتفجر بنوع من المثالية الدينية العملية، كان مفكرًا شغوفًا بالجماليات الثقافية والعمرانية فى الثقافة العربية. موقف دودج تجاه دور الجامعة الأمريكية فى بيروت فى بلاد الشام فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى؛ تلخصه هذه الكلمات التى لا تختلف كثيرًا فى معناها عن تلك التى سبق أن أدلى بها دانييل بليس فى عام ١٨٧١، وكان ذلك عند وضع حجر الأساس لمبنى حرم الجامعة.

«نحن حريصون على أن نعلم طلابنا أن ينظروا إلى القيم والمثل التى يعتنقها آباؤهم بكل مودة وتعاطف، وعلى أن نكرم كل الذين يتحملون الواجبات الرسمية فى إطار الطوائف التى ينتمون إليها، وأن نحترم دوافع كل الشعائر والفعاليات، وأن نوقر أماكن العبادة الأصيلة؛ ولكننا-

فى الوقت نفسه - حريصون على العمل جاهدين؛ لكى نبث الحياة فى هذا كله، فى ضوء حياتنا الحديثة، حيث يصبح الدين قوة عملية وحقيقية فى بعث الروح الإنسانية وفى إعادة بناء العالم بعد أن مزقته الحرب».

ولكن دودج كان يشعر فوق هذا كله بأن الجامعة الأمريكية « تشكل صلة بين الشرق والغرب، وأنها قناة لتبادل الأفكار بين الطرفين» وكان على استعداد تمامًا لأن يتنازل عن درجة من المضاهاة بين ما استطاعت أمريكا تحقيقه معنويًا وروحيًا لشعبها وبين ما استطاع عرب الشام تحقيقه، ولأن سوريا الكبرى على الرغم مما فعله بها الاستعمارين البريطانى والفرنسي، لا تزال موقعًا حافلاً بالإمكانات؛ حيث يستطيع أى امرئ عاقل الشعور بالتفاؤل بالمستقبل؛ فإن التوجه الثقافى لدودج لم يكن ليثير أى استغراب فى ذلك الحين.

فى ظل بايارد دودج؛ أصبحت الجامعة الأمريكية فى بيروت بالمعنى السياسى والثقافى أكثر نفوذًا من الحكومات البريطانية أو الفرنسية فى الشرق الأوسط، وكان ذلك إنجازًا مرموقًا بكل معنى فى ضوء ما عمدت إليه الحكومة الأمريكية من تراجع من المنطقة وفى ضوء غياب أى وجود حقيقى أمريكى يعتد به بعد ذلك عاودت الجامعة الأمريكية فى بيروت فى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية تشكيل شخصية لها مستقلة عن أصولها الأمريكية ذاتها.

ومن أول الأعمال التى قام بها دودج بوصفه رئيسًا للجامعة؛ أنه أمر بتعيين مدرسين دون النظر إلى جنسيتهم؛ مما جاء بأساتذة عرب

وأوروبيين إلى هيئة الجامعة؛ فيما كانت جامعة القديس يوسف الفرنسية فى بيروت الشرقية المسيحية مقتصرة على الجزويت الذين كانوا يبثون فى تلاميذهم روح الولاء لفرنسا، ولذا فإن جامعة دودج الأمريكية فى بيروت الغربية المسلمة كانت- بصورة ما - مميزة دولية فى لهجتها ومتعاطفة مع القومية العربية(*) ولقد انطلق نمو الجامعة الأمريكية فى بيروت فى فترة ما بين الحربين بفعل المنح التى تلقتها من مؤسسة روكفلر والتى رتب لها دودج وبدأ تدفقها فى عام ١٩٢٤. وقد توجه كثير من هذه الأموال إلى مؤسسات التعليم الطبى التى- أنتجت ولا تزال- أكثر مما تمس الحاجة إليه بالنسبة إلى رجل الشارع العربى وهم الأطباء المدربون؛ ومن ثم ارتفعت سمعة الجامعة الأمريكية فى المنطقة.

ويقول الأستاذ جون دينوفو: «إن نفوذ الجامعة تخللت كل بلدان المنطقة وما حولها، ويشهد بذلك الموقف الودى الذى اتخذته حيالها الطبقات العليا من العرب؛ حيث زاد الاحترام الذى استأثرت به الجامعة، ولقد عمدت الحكومات فى سوريا والعراق وفى شرق الأردن وفلسطين

(*) هذا فيما كانت الكلية الدولية الأمريكية فى أزمير قد وجدت أن المناخ الوطنى فى جمهورية مصطفى كمال أتاتورك التركية لا يرحب بها لدرجة أن باعت ممتلكاتها وأصبحت منتسبة إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت، كانت أزمير لؤلؤة منطقة «الليفانت» فى آسيا الصغرى، حيث كان سكانها من اليونانيين قد قدموا دعمهم إلى أوائل المبشرين الأمريكيين ومنهم بلينى فيسك وليفى بارسونز، على أن الأمريكيين الذين كانوا يشعرون بالاستياء تجاه تركيا بسبب مذبحة الأرمن التى وقعت حديثًا ، وبحكم تصرفات السلطات التركية فى سوريا الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى، لم يكونوا يتوقعون وهم فى بيروت بأن القومية العربية إذا ما وضعت فى حيز الممارسة قد تصبح بالصعوبة نفسها فى التعامل معها على قدر الصعوبة التى أثبتتها القومية التركية .

وفى العربية السعودية والسودان... وغيرها من مواقع الوطن العربى إلى إرسال أنبغ طلابها إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت التى زودت تلك الأقطار البازغة بالصيادلة والعاملين فى مهن التمريض والمحاسبة والسكرتارية وغيرها، فضلاً عن الأطباء.

وفى كل أنحاء الشرق الأوسط، كانت الجامعة الأمريكية فى بيروت تحت قيادة بايارد دودج؛ قد أصبحت تعرف - على سبيل المودة- بوصفها «ملكة الشرق العظمى» وقد وصف مؤرخ هارفارد الكبير جورج سارتون تلك الجامعة بقوله: إنها عمل تفريخ أفضل الرجال ومؤسسة دائمة للخير وحسن النوايا».

على أن السؤال هو: إلى أى حد يمكن أن يكون هذا صحيحًا إذا ما قسناه على أساس الذكرى الموجعة لرحلة لفريق الكرة التابع للجامعة التى قام بها إلى مصر فى عام ١٩٣٠ ؛ ووصفها ستيفن بنروز فى كتابه بعنوان «فى سبيل الحياة» : لقد استقل فريق الجامعة الأمريكية فى بيروت القطار إلى القاهرة، ولأن عطلة الربيع كانت قد بدأت، فقد انضم إلى الفريق بعض الطلبة فى فلسطين ، « كانت عربة القطار أشبه ببرج بابل حيث كنت تسمع الألسنة تنطق بالعربية والإنجليزية والعبرية والفرنسية..» وإلى الجنوب من حيفا كان ثمة قلق يساور كل فرد: هل سيلحق كوهين بالقطار؟ وكان كوهين هو نجم الجناح الأيمن للفريق ويعيش فى تل أبيب على مسافة من خط القطار، وكان محتملاً أن تفوته الوصلة بين القطارين، ولذلك فعندما وقف القطار عند ملتقى الخطوط زاد التوتر؛ لكن كوهين كان هناك ولعل الصيحات التى تصاعدت وقتها أزعجت سكان البلد الطيبين فرفعوه على الأعناق وأدخلوه إلى القطار من النافذة وكان الفرح غامرًا، فها هى ذى الجامعة الأمريكية لبيروت تستطيع أن تهزم المصريين».

« فى ذلك الوقت؛ كانت المشاعر العربية اليهودية قد وصلت إلى مرحلة من الخشونة ؛ لكن كوهين لم يكن بالنسبة إلى للعرب فتى يهوديًا بل كان عضوًا فى فريق، وقبل وصول القطار إلى مرحلة القنطرة شرق؛ شوهد نائمًا فى القطار وقد أسند رأسه على حجر دارس من الطلاب المسلمين».

لم يكن وجود اليهود أمرًا غريبًا فى الجامعة الأمريكية فى بيروت فى عقد الثلاثينيات، لقد كان أوركسترا تل أبيب السيمفونى ما يفتأ يقدم حفلاته فى حرم الجامعة، وكانت الموسيقى فى القداس اليومى أمرًا يتذكره- بكل قوة- منذ أيام الصبا الدبلوماسى الأمريكى تالكوت ستيل؛ حيث كان يقودها عازف الأورغن وهو يهودى روسي.

بل إن تجارة البرتقال الإسرائيلية تدين بدايتها - فى مرحلة ما قبل قيام الدولة فى فلسطين- إلى مساعدة قدمها خريجو الجامعة الأمريكية فى بيروت، وعلى الرغم من أن نمو الجامعة العبرية فى القدس كان يعنى تنافسًا مع الجامعة الأمريكية فى بيروت فإنه كان- فيما يظن- من النوع الودى أكثر مما كان يمثله التنافس مع الجامعة الفرنسية - جامعة القديس يوسف فى الناحية الأخرى من المدينة اللبنانية.

هنا كانت قيم أمريكا، وبالذات قيم منطقة نيو إنجلاند بكل مجدها، وهنا عبر المحيط الأطلنطى فى بلدة دير فيلد بولاية ماساشوسيتس، كان ثمة مجمعى آخر هو (فرانك بودين) يعلم تلاميذه فى أكاديمية دير فيلد أن المعهد الذى ينتمون إليه كان أكبر منهم ذاتهم؛ بمعنى أنه يمثل كونًا روحيًا وأخلاقيًا على أعلى مستوى يفوق المجتمع ككل، ومن ثم يمكن أن يكون قوة موحدة للعناصر القاطبة، وما كان يدرسه فرانك بودين وهو واحد

من عظماء مديرى المدارس فى التاريخ، كان يفعله بايارد دودج بطريقته الخاصة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت. من هنا كان بوسع الفتى كوهين أن يسند رأسه إلى حجر شيخ مسلم؛ إذ كان كل منهما يعرف أنه بوصفه تلميذًا بالجامعة الأمريكية فهو عضو فى صفوة حقيقية بمعنى الكلمة، ولو كان للمرء الوقوف عند لحظة فى أوج حياة المبشرين مما لا يمكن قياسه كميًا؛ فإنها - تلك اللحظة - فى القطار إلى مصر؛ حيث اليهود والمسلمون (*) تربطهم وحدة روح الفريق على الطريقة الأمريكية على الرغم من الشبح الجاثم على بُعد أميال قليلة من الصراع والاضطراب بين الجاليات والطوائف.

على أن نمو وإنجازات الجامعة الأمريكية لم يأت بسهولة، فالمعاهدات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى التى أعطت لفرنسا الانتداب على سوريا؛ كانت أسوأ أنباء يمكن أن تتلقاها جالية المغتربين الأمريكيين الذين كان عداؤهم للفرنسيين سافرًا وشديدًا، كما استبد بهم الرعب وهم يرون سوريا الكبرى - الغالية عليهم - وقد قطعت أوصالها إلى ست قطع لصالح البريطانيين والفرنسيين، ثم ها هم الأمريكيون يتعين عليهم معايشة الفرنسيين الذين عمدوا إلى اتباع أساليب التآمر والوحشية من أجل المزيد من تجزئة الغنيمة المتبقية فى أيديهم.

(*) بالطبع فى تلك الفترة ، ثلاثينيات القرن. لم يكن هنا كيان اسمه إسرائيل «المترجم» .

أما الفرنسيون الذين كانت تجربتهم الاستعمارية ما زالت حية فى الأذهان فى الجزائر وتونس؛ فكانوا قد أشعلوا نيران بغضائهم إزاء القومية العربية السنية وقصدوا- عمدًا - إثارة الولاءات الطائفية ؛ كى يحولوا دون قيام شوكة هذه القومية فى سوريا الكبرى؛ من ثم أعطوا استقلالاً ذاتيًا إلى المواقع الجبلية فى جبل الدروز واللاذقية؛ حيث يعيش الدروز والعلويون، وجعلوا هذه النحل الإسلامية الباطنية مسئولة فقط أمام سلطات الانتداب وليس أمام الحكومات السنية فى دمشق.

بالإضافة إلى ذلك، فإن العلويين والدروز وسائر الأقليات كانوا يدفعون ضرائب أقل نسبيًا مما تعين أن تدفعه الأغلبية السنية؛ بينما كانوا يحصلون- على معونات إنمائية أكبر من الحكومة الفرنسية، وشجع الفرنسيون - أيضًا- تجنيد أبناء الأقليات فى جيوش احتلالهم التى سميت بالقوات الخاصة فى سوريا، أما الأغلبية السنية العربية من جانبها؛ فكانت فى حال من القمع الشديد؛ فمنطقة دمشق كانت تعامل بوصفها منطقة احتلال تجول فيها دوريات السنغاليين شديدة المراس، يساعدها فى ذلك العلويون والدروز والأكراد، أما السنيون وأصدقاؤهم الأمريكيون أيضًا فكانوا يتصورون أنفسهم- من جانبهم- وكأنهم تحت الاحتلال، كأنما لم يغادر الأتراك الساحة، خاصة لأن الفرنسيين كانوا قد أنشأوا دولة مستقلة فى منطقة لبنان، وكان ذلك عملاً زاد من تجزئة سوريا الكبرى، ووضع المزيد من السلطة والنفوذ فى يد الموارنة الذين كانوا موالين للفرنسيين ومعادين للبروتستانت.

عمد دودج بحكمة إلى تجاهل هذا كله؛ ففى الطريق إلى بيروت كى يتسلم رسميًا رئاسة الجامعة الأمريكية فى بيروت، توقف طويلاً فى

باريس كى يرفع لغته الفرنسية إلى مستوى قدرته فى اللغة العربية، وبعد ذلك وعلى مدى ما يقرب من عقدين من الزمن حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، حاول دودج التقرب من المسئولين الفرنسيين، بالضبط كما سبق أن حاول حموه، هوارد بليس الراحل، التقرب من الأتراك العثمانيين؛ ففى عام ١٩٤٠ عندما استولت حكومة فيشى الفرنسية على سوريا، كان دودج واحدًا من قلة من الأمريكان أو البريطانيين الذين بقوا فى بيروت خلال الاحتلال المؤيد للنازى؛ حتى تبقى الجامعة الأمريكية فى بيروت فاتحة أبوابها. وبعد سنة من ذلك التاريخ، قامت قوات الحلفاء فى يوليو ١٩٤١؛ بتحرير المدينة وتوقف شارل ديجول- قائد فرنسا الحرة- فى مسكن دودج لحضور حفلة شاى (*) .

وكما كانت الحال مع دانييل وهوارد بليس، لم يكن كل شىء ينقصه الكمال فيما يبدو بالنسبة إلى بايارد دودج كان شأنه شأن أخيه التوءم كليفلاند.... طويل القامة، أشقر، خشن الملامح، صافى النظرات، وكما كانت حال صديق أبيه، تشارلز كرين، كان هناك بين جوانحه ذلك الضوء

(*) مع ذلك فبالنسبة إلى عائلة دودج لم تكن الحرب العالمية الثانية قد انتهت . ففى ٢٢ نوفمبر ١٩٤٤ قتل بايارد الابن - وهو أحد أولاد دودج - فى معركة ضد النازية فى فرنسا بعد أن ضحى بنفسه كى ينجو الفصيل الذى كان ينتمى إليه. وقد منح بايارد هذا بعد وفاته وسام القلب الأحمر والنجمة الفضية، وبعد قراءة البرقية التى أبلغته بوفاة ابنه، عاد دودج إلى مقعده فى حفل عشاء فى بيروت ولم يبلغ زوجته بالأنباء حتى صباح اليوم التالى عندما أصبح قادرًا على أخذها فى جولة ليوم بالجبال. كان الانضباط وروح الصبر على المكاره من خصائص العائلة الواضحة تمامًا .

الداخلى الذى تخيم عليه السكينة فضلاً عن ذلك المزيج من الطيبة والكبرياء؛ وكأنما يدل على حياة من النشاط الهادف فى ميدان اختاره بنفسه، إذ إن روح الاستقلالية ووفرة الثروة ورفعة التعليم.. كل هذا صرف عنه الحاجة لأى أنصاف حلول يصعب خيارها. إن ما كان يجهد هؤلاء البشر ويساورهم القلق بشأنه كان مقتصرًا على كبريات الأمور وعظمائها.

كما سعد دودج بدراسته للعربية والديانة الإسلامية التى استغرقت حياته كلها؛ كان يكرس ساعات طوال للنقاش حول القرآن باللغة العربية مع العرب. منير سعادة، الذى كان مدرسًا بإحدى ثانويات بيروت، يقول عن دودج: «إنه انغمس فى تاريخ العرب، لدرجة أنه أدرك أن ثمة أشياء عظيمة سوف تأتى من هذا الجزء من العالم، وأراد أن يكون- بدوره- جزءًا منها بالطريقة نفسها التى أراد بها أن تكون الجامعة الأمريكية جزءًا من يقظة الشرق الأوسط».

شب كل من آرثر كلوز وبيل ستولفوز عن الطوق فى بيروت فى الفترة التى كان فيها بايارد دودج رئيسًا للجامعة الأمريكية هناك. ولد كلوز فى بيروت عام ١٩٢٥ ، سنة بعد ستولفوز، الذى كان صديق صباه. عائلة كلوز كانت فى سوريا منذ سنة ١٨٥١؛ عندما كان جده الأعلى لأبيه «وليم وود بريدج إيدي»- وهو قسيس شاب من الكنيسة المشيخية- قد أبحر إلى ميناء بيروت بعد تخرجه مباشرة فى كلية ويليامز، وقد كرس «إيدى» حياته للعمل التبشيرى وكتابة تعليقات على العهد الجديد باللغة العربية. أما ابنه «ويليام كينج إيدى»، وهو جد كلوز؛ فقد أمضى كل حياته فى سوريا باستثناء سنوات أربع أمضاها فى جامعة برنستون.

وكما يقول كلوز نفسه؛ فإن جده: تبنى العادات العربية التى تفضل الأبناء على البنات مما جعل الحياة صعبة لابنته وهى بالصدفة أمى شخصيًا».

جدة كلوز، إليزابيث نيلز نيلسون كانت ابنة القس هنرى نيلسون، الذى كان واعظًا فى قداس جنازة الرئيس الأمريكى أبراهام لنكولن فى موطن الرئيس نفسه فى سبرنجفيلد بولاية ألينوي، أما والدة كلوز ، دررا إليزابيث إيدى فكانت مثل بنات هذه العائلة شديدة التميز قد أمضت حياتها فى أعمال تبشيرية فى سوريا. وينبغى فى هذا المقام أن يرد أيضًا ذكر خال كلوز (ويليا ألفريد إيدى) ؛ وكان نجما فى مكتب الخدمات الاستراتيجية (وهو الذى تولدت عنه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) خلال الحرب العالمية الثانية وقد واصل طريقه ليصبح الوزير المفوض الأمريكى لدى العربية السعودية وهو الذى تولى الترجمة للرئيس فرانكلين روزفلت خلال اجتماعه مع الملك عبد العزيز آل سعود فى عام ١٩٤٥.

يقـول كـروز: «كانت أمى تتحـدث العربيـة بطلاقة، عشنـا فى الجزء المسلـم من بيـروت وكانت علاقاتنا طيبـة مع المسلمين والـدروز والروم الأرثوذكس بأكثـر مما كانت مـع الموارنة. ولقـد نشأنا فـى بيئة متحيزة ضـد الكاثوليـك ؛ لأن الفرنسين كانوا يحابون الموارنـة، وكانت المدارس الكاثوليكيـة تتنافس مع جامعـة بيروت الأمريكيـة...... وهكذا فأنت ترى أن الجامعـة كانـت مهد القوميـة العربية المناهضـة للفرنسيين. وأما نحن (الأمريكيـون)؛ فكنا سعداء من موقعنا بوصفنـا الطيبين الذين لا مصلحة

لهم فى هذا الجانب أو ذاك. عائلتى كانت إنجليزية النزعة ومؤيدة للبريطانيين ولتقرير مصير العرب، لا سيما مبادئ لجنة كينج - كرين التى أيدت قيام دولة عربية فى فلسطين».

«أما الموارنة فكانوا فى غاية الغرور».... هكذا يضيف ستولفوز ويقول: «كانوا جبليين فى غاية من صعوبة المراس، يعرفون فن تحجيم الآخرين. وحتى الآن؛ فإن المسلمين فى لبنان لا ينعمون بنصيب كامل من العدالة، أما الموارنة فهم نبت مصطنع؛ باعتبار أنهم لم يعبروا أنفسهم عربًا بل من سلالة فينيقية».

انتهت أيام الصبا السورية لكل من كروز وستولفوز عند اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ عندما عاد الكثير من العائلات المغتربة إلى الساحل الشرقى للولايات المتحدة. هذا هو الوقت الذى جعل كلوز وستولفوز وتالكوت سيل وابنا بايارد دودج (ديفيد وبايارد الأصغر) وغيرهم من الفتيان «البيارتة» يرسلون إلى أكاديمية دير فيلد لتلقى تعليمهم الثانوى قبل الالتحاق بجامعة برنستون (أو أمهرست فى حالة سيل).

ولم يكن ثمة مكان أفضل بالنسبة إلى صبى فى مرحلة المراهقة ليقضى أربع سنوات فى أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات فى دير فيلد الواقعة فى مغانى الرعاة فى غربى ماساشوسيتس. وأدى هذا المزيج بين بيروت الاغتراب وبين أكاديمية دير فيلد؛ إلى أن أصبح هؤلاء الصبية يتمتعون بعقلية رفيعة ومناقب فاضلة إلى حد يقرب من الكمال؛ لكن أمريكا التى قدم إليها هؤلاء الصبية فى دير فيلد لم تكن أقل من أمريكا

التى انتمى إليها مغتربو بيروت.. كان دير فيلد امتدادًا لكل ما هو طيب فى عالم البروتستانت البيض. وكانت الثلاثينيات والأربعينيات -بحق- أفضل فترة فى دير فيلد؛ عندما كان ثلاثة أرباع تلاميذها يأتون من مدارس إعدادية خاصة، وهنا نستذكر عبارة جانيت ستولفوز: «فى برنستون وفى ول سليب فى المدارس الإعدادية كنا نذهب لا نكاد نصادف أى يهودى فى يوم من الأيام. كانت تلك أمريكا المختلفة حينذاك».

عشية قيام الحرب العالمية الثانية، كانت الجالية الأمريكية فى الشرق الأوسط قد وصلت إلى أوج وجودها. كان هناك ثلاث مدارس أمريكية للبنات فى لبنان وحده. وإلى جانب الجامعة الأمريكية فى بيروت والجامعة الأمريكية فى القاهرة التى كانت قد فتحت أبوابها فى عام ١٩٢٠ ورأسها تشارلس واطسن الذى ترجع جذوره فى التبشير البروتستانتى فى مصر إلى عام ١٨٦١؛ فقد افتتحت شعبة لإعداد المعلمين ودائرة خدمة ريفية ومدرسة للدراسات الشرقية ملحقة بالجامعة الرئيسية.. كل هذا أدى إلى أن أصبحت الجامعة الأمريكية فى القاهرة - سريعًا - محور النشاط التبشيرى الأمريكى فى مصر تمامًا كما كانت كذلك الجامعة الأمريكية فى سوريا الكبرى، وتماثلت الجامعتان فى اجتذاب أبناء المؤسسة الحاكمة فى مصر؛ فأصبحت حاضنة الوطنية المصرية، تمامًا كما كانت الجامعة الأمريكية فى بيروت حاضنة القومية العربية.

لكن مع رجفة الحرب التى عادت لتجتاح أوروبا من جديد، عمد بايارد كينج إلى إبلاغ مجلس أمناء الجامعة الأمريكية فى بيروت بأن الشرق

الأوسط وصل إلى ختام حقبة من عمره، وحتى وعلى الرغم من دور أمريكا فى العالم العربى الذى كان- إلى حد كبير- أفضل من دور فرنسا أو إنجلترا من حيث أعمال الخير؛ فقد أشار دودج إلى أن التوترات التى حلت جراء القومية العربية سوف تشعر بها أمريكا بدورها. أما الجامعة الأمريكية فى بيروت؛ ومن ثم مجمل الجالية من الوافدين الأمريكيين فى العالم العربى فقد ظلوا فى حال من الازدهار خلال الحرب العالمية الثانية لأنها استطاعت تقديم خدمات أساسية فى مجالى التعليم والرعاية الاجتماعية مع ابتعادها عن السياسة، كان الوافدون يسايرون الاتجاه العام للرأى المحلى واستطاعوا مسايرة القوى التى كانت تعد نفسها على مسرح الأحداث. ولم تكن لديهم حاجة للاعتذار عن الإجراءات التى تتخذها حكومتهم؛ لأن واشنطن لم تكن تمارس نشاطًا فى المنطقة على نحو ما كان الأوروبيون يفعلون.

وفى حقيقة الأمر، فإن دودج وغيره من الوافدين على المنطقة أرادوا وجودًا حكوميًّا أمريكيًّا أكثر بروزًا؛ لكى يتنافس مع وجود الفرنسيين والبريطانيين. كانوا لا يزالون يأملون بل ويتصورون أنه عندما تجعل واشنطن وجودها محسوسًا فى الشرق الأوسط؛ فإنها ستفعل ذلك بما يعزز علاقاتها الخاصة مع العرب دون تعقيد تلك العلاقات. لكن الذى حدث- بطبيعة الحال- سيكون أمرًا قاسيًا بل وسيكون مثل «الكوميديا الإلهية».

ثمة حركة أخرى كانت ليبرالية بدورها وكان لها قصدها السليم، وكانت ذات طابع إنسانى كذلك؛ لكنها كانت مدفوعة بمأساة بشرية من نوع وأبعاد سحقت أمامها حتى منطق إنجيل البروتستانت، وقدر لها الانفجار فوق رءوس هؤلاء الأمريكيين المغتربين فتؤدى إلى شعورهم بالمرارة والإحباط.

فى عام ١٩٤٨، تقاعد بايارد دودج - وكان فى سن الستين - إلى برنستون، نيوجيرسي، وقد نشر دودج فى أبريل من ذلك العام مقالاً فى مجلة «ريدرز دايجست»- (المختار) عن أزمة فلسطين بعنوان «هل ينبغى أن تنشب الحرب فى الشرق الأوسط؟» هذا المقال الذى تألف من ستة آلاف كلمة وأصبح منسيًا ولا يكاد يعرفه أحد؛ هو البيان التعريفى للمستعربين الأمريكيين بشأن مولد إسرائيل. وعلى الرغم من أن كاتبها حذر بقوله: «ليس كل اليهود صهاينة وليس كل الصهاينة متطرفين» ؛ فإن الحركة الصهوينية فى نظر دودج كانت مأساة لا تكاد تبشر بخير.

لم يكن دودج معاديًا للسامية، بل كان يلوم رفاقه المسيحيين على التصرف بطريقة تجعل إحساس اليهود «باللا وطن إحساسًا أكثر حدة».. وفى واقع الأمر؛ فإن محررى مجلة «دايجست» قدموا دودج بوصفه «صديقًا بارزًا للعرب واليهود». أما مقولة دودج ضد الصهيونية؛ فلا تنطلق من سياسات الحركة بل من المعارضة العربية لها، التى جعلت برنامج الصهيونية- فى نظر دودج- غير واقعى؛ ومن ثم محفوفًا بالخطر.

وكان دودج يعلم أن مولد دولة يهودية سوف تتلوه سنوات وعقود من الصراع؛ ومن تلك الفكرة كتب دودج يقول «إن كل الأعمال التى تقوم بها هيئاتنا الأمريكية الخيرية التى لا تقصد الربح فى العالم العربى- مؤسستنا للشرق الأدنى، مبشرونا، جمعياتنا للشبان المسيحيين والشابات المسيحيات، كلية بوسطن اليسوعية التابعة لنا فى بغداد، كلياتنا فى القاهرة وبيروت ودمشق... كل هذا سوف يتهدده الإحباط

والانهيار الكامل... وكذلك أيضًا ستكون امتيازاتنا النفطية»، وهو سيناريو قال دودج إنه سيساعد روسيا الشيوعية.

ثم انطلق دودج ليقتبس من عبارات زميل وصفه بأنه خبير أمريكى فى شئون الشرق الأوسط تقول: « إن الروس ينوون إدخال آلاف مؤلفة من الشيوعيين الروس اليهود إلى الدولة اليهودية- الفلسطينية»، وعلى الرغم من أن دودج أحال- بشكل عابر- إلى المحرقة - الهولوكوست اليهودى ولم يكن عمرها قد زاد على ثلاث سنوات (وقت كتابة مقاله)؛ فإنه بدا ناسيًا العواقب السيكولوجية والتاريخية الناجمة عنها بالنسبة للاجئين اليهود الأوروبيين فى فلسطين، وفيما اعترف بأن العرب لن يقبلوا قط بدولة يهودية؛ فإنه ناشد اليهود بإلقاء أسلحتهم والدخول فى محادثات مع العرب.

وينتهى المقال باقتباس من الإنجيل يقول: «لا بالقوة ولا بالسطوة ولكن بروح من عندى هكذا يقول رب الجنود» ولم يبد دودج واعيًا بما كان يراود يهود فلسطين الذين عاشوا فى معسكرات الموت من كوابيس وهم يقرءون العهد القديم بعيون مختلفة عن عيون مبشر بروتستانتى.

فى الخمسينيات عاد دودج مؤقتًا إلى الشرق الأوسط ليعيش فى القاهرة ومنها سيسافر إلى كل دولة عربية فى المنطقة، وكذلك إلى اليونان وتركيا وباكستان والهند، يقضى عيد الميلاد فى الخرطوم، ويكتب فى القاهرة دراسة عن جامعة الأزهر، ويشرف على نشر مقالات عميقة عن المسلمين فى العصور الوسطى، ويحضر مؤتمرات وحفلات شاى يقيمها طلابه السابقون بالجامعة الأمريكية فى بيروت، ويحتفل به

باستمرار فى كثير من العواصم العربية ، ويملأ مذكراته بأوصاف عن بازارات«لكناو»(*) وعن الطيور الغريبة فى آسيا. كان دودج يحصد ثمار حياة مكرسة للعرب وللثقافة الإسلامية. إسرائيل كانت المكان الوحيد فى المنطقة الذى لم يكن- قط- ظاهرًا على خط سيره فى كل رحلاته. وعندما توفى دودج فى عام ١٩٧٢ قال صائب سلام- رئيس وزراء لبنان- من راديو لبنان : إن «بايارد» دودج فهم الشعب اللبنانى والشعوب العربية، وكان واحدًا منهم وعاش قضاياهم الاجتماعية والتربوية والقومية...». كان دودج، شأنه شأن العرب، غير مستعد لا عاطفيًا ولا سياسيًا، للتعامل مع حقيقة دولة لليهود فى الجزء من فلسطين الذى منح له بمقتضى قرار التقسيم للأمم المتحدة.

كان دودج يمثل بامتياز فى هذا الصدد جالية بيروت بأكملها؛ ذلك لأن المبشرين البروتستانت الأمريكيين، على نحو ما يلاحظ ريتشارد كروسمان، عضو البرلمان البريطانى الذى شارك فى فريق أنجلو أمريكى للتحقيق فى مشكلة فلسطين فى عام ١٩٤٧ «كانوا يعارضون قضية الصهيونية؛ مستندين إلى جميع الحجج التى كان يطرحها بصورة أعنف المسئولون البريطانيون المؤيدون للعرب فى الشرق الأوسط»... وإلى حد ما فعل أيضًا الشىء نفسه أبناء هؤلاء المبشرين، ولنصغ إلى آرثر كلوز الذى تخرج فى دير فيلد وبرنستون، وأصبح من الموظفين الأمريكيين فى الشرق الأوسط: «لقد جعلت إسرائيل من عملى أشد صعوبة، أتذكر

(*) مدينة فى شمال الهند «المترجم» .

اليوم الذى فتحت فيه السفارة السوفيتية أبوابها فى دمشق، وما كان ذلك ليحدث بسهولة لو كان ثمة حل مختلف لمشكلة فلسطين. ومن دواعى الأمانة التامة أن أقول إننى تصورت أن خلق دولة إسرائيل كان خطأ، فمن الناحيتين المنطقية والأخلاقية أنا أستطيع أن أرى كيف كان يشعر اليهود بعد الهولوكوست؛ لكن مشكلتهم تم التوصل إلى حلها بصورة غير نزيهة، إن الولايات المتحدة والبريطانيين والسوفيت خططوا للوصول إلى تقسيم فلسطين من خلال الأمم المتحدة».

الباب الثاني

على أرض الواقع

الفصل الخامس

الدبلوماسى المحترف

فى سبتمبر ١٩٤٧م؛ كتب لوى هندرسون- مدير مكتب الشرق الأدنى وشئون إفريقيا وجنوب آسيا فى الخارجية الأمريكية - إلى وزير الدفاع جورج مارشال يقول: «إن تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية أمر يعارضه عمليًا كل موظف فى السلك الدبلوماسى أو فى وزارة الخارجية ممن سبق له التعامل مع قضايا الشرق الأدنى والشرق الأوسط». والحقيقة أن وزارة الخارجية لم تكن وحدها هى التى تعارض إقامة إسرائيل ضمن المؤسسة السياسية فى واشنطن. إن جميع مستشارى الرئيس هارى ترومان لشئون السياسة الخارجية بمن فيهم كثير ممن كانوا يوصفون بالحكماء: مارشال وروبرت لوفيت وشارلس بوهلن وجيمس فورستال ودين أتشيسون.... كلهم كانوا ضد الاعتراف بالدولة اليهودية الجديدة التى كانوا يرونها عقبة فقيرة نفطيًا توضع فى مسار العلاقات مع العرب الأغنياء بالنفط والمتمتعين بموقع استراتيجى حاكم، فى وقت كانت الولايات المتحدة تنطلق فيه إلى غمار صراع على الساحة العالمية مع الاتحاد السوفيتى؛ لكن لم يكن منهم من تمسك برأيه متشبثًا على نحو ما فعل هندرسون وزملاؤه الدبلوماسيون فى مكتب الشرق الأدنى بوزارة

الخارجية. وعندما بات واضحًا أن ترومان لم يكن ليثنيه أحد عن تأييده لإسرائيل، عمد كل من لوفيت ومارشال- وغيرهما من الحكماء- إلى سحب معارضتيهما، واصطفا من خلف الرئيس لدرجة لم يكن ليفعلها هندرسون أو وزارة الخارجية بحال من الأحوال. وعندما أذيعت أنباء اعتراف ترومان بإسرائيل هتف دبلوماسى أمريكى كان منتدبًا فى البعثة الأمريكية بالأمم المتحدة فى نيويورك قائلاً فى أسى: لا يمكن لهذا الأمر أن يكون. وعمد دبلوماسى آخر هو فيليب إيرلاند، وكان قد مارس التدريس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى موازاة الصهيونية بالنزعة النازية، وبعد أشهر من الاعتراف، وعندما كانت إسرائيل تحارب فى ربيع ١٩٤٨ م؛ حاول هندرسون وزملاؤه جاهدين منع وصول الأسلحة إلى إسرائيل.

ومن الذكريات التى يستعيدها باركر هارت- وهو مستعرب أصبح فيما بعد مساعدًا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى - فيقول: «إن خبراء المنطقة حز فى نفوسهم كثيرًا ما وقع فى عام ١٩٤٨ م، كنا قد بذلنا جهودًا هائلة لوضع الأساس لقيام علاقات طيبة مع العرب. وإذ كنا فى موقع متقدم فى هذا المضمار بوغتنا بما حدث وذهبت كل آمالنا أدراج الرياح».

ويقول دبلوماسى آخر هو كارلتون كون: «كان المخضرمون من المستعربين يعرفون أنه لو كان التصويت على قرار التقسيم قذ سار فى منحنى آخر؛ لأصبح العالم العربى مهيئًا تمامًا للتغلغل السياسى وللإخصاب الثقافى الأمريكى لكن شهدنا أيام الوجود الأمريكى المرغوب، وقد انقضت... ووقر فى أذهان بعض أن إسرائيل جاءت لتفسد كل شىء».

أما الرئيس ترومان؛ فكان لديه فى مذكراته ما يلي: « خبراء وزارة الخارجية المختصون بالشرق الأدنى كانوا - بغير استثناء - لا يكنون الود لفكرة دولة يهودية... بعضهم كان يتصور أنه ينبغى تسكين خواطر العرب بحكم تعدادهم فى ضوء حقيقة أنهم يسيطرون على كل هذا القدر من موارد البترول.. ومنهم من كان يجنح إلى أن يكون معاديًا للسامية».

بيد أن مسئولى الخارجية الذين عايشوا تلك الحقبة– ولا يزالون على قيد الحياة– لهم تحفظاتهم على هذه الأحكام، ولا يكتفون بإنكار صحتها؛ بل ويقولون بأن ترومان كان يعرف - حق المعرفة - أن هندرسون ورجاله ما كانوا معادين للسامية. والحاصل– كما يؤكد هؤلاء المستعربون المحنكون– أن ترومان كان يمارس لعبة السياسة الداخلية ويدغدغ حواس يهود أمريكا ؛ تطمينًا لمخاوفهم ولو على حساب الدبلوماسية المحترفة.

من ناحية أخرى، لا يذكر هؤلاء المخضرمون أنهم لم يكن لديهم ببساطة لا الاستعداد ولا حتى القدرة على تخيل محارق الهولوكوست النازية ضد اليهود بالدرجة نفسها التى كان يتصورها بها ترومان وكثير من الأمريكيين. وكان المستعربون فى هذا أقرب إلى أسلافهم من جيل المبشرين البروتستانت ومن سواهم من وافدى الأمريكان على منطقة الشرق الأوسط، وهنا يعترف السفير السابق ستولفوز قائلاً: كان اليهود بالنسبة لنا يمثلون عالمًا متباعدًا وغير حقيقي؛ فى حين كان الفلسطينيون أفرادًا من لحم ودم تعرف بأعيانهم. قارن هذا القول بنظير له حول الرئيس ترومان يشير إليه مستشاره كلارك كلينود فيقول : كان ترومان يشجب

وجود الجيتو (معازل أو حارات اليهود) واستمرار الاضطهاد الشديد، ولم يتخلص من الشعور بالروع عندما يذكر مصرع نحو ستة ملايين يهودى على يد النازى، وكان على وعى تمامًا ببؤس الحاجة التى كان يعيشها مئات الآلاف من اليهود الذين تشردوا بسبب الحرب العالمية الثانية، على أن المشاعر العاطفية إزاء الهولوكوست الذى وقع فى أوروبا لا ينبغى بالطبع أن يؤثر فى موقف المرء نحو الأوضاع فى الشرق الأوسط. ومن الناحية الأخلاقية المطلقة.. يستطيع المرء أن يبرر هذا التحذير بوضوح، فلماذا يتعين على العرب أن يعاقبوا على جرائم أوروبية: بينما لم يشهد العالم العربى قط أيًا من المشاعر التقليدية من العداء المسيحى للسامية؟ لكن هذه المشاعر لم تؤثر فحسب فى المواقف السياسية فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ بل وإنها أدخلت، كما تكشف فيما بعد، تصورًا عميقًا ينفذ إلى تطورات الأمور فى الشرق الأوسط فى تلك الفترة، وهى تطورات لم يفلح فى استيعابها وقتها - فيما يبدو - موظفو الخارجية الأمريكية.

إن جسامة حجم الهولوكوست... أطلق عقال عملية تاريخية لم يكن التدفق الضخم للاجئين اليهود من أوروبا إلى فلسطين سوى جزء منها، وهذا الجانب جعل مولد إسرائيل أمرًا مقضيًا ببساطة وكان هذا الجانب من الوضوح بمكان لكنه لم يكن كذلك فى نظر المستعربين «الأمريكان».

مع ذلك فقد كانت تشكيلة عناصر الخارجية مختلفة عن سابقتها (فى القرن التاسع عشر مثلاً)، أى تشكيلة المبشرين البروتستانت، وابتداء من عقد الخمسينيات حدث اندماج بين التشكيلتين، فتألف منهما

فئة المستعربين التى لن تلبث أن تنقسم بدورها إلى تشكيلة ذات عناصر جديدة.. ومن هنا فلا غنى عن فهم الدبلوماسيين الذين عملوا فى مكتب شئون الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية فى السنوات الأولى التى أعقبت الحرب العالمـية الثانية، وهذا يعنى البدء برجل بعينه اسمه لوى هندرسون.

لوى هندرسون كان أكثر من رجل يمثل أحد أعمدة الدبلوماسية الأمريكية؛ بل وقد يعد أهم وأبرز دبلوماسى محترف فى تاريخ الولايات المتحدة. وكونه لا يكاد يكون معروفًا خارج نطاق دوائر الخارجية؛ إنما يقف شاهدًا على الدور المحورى الذى قام به، وعلى تدافع الوقائع الإخبارية اللاهثة فى هذا القرن، ثم على السرعة التى تنسى بها تلك الوقائع التى تحويه من تفاصيل.

على مدى ما يقرب من نصف قرن؛ ظل هذا الرجل لاعبًا من خلف الكواليس فيما يكاد يكون كل دراما دولية شاركت فيه الولايات المتحدة، ومن ثم فالشرق الأوسط لم يكن سوى فصل من فصول الملحمة التى نسميها الحياة المهنية التى عاشها هندرسون.

جاء لوى وسلى هندرسون من بلدة صغيرة فى ولاية أركنسا، واحد من توءمين ولدا فى عام ١٨٩٢ لواعظ فقير درس فى ثانوية متواضعة فى إحدى بلدات كنساس، وانتقل بعدها إلى جامعة نورث وسترن خارج شيكاغو. واعتبروه غير لائق طبيًا للخدمة فى الحرب العالمية الأولى؛ بسبب إصابته فى ذراعه؛ لكن تطوع فى خدمة الصليب الأحمر؛ حيث عاين- بنفسه- مدى الفوضى الاجتماعية التى أغرقت ألمانيا وروسيا فى نهاية تلك الحرب. وقد اختطف الموت التوءم روى الذى مات بمرض فى

الكلى، ويومها كتب إليه أبوه الواعظ يقول: أما وقد رحل أخوك؛ فإن عليك أن تضاعف استقامتك مرتين. ومن ذلك الحين ظلت حياة لوى هندرسون تندفع بوحى من طيف شقيقه التوءم الذى رحل، وفى هذا السياق يلاحظ الأستاذ هـ. براندز فى كتابه بعنوان:« فى داخل الحرب الباردة: لوى هندرسون وصعود الإمبراطورية الأمريكية، ١٩١٨ - ١٩٦١»: إن كل الملابسات أفضت إلى عمق الإحساس بالواجب إلى حد يملك عليه نفسه؛ بما أدى إلى تضييق مجال رؤيته للأمور وإلى تجاهل نزعة التأمل التى تجعل المرء يتعلم من انتقاد الآخرين.

أصبح هندرسون مثل ناسك جزويتى لا يعرف من ملته واعتقاده سوى السلك الدبلوماسي؛ ذلك الكادر من الدبلوماسيين الذين أمضوا حياتهم المهنية يمثلون أمريكا فى سفارات فى الخارج، أو يعملون فى وزارة الخارجية فى واشنطن؛ بيد أن هندرسون- على خلاف سائر الدبلوماسيين- لم يكن يستبد به فضول الفكر أو الثقافة، لا يكاد يقرأ كثيرًا خارج مطالعة البرقيات الدبلوماسية الواردة أو الصادرة؛ ومن ثم فالذين عرفوه كانوا يأخذون عليه افتقاره لروح الدعابة بل وعجزه عن المشاركة فى المشاعر الشعبية السائدة، ومما له دلالة خاصة ، ذلك الشعور الذى أعرب عنه هندرسون تجاه مدينة نيويورك حين قال: إنها مدينة أجنبية بالنسبة إلىّ شأنها شأن لندن أو باريس أو برلين، فالذين يجلسون فى المطاعم أو فى مترو الأنفاق.. الذين يدفعونك بالمناكب فى الشوارع أو فى مداخل الدكاكين يبدون وكأنه لا يربطهم أى جامع مشترك. ولقد كان من أولى المهام التى أسندت إلى هندرسون فى وزارة الخارجية؛ تحرى

الروابط السوفيتية بمنظمات العمل اليسارية فى الولايات المتحدة، وفى ضوء الدور الكبير الذى لعبه اليهود وغيرهم من الأعراق فى تلك المنظمات فى العشرينيات؛ يبدو أن هذه المهمة هى التى أدت إلى تعميق كراهية هندرسون لمدينة نيويورك ولما تمثله من عالم متعدد الأعراق والسياسات.

تتبدى أوجه شبه كبيرة، فى هندرسون على نحو ما مع رجل آخر اسمه جون ماكلوى تجسد فيه أكثر من أى فرد آخر واقع النفوذ السياسي، وأنفة الشريحة العليا من مؤسسة الحياة على الساحل الشرقى للولايات المتحدة.

جون ماكلوي، هذا هو أحد عمالقة دوائر المال فى وول ستريت، وقد ساعد فى إدارة وزارة الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية وعين بعد ذلك مندوبًا ساميًا فى ألمانيا ، ثم رئيسًا للبنك الدولى ورئيسًا لبنك تشيس مانهاتن ومجلس العلاقات الخارجية.. كان ماكلوى مثل هندرسون من الطراز الجاد يعمل خلف الكواليس ويجيد تدبير الصفقات دون كثير من تأمل.. ومثل هندرسون كان قد تربى فى عائلة بروتستانتية خاملة ورقيقة الحال.. وهذه الظروف بالذات دفعته إلى أن يكون أكثر من أرستقراطى أمريكى، بمعنى أن يتأصل لديه إحساس عميق بالواجب أكثر من زملائه الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب، وثمة صورة التقطت للدبلوماسى هندرسون على عتبات المفوضية الأمريكية فى بغداد عام ١٩٤٣؛ يبدو فيها على طبيعته الحقيقية منتصبًا فى حلة السهرة السوداء.. يداه معقودتان خلف ظهره، شاربه مهذب وعيناه مترفعتان بغير أدنى أثر لتردد أو ارتياب.. وبرأسه الأصلع كان أقرب ما يكون إلى هيئة نظيره ماكلوى؛ على أن الأخير- وقد كان محور الثناء العاطر

قرب ختام حياته- خضع فى السنوات الأخيرة لعملية مراجعة بوصفه واحدًا من أبرز المسئولين عن اعتقال الأمريكيين ذوى الأصل اليابانى خلال الحرب الثانية ومنع الجيش الأمريكى من قصف خطوط السكة الحديد المفضية إلى معسكر اعتقال النازى فى أوشفيتز. ولا مراء فى أن ماكلوى كان يصدر عن نمط محتمل من التحيز؛ سواء حين سارع إلى العفو عن مجرمى الحرب الألمان فور أن وضعت الحرب أوزارها، أو حين عارض بشدة خلق إسرائيل، كما كان معارضًا لأمنها قبل مجيء الليكود إلى السلطة بوقت طويل... وعلى غرار النمط نفسه، سارت حياة لوى هندرسون التى بدأت بكراهيته لنيويورك والثقافة العرقية اليسارية التى تسودها.

لكن إذا كانت حياة ماكلوى حافلة بأحكام خاطئة؛ فإن أحكام هندرسون، إذا نحينا الشرق الأوسط، كانت فى جانب الصواب بل وحتى فيما يتعلق بالشرق الأوسط ؛ فإن آراء هندرسون- وإن جاءت خاطئة فى بعض الحالات- لا يستحيل الدفاع عنها.

لقد عمل هيرمان إيلتس - الذى كان سفيرًا لدى السعودية ومصر- مع هندرسون فى مقتبل حياة إيلتس الدبلوماسية. وهو يصفه بقوله: كان لوى هندرسون رجلاً يلتمس الشمول لا التفاصيل والجزئيات. وكان يطل على العالم من منظور كوني؛ على أنه جاء إلى الشرق الأوسط فى مرحلة متأخرة نسبيًا من خدمته الوظيفية وقد وضع الشرق الأوسط بأحكام فى محور تأثيره فى الصراع السوفيتى- الأمريكى.

وكان هندرسون مع بواكير خدمته، قد اقتصر على العمل من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٤٢ فى الشئون السوفيتية وشرق أوروبا؛ بما فى ذلك السنوات الثمانى التى أمضاها مقيمًا فى دويلات البلطيق وموسكو.

وقد خلقت هذه التجربة أثرها فى مجمل حياته وأتاحت له أن يعمل جنبًا إلى جنب مع رجال من طراز جورج كينان وتشارلى بوهلن.

واكتسب الثلاثة معًا سمعتهم بوصفهم أبرع ثلاثة خبراء فى المرحلة كلها مختصين فى أمور الاتحاد السوفيتى؛ حيث خلقوا سجلاً لم يدانه أحد من بعد من حيث التنبؤ والتحليل. وفيما كان هناك الكثير من الأمريكيين، ومنهم جماعة كانت واقعة-كما ينبغى لنا أن نقول - تحت سيطرة المثقفين اليهود، نظرت إلى الدولة الشيوعية الجديدة فى روسيا بمنظار وردى، فإن هندرسون وبوهلن استطاعا أن يعاينا ويعايشا أساليب الحرمان والإرهاب التى مارسها نظام ستالين.

بل إن هندرسون إذ شعر بالإحباط إزاء شعبية ستالين فى الأوساط الليبرالية بأمريكا، وجه اللوم فى برقية دبلوماسية إلى اليهودية العالمية على أنها مساند مهم للاتحاد السوفيتى.

وفى ريجا ، عاصمة لاتفيا ، تزوج هندرسون من سيدة لاتفية حملته على مضاعفة كراهيته للشيوعيين السوفييت والمتعاطفين معهم فى الخارج، وكما كانت الحال مع تشارلس كرين عضو لجنة كنج - كرين الموفدة بعد الحرب العالمية الأولى إلى بلاد العرب، يمكن القول بأن مشكلة

هندرسون مع اليهود إنما بدأت خيوطها فى روسيا، ولأنه كان يعيش فعلاً فى موسكو ويشهد مظالم ستالين؛ فقد حضر المحاكمات الصورية التى نصبها، وعايش التجارب المقيتة التى كانت فيها العناصر الروسية تختفى فى الجولاج «الأرخبيل على حد تعبير الروائى سولجنستين»، فقد أضحى هندرسون أكثر تشككًا فى ستالين حتى عن هتلر نفسه، وأدى ذلك إلى هجوم تعرض له هندرسون علانية من جانب اليسار الأمريكى واليهود متهمين إياه بنوازع فاشية ومعاداة السامية، لكن وعى هندرسون بحقيقة النظام السوفيتى حمله على التنبؤ منذ أبريل ١٩٤٣ بأن التحالف السوفيتى- الأمريكى ضد هتلر ؛ يشكل ظاهرة عابرة وأنه قمين بأن يتفكك فور أن تضع الحرب أوزارها.

على أن الأمريكان فى عام ١٩٤٢-بخاصة الرئيس روزفلت كانوا مبهورين بحلفائهم السوفييت الجدد وقت الحرب؛ لدرجة لم يكن تفكير هندرسون يعد صحيحًا من الناحية السياسية، ونجح الضغط على وزارة الخارجية من جانب عقيلة الرئيس إليانور روزفلت وغيرها من عناصر البيت الأبيض فى نقل هندرسون إلى الشرق الأوسط، المنطقة الأقل أهمية من العالم؛ حيث كان المتصور ألا يثير هندرسون المتاعب بأن يهاجم ما تواضع عليه الآخرون... يومها قال دبلوماسى أمريكي: «رباه...الشرق الأوسط، تلك المنطقة لا يحدث فيها شيء قط». مع ذلك فقد شاء قدر هندرسون أن يصل إلى الشرق الأوسط فى اللحظة نفسها بالضبط من التاريخ الأمــريكى الذى أصبحت فيه تلك المنطقة ذات أهمية تاريخية كبرى.

ثمة علاقة كانت تربط بين وزارة الخارجية الأمريكية وبين العالم العربي- ربما على نطاق أضيق: علاقة تعود إلى الأيام الأولى لنشوء الجمهورية الأمريكية.

لقد كان عاهل المغرب الأقصى - العلوى - أول حاكم أجنبى يعترف بالولايات المتحدة بعد الثورة الأمريكية، وفى عام ١٨٢١ - فى عهد إدارة الرئيس جون كوينس آدامز - بدأ أول مستعرب فى وزارة الخارجية الأمريكية فى تعلم اللغة العربية وكان اسمه ويليام هودجسون؛ بيد أن الحضور الدبلوماسى لواشنطن فى العالم العربى ظل محدودًا للغاية حتى نشوب الحرب العالمية الثانية؛ إذ كانت سياسة أمريكا هى التسليم بمصالح بريطانيا فى المنطقة والاكتفاء بدعم الجهود التعليمية التى كان يقوم بها المبشرون.. الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة جاء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ عندما تفهم الرئيس ودرو ويلسون الرغبة فى أن تقوم أمريكا بدور سياسى فى سوريا - الشام ، وأوفد مبعوثه كرين إلى هناك لهذا الغرض؛ بيد أن فكرة ويلسون ما لبثت أن تبددت أمام الضغطين البريطانى والفرنسى.

وعلى الرغم من أن المصالح البترولية الأمريكية التى عمد كرين إلى تعزيزها فقد فتحت أبواب العلاقات مع زعماء العشائر العرب قبيل الحرب العالمية الثانية ؛ فمع كارثة تحطيم الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور كانت أمريكا لا تزال مستوردًا صافيًا للبترول، ومن ثم كان البترول هو القضية المؤجلة لمراحل المستقبل؛ لكن ابتداءً من عام ١٩٣٩ فصاعدًا، وفيما كان ستولفوز وآرثر كلوز وأصدقاؤهما وعائلاتهم يغادرون بيروت بدأ الموقف يتغير على نحو درامى مثير.

رايموند هير كان دبلوماسيًا شابًا برتبة سكرتير ثانٍ فى المفوضية الأمريكية بالقاهرة فى الفترة من ١٩٣٩ حتى ١٩٤٢؛ ومن ثم كان واحدًا من حفنة من الأمريكيين الذين عايشوا هذا التحول الجذري؛ ولد هيرْ فى وست فيرجينيا، ومارس التدريس فى كلية روبرت فى إسطنبول التى أنشأها المبشرون قبيل إنشاء الجامعة الأمريكية فى بيروت- وعندما التحق هير بالسلك الدبلوماسى فى العشرينيات لم يكن ثمة مؤسسة ملائمة فى واشنطن لتعليم اللغات؛ ومن ثم توجب عليه- كما فعل سلفه هودجسون من قبل- أن يوفد إلى الخارج ليتعلم العربية والتركية فى مدرسة اللغات الحية فى باريس.

يحكى رايموند هير فى مذكرات منشورة فيقول: كانت الحرب هى حياة القاهرة، كان القوم يقيمون المآدب؛ فيما كان غيرهم يقاتلون فى الصحراء، وكانت الشرائح العليا من الحياة الاجتماعية تضم أعضاء الأسر المالكة من الهاربين من ممالك البلقان ومعهم مشاهير من نجوم الأدب أمثال لورنس داريل وإيفلين وفرياستارك؛ لكن واشنطن لم تكن مهتمة على نحو خاص بالشرق الأوسط، ولا أدل على ذلك من أنه على الرغم من الحرب الدائرة وقتها بين البريطانيين والألمان لم يكن بالمفوضية الأمريكية ملحق عسكري، وتلك مهمة وقعت على عاتق هير شخصيًا الذى كان عليه أن يعتمد أساسًا على السفارة البريطانية للحصول على المعلومات؛ اللهم باستثناء مصدر خاص به - فى مصر وقتها - يطلق عليه اسم غامض هو «الطيف».

لكن فى مارس ١٩٤١، استطاع الرئيس روزفلت إقناع الكونجرس- على الرغم من اتجاهاته الانعزالية - بإصدار قانون الإعارة والتأجير، وبعده بدأ التحول التاريخى صوب اعتراف أمريكا بأهمية الشرق الأوسط، وسرعان ما عمدت واشنطن إلى دفع كميات كبيرة من الأسلحة إلى مصر كى يستخدمها الجيش البريطانى ؛ مما فرض وجودًا موازيًا وملموسًا سواء من النواحى التعبوية أو الدبلوماسية أو الاستخباراتية.

إلا أن شعور الإحباط راود رايموند هير بالنسبة إلى ردود واشنطن على البرقيات التى كان يبعثها؛ وبينما كان يشدد باستمرار على أهمية الشرق الأوسط خاصة منطقة البحر المتوسط فى الحرب ضد هتلر؛ فإن واشنطن- على نحو ما شرح الرئيس روزفلت يومًا لرئيس الوزراء البريطانى تشرشل - كانت من ترد بأن السيطرة البحرية على المحيطين الهندى والأطلسى هى الكفيلة فى الوقت المناسب بكسب الحرب.

من هنا؛ وقعت مناشدات هيربل والسفير الأمريكى ألكسندر كيرك بإمداد البريطانيين فى مصر بطائرات حربية أمريكية، على آذان صماء فى من واشنطن إلى أن سقطت طبرق الليبية بيد الألمان عام ١٩٤٢.

يومها اندفع الأمريكيون إلى العمل، وشارك سلاح الجو الأمريكى فى القتال بحلول نوفمبر ١٩٤٢ عندما استطاعت القوات البريطانية أن تصد تقدم الفيلق الألمانى- الإفريقى؛ قوات روميل؛ عند العلمين فى صحراء مصر الغربية. فى الوقت ذاته كانت القوات الأمريكية تنزل على ساحل المغرب مندفعة شرقًا عبر الصحراء إلى تونس حيث قُدِّر لها فى ربيع ١٩٤٣

أن تلتقى مع القوات البريطانية الزاحفة غربًا من مصر، وأمكن للطرفين- فى سلسلة من المعارك السريعة - طرد الألمان من شمال إفريقيا.

وعلى الرغم من أن الأمريكان ألفوا أنفسهم فجأة فى موقع السيطرة بالشرق الأوسط؛ فإن رايموند هير يضيف متأملاً: إن هذه الحقيقة لم تكن واضحة لنا تمامًا، ولا كان واضحًا ضخامة الدور الذى كان علينا مبادرة أن نبادر إلى الاضطلاع به فى المستقبل العاجل. وفى هذه المرحلة الفاصلة بين اكتساب قوة إقليمية وبين القدرة على استخدامها فى أرض الواقع، شاء القدر أن يدخل إلى الصورة لوى هندرسون.

ومن المستبعد فى ضوء اتجاهات هندرسون وخبراته السابقة بعد أن ترك منصبه فى موسكو- وقد كان أحد المراكز العصبية الحساسة أثناء الحرب العالمية الثانية ليعمل فى مركز «عضة البعوض» فى بغداد- ألا يطوى جوانحه على شيء من الحنق نحو الرئيس روزفلت وزوجته اليانور، وعلى الليبراليين بالحزب الديمقراطى وعلى اليهود الأمريكيين الذين كانوا وقتها- فى جملتهم- أعضاءً بالحزب الديمقراطى.

كان هندرسون قد بلغ الحادية والخمسين، ولم ينجب من زوجته أطفالاً بل كانت حياته مكرسة تمامًا للسلك الدبلوماسى، وتلك حقيقة تشهد بها الانهيارات العصبية التى كانت تصيبه أو ربما بسبب الإرهاق فى العمل.

أما بغداد؛ فكانت وقتها محطة متوارية فى خلفية الصورة، كانت قاعدة تموين للبريطانيين الذين كانوا يصدون زحف الألمان فى إيران المجاورة؛ بل والسوفييت أيضًا؛ بيد أن العراق كانت قاعدة مضطربة

قبل أن يكون موقعًا يخيم عليه الهدوء. وقتها تبدد الحلم القديم للراحلة «جرترود بل» بأن تجعل من ذلك البلد الذى قامت بريطانيا بتصنيعه «دولة عربية» نموذجية. لقد أدت السيطرة البريطانية- فضلاً عن تنامى النزاع بين اليهود والعرب فى فلسطين- إلى تحويل عرب العراق إلى جبهة التعاطف مع النازي.

ففى عام ١٩٤١ ؛ قبيل وصول هندرسون بعامين شهدت بغداد انقلابًا سيئ الحظ متعاطفًا مع النازى يقوده مجموعة من ضباط الجيش العراقى (ثورة رشيد الكيلاني)؛ على أن «فرياستارك» الدبلوماسية البريطانية وأديبة الرحلات التى ورثت إلى حد ما وزن سابقتها «جرترود بل»، بوصفها سيدة عرب العراق - مس ستارك كما يسمونها - كانت ترى مستقبلاً واعدًا للديمقراطية فى العراق. ولذلك دافعت عن تصرف البريطانيين بوصفه كان لازمًا لإتاحة الوقت الكافى أمام جنود الملك فيصل الأول لكسب حربهم الخاصة ضد مدبرى الانقلاب بغير مساعدة من أطراف أخرى.

من اليهود الذين بقوا على قيد الحياة كان إيلى قدورى الذى كانت كوابيس ذكرياته محورًا لتدفق كتبه ومقالاته الغزيرة ضد ضباط الشئون العربية البريطانيين المخضرمين. لقد شاهد قدورى كارثة يهود بغداد المعروفة محليًا باسم أحداث السلب، ورآها بمثابة نتيجة مباشرة لتداخل قوم من الهواة فى شئون العراق على امتداد عقود من الزمن - من أمثال «مس بل» و«مس ستارك» - الذين اخترعوا بلدًا وقاعدة للسلطة للسكان العرب المسلمين؛ ومن ثم كان ينبغى لهم تحمل المسئولية عن الأقليات التى يهددها هؤلاء العرب.

وفى دراسات عن الشرق الأوسط ؛ تأتى عبارات قدورى مفعمة بروح الغضب: «كان بوسعهم – اليهود» – أن يسلموا طواعية بحق الغزو، وطيلة تاريخهم تعلموا أن يؤثروا السلامة ، لكن هذه الخبرة مع طول أمدها لم تجعلهم يفهمون ضمير الغرب بكل نشوزه وغرابة أطواره.. غرابة المستر فيلبى الذى أقسم على نفسه إن يتبع هذيانه فيجعل من أى صعلوك رئيسًا لجمهورية عراقية أو ذلك العشق الأحمق الذى جال بخاطر المس؛ حتى تصورت نفسها حامية حمى إمبراطورية عباسية جديدة أو التعصب المأفون لدى الكولونيل لورانس الذى أقسم بشرفه أن ينصب كل سلالة شريف مكة على عرش من العروش. مع هذا كله فقد كان مصير اليهود فى يد هذه العناصر».

ولم يكن ثمة من يساند رأى قدورى فى هذا الصدد غير ضابط المخابرات الملحق بالقوات البريطانية فى بغداد سومرست دى شير الذى كتب يقول:

«إن السبل التى تنتهجها وزارة الخارجية تستعصى على فهمي، لقد شققنا بالسلاح طريقنا إلى قلب المدينة خطوة من بعد خطوة.. وعلينا أن نريح أقدامنا فى الخارج. وسيبدو الأمر مهينًا لحليفنا حاكم البلاد– فيصل العراق الذى فر إلى فلسطين ساعة وقوع الانقلاب – إذا ما شاهدوه يعود على حراب البريطانيين».

بعد أن وصل هندرسون إلى بغداد وأتيحت له فسحة من الوقت كى يستوعب كل حقائق التاريخ ؛ أدرك أنه لن يوجد فى قلبه مكان للتعاطف مع اليهود فى العراق. لقد شعر بأن اليهود يتحملون جانبًا من مسئولية العنف

الموجه ضدهم؛ لا لأنهم فقط كانوا متعاطفين سرًا مع الصهيونية بدلاً من التعاطف مع الشعور الوطنى العراقي، ولكن أيضًا بحكم ما اتصف به بعض تجار اليهود علنًا من خيانة للأمانة وطمع وانتهازية وسلوك؛ يحمل على الاعتقاد أنهم يرون أنفسهم اجتماعيًا وثقافيًا فى مرتبة أعلى من العرب.

لقد كان هذا البغض التلقائى الذى شعر به هندرسون إزاء الجالية اليهودية بالعراق؛ أكثر تطرفًا من الاتجاهات المماثلة التى اتخذها المستعربون البريطانيون أو المبشرون، وربما كان الأمر فى حالة السفير الأمريكى الجديد يصدر عن جذور مختلفة، ففى حالة المستعمرين البريطانيين لم يكن أمرهم يتعلق بكراهية لليهود، بل إن بعضهم- مثل لورانس- كان محبًا للسامية؛ لكنهم كانوا يحبون العرب أكثر، وكان يدفعهم فى ذلك وشائج من الفن والعلم تربطهم بالثقافة العربية، فضلاً عن شعور دفين بالذنب بأنهم خانوا طموحات العرب بعد الحرب العالمية الأولى، ولا سيما عندما سمحوا للفرنسيين بأن يقتطعوا سوريا «الكبرى». من ناحية أخرى ثمة روابط بين البريطانيين وبين أثرياء العرب. وهذا عين ما يقوله ريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطانى عن بنى جلدته بعد أن كلف بالتحقيق فى المشكلة الفلسطينية عام ١٩٤٧: من السهل أن ندرك السبب الذى يجعل البريطانيين يفضلون الطبقة العربية العليا على اليهود؛ لأن الأنتجلنسيا العربية ذات ثقافة فرنسية؛ وهى طبقة مسلية ومتحضرة وتجمع فى حياتها بين الشجن والملهاة. وبالمقارنة معهم يبدو اليهود كبرجوازيين متوترين ينتمون إلى وسط أوروبا بل وألمانيا؛ لكن علينا أن

نتذكر أن هندرسون رجل لم يقرأ سوى القليل من الكتب، ولم تكن لديه قابلية تذكر للتعاطى مع فنون الثقافة التى شغف بها البريطانيون. وكما يقول هيرمان إيلتس وآخرون: لم يكن هندرسون كثير الشغف بالحضارة العربية. وفيما كان رفيق هندرسون -هو أرشى روزفلت حفيد الرئيس تيودور روزفلت، وقد أصبح فيما بعد فى طليعة مستعربى المخابرات المركزية الأمريكية- يستكشف فى حماس المواقع الأثرية ومناطق القبائل فى بلاد ما بين النهرين ، كان هندرسون قابعًا فى عقر دار المفوضية يطالع التقارير السياسية.

وعلى خلاف المبشرين، لم يكن هندرسون من أصحاب الاتجاه المثالي، ولم يبد عليه ولا على أى من خلصائه أى اهتمام خاص على نحو ما فعل المبشرون بالحفاظ على علاقة شخصية مع العرب، مع ذلك كان هندرسون موهوبًا فى التحليل وسرعة الاستيعاب، وكان قادرًا على تناول- بسرعة- الحقائق المتوافرة عن منطقة لم يعرفها من قبل؛ فيضعها ضمن إطار معرفى حيث تتقاطع مع ما يجرى فى أماكن أخرى من العالم. ولم يطل بالأمريكى الأمر ليتصور ما عساه يكون الوضع فور أن تنتهى الحرب ضد اليابان والألمان؛ حيث سيكون الشرق الأوسط فوق برميل من بارود.

وكان قاطعًا فى تصوره فى عام ١٩٤٣؛ بأن الموقف بين الطوائف فى فلسطين متفجر ويكاد يتسحيل على الحلول، وأن الصدمات الناجمة عنه سوف تتطاير شظاياها فى كل أرجاء الشرق الأوسط؛ حيث تشوه سياسات المنطقة على النحو الحاصل فعلاً فى العراق فى ذلك الزمان.

ولأنه كان متأكدًا أنه بعد هزيمة هتلر سوف يصبح الاتحاد السوفيتى عدوًا لأمريكا على صعيد العالم كله؛ فقد تصور أنه ينبغى لأمريكا النظر إلى قضية فلسطين من خلال «فلتر» النضال ضد الشيوعية؛ وهذا يقتضى أن تؤيد أمريكا الجانب الذى يتيح لها فى فلسطين تعزيز قدرتها فى التعامل مع السوفييت. وفى رأى هندرسون لم يكن الأمر محل جدال؛ فالعرب يملكون البترول والمواقع الاستراتيجية والأعداد من البشر مما كان يتبعه السؤال: وما عدد آبار البترول التى يملكها اليهود فى كل حال؟

فى عام ١٩٤٣؛ كان هذا كله محض تنبؤات حتى ولو تصور بعض أنه كان صادرًا عن عدم تعاطف من جانب هندرسون مع اليهود. وفى عام ١٩٤٧؛ كان هندرسون قمينًا بأن يتحقق من أن اعتراف أمريكا بإسرائيل سوف «يشترى» لها عشرات السنين من المشكلات والتكاليف؛ بل سيؤدى- على حد قوله - إلى صعود التعصب الإسلامى بشكل لم يحدث من قبل لمئات من السنين- فهل يمارى اليوم أحد فى ذلك؟

مع هذا فقد ثبت أن هندرسون مخطئ فى شيء واحد فقط وهو: أن أمريكا استطاعت كسب- على كلا الوجهين - صداقة مع العرب مع اليهود؛ لكن الأمر ظل كما تصور طيلة ثلاثة عقود من الزمن ؛ وهو ما بات واضحًا بصورة قاطعة حية قبل أن يباشر هنرى كيسنجر سياسة المكوك وتعاد إقامة العلاقات مع مصر وسوريا فى السبعينيات.

فى نهاية المطاف؛ فإن موقف المرء إزاء هندرسون إنما يصدر عن تصور لما كانت تحتاجه السياسة الأمريكية من التصرف العقلانى بغير

عواطف فى تلك الفترة، ولأن هندرسون كان قد عايش الستالينية لدرجة لم تتح سوى لقلة قليلة من بنى وطنه؛ فلم تكن تساوره أى أوهام عن هوية العدو الذى سيكون أو العدة التى تحشد من أجل هزيمة ذلك العدو.

والحق أن هندرسون لم يكن لديه اهتمام خاص، لا بالعرب ولا بلغتهم أو ثقافتهم أو طموحاتهم الفكرية أو القومية؛ بيد أنه كان يتبنى آراء قوية بشأن المصالح القومية للولايات المتحدة وأين يكون موضعها فى الشرق الأوسط، وقد حدث أن هذه الآراء قد تبعت سابقتها من آراء المبشرين، وهذا التتابع - بين السابق واللاحق - هو الذى نجمت عنه ثقافة المستعربين المولدة التى نشأت فى عقد الخمسينيات.

لقد ترقى هندرسون فى وظيفته عام ١٩٤٥، وكان ذلك بفضل مهاراته فى التحليل وقوة شكيمته ونشاطه ومضاء عزيمته بدعم من زوجته «أليس»، وظل يضحى بحياته شخصيًا فداء للعمل وأداء الواجب؛ فأصبح مديرًا لمكتب شئون الشرق الأدنى فى وزارة الخارجية الأمريكية. ويومها بدءوا يحسون بقوة هندرسون على الفور. وعندما بدأت الحكومة الفرنسية التى كان يتزعمها وقتئذ زعيم فرنسا الحرة شارل ديجول فى قصف دمشق وسائر المراكز السكانية العربية فى سوريا كوسيلة للحفاظ على الانتداب الفرنسي، ذهب هندرسون مباشرة إلى الرئيس ترومان وأشار إلى أن يجبر الفرنسيين على الانسحاب، ولم يقتصر هندرسون على التفكير فى أن الإجراءات الفرنسية تستهين بروح ميثاق الأمم المتحدة

الجديد؛ بل ولأنها تهدد أيضًا بأن تحرف مسار العلاقات بين الغرب وبين العرب وسائر المسلمين.

وكما شرح هندرسون لرؤسائه؛ فإن بغض العرب للفرنسيين لن يلبث أن يتوجه إلى الغرب بأسره، ومن شأنه أن يسمح للاتحاد السوفيتي يومًا بأن يملأ الفراغ الذى تخلفه الدولة الكبرى فى سوريا وهذا بالطبع نفس ما حدث على وجه الدقة.

وفى أوائل عام ١٩٤٦؛ تقدمت القوات السوفيتية صوب مدينة تبريز ومشارفها فى جنوب غربى إيران، وكانت تزعم الاستيلاء على المدينة... كانت تلك أولى أزمات ما أصبح يعرف بعد ذلك باسم الحرب الباردة؛ لكن كان لوى هندرسون مستعدًا... هو الذى شق طريقه يومها إلى مكتب وكيل الخارجية الأمريكية دين أتشيسون ووزير الخارجية جيمس بيرنز مسلحًا بالخرائط: كى يشرح لهما كيف أن انتشار القوات السوفييتية على هذا النحو إنما يهدد تركيا والعراق وحقول النفط الإيرانية، وهو الذى ضغط على إدارة ترومان: لكى تصدر تحذيرًا متشددًا إلى ستالين الذى سرعان ما بادر إلى سحب قواته، وكان هندرسون أيضًا هو الذى استجاب إلى فوضى سياسية اجتاحت اليونان بعد ذلك وفى العام نفسه المذكور، وتحرك بنشاط لحشد استجابة أمريكية قوية لمنع وقوع انتصار الشيوعيين فى اليونان.

من هنا جاء القول بأن مبدأ ترومان كان أقوى من أى وثيقة مماثلة فى تشكيل سياسة أمريكا لمناهضة الإمبراطورية الشيوعية؛

قد وضعت صياغاته فى مكتب هندرسون وتحت إشراف المباشر، وقد جاء ذلك كردٍ فعل للحرب الأهلية فى اليونان.

وفى مثل هذا الجو؛ حيث كان ستالين يدق بعنف أبواب اليونان ويهدد الأطراف الشمالية من إيران، قيض لهندرسون مواجهة مشكلة فلسطين فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨. كان يتبع الأسلوب المكتبى فى إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية، وكان مستوعبًا "كامل فى التعامل مع الخطر الشيوعى، وقد فعل كل ما استطاع فعله للحيلولة دون صدور قرار تقسيم فلسطين ، وكذلك دون اعتراف الولايات المتحدة بمنح جزء من فلسطين إلى اليهود. وعلى الرغم من أن مارشال (صاحب المشروع الشهير) وعناصر أخرى من غير دوائر الخارجية كانوا يؤيدون هندرسون فى سياسته تلك، فإن يهود أمريكا ركزوا كل غضبهم على هندرسون وحده، وفى هذا الصدد قال إيمانويل سيلر، وهو عضو ديمقراطى بالكونجرس كان يمثل منطقة يهودية مكثفة فى نيويورك: ربما تكون فلسطين موضوعًا جديدًا ينشغل به المستر مارشال ، وقد يكون قد استقى معلوماته فى هذا الشأن من المستر لوى هندرسون عاشق العرب ومحترف التخريب ذى البنطلون المخطط.

وبحلول منتصف عام ١٩٤٨، وإذ كان ترومان يكافح فى معمعة الانتخابات، أصبح هندرسون بمثابة عبء على كاهل مرشح الرئاسة الديمقراطى ولم يكن من سبيل لأن يتحمله، وهكذا قيض لهندرسون أن يدفع ثمن جريمة ارتكبها عندما وقف متحديًا ضد المتمسكين بكل ما هو

تقليدى ومكروه، وكان الثمن هو نفيه من جديد سفيرًا هذه المرة لأمريكا فى الهند.

لكن هندرسون لم يكن نادمًا على شيء بحال؛ كان على استعداد لأن يتحمل علنًا فرية معاداة السامية إذا كان هذا هو الثمن الذى يدفعه من أجل النهوض بواجباته كمسئول فى السلك الخارجى للولايات المتحدة. ثم مضى لا يلوى على شيء كى يغرق نفسه فى بحر السياسة الهندية، وعلى نحو ما سبق أن صادفه بالشرق الأوسط فقد وصل هندرسون إلى نيودلهى بعد أن أصبحت الهند قضية كبرى.

ومن ناحية أخرى عمد هندرسون إلى التحدى التقليدى والمتعارف عليه ومنطق الملاءمة السياسية؛ عندما جرؤ على انتقاد زعيم الهند الجديد ذائع الصيت «جواهر لال نهرو»؛ وجد هندرسون فى نهرو رجلاً مغرورًا وشديد الحساسية وعاطفيًا ومعقدًا فضلاً عن إنكاره الجميل إزاء صداقة الولايات المتحدة ؛ الأسوأ من هذا فى رأى هندرسون أن كراهية نهرو لأمريكا لم تكن تنبع من اختلافات فى السياسة بل من خيلاء تلميذ تربى فى المدرسة الإنجليزية ولم ير فى أمريكا سوى ثقافة الاستهلاك المادية وفكر الطبقة الوسطى، ثم إن هندرسون رأى فى حياد الهند نزعة خطيرة بل وتنطوى على خيانة فكرية (*) كل هذه الأطروحات أصبحت فيما بعد مشاعًا بين الناس لكن هندرسون كان أول من أشار إليها.

(*) عدم أخلاقية الحياد – تلك الفكرة المختلة رددها دالاس بعد ذلك بالنسبة إلى جمال عبد الناصر «المترجم».

وفى عام ١٩٥١؛ ترك هندرسون الهند ليصبح سفيرًا لدى إيران بعد أن عين الدكتور محمد مصدق رئيسًا للوزراء؛ فوعد بطرد البريطانيين ومصالحهم البترولية خارج بلاده، وعلى مدار السنوات الثلاث التالية أدار هندرسون بنفسه سياسة أمريكا من أجل مزيد من التعاطى مع الشئون الإيرانية؛ ومن ثم من أجل الإطاحة بمصدق عندما أصبحت مغازلاته واضحة مع الاتحاد السوفيتى، وعلى ذلك تأكدت عودة الشاه إلى مقاليد السلطة فى ظل وجود قوى على مدار ربع القرن الذى جاء من بعد، وكان ذلك بفضل هندرسون نفسه الذى لم يكن مع ذلك سعيدًا بالنتيجة؛ فقد تنبأ بأنه سيأتى اليوم الذى سيصبح فيه الشعب الإيرانى مبغضًا لأمريكا بقدر الكراهية التى أبداها نحو بريطانيا.

وأفضى حدث الإطاحة بالدكتور مصدق إلى إنشاء حلف بغداد بوصفه تحالفًا بين دول الشرق الأوسط المعادية للشيوعية، وعين هندرسون سفيرًا لدى الحلف الجديد فى عام ١٩٥٥؛ كما شارك هندرسون فى أزمات السويس والكونغو وغيرهما. أما آخر مأمورية مهمة قام بها هندرسون فى الخارجية الأمريكية ؛ فهى الإشراف فى الخمسينيات على إعادة تنظيم السلك الدبلوماسى كى يصبح قائمًا على الدبلوماسيين المحترفين قبل قيامه على الصفوة المحظوظة؛ فيما أرسى الأسس التى قامت عليها عملية التحول الديمقراطى الحقيقية التى كانت جديرة بأن تشهدها الخارجية الأمريكية فى عقد الثمانينيات.

وفى نهاية خدمته؛ كان أقران هندرسون ينظرون إليه - وهو الموظف المحترف حتى النخاع - بوصفه الرجل الذى لم يسمح للاعتبارات السياسية بأن تلون أو تصبغ المشورة التى يسديها والذى استطاع شق طريقه إلى أعلى بفضل ما بذله من جهد دءوب وإخلاص وتفانٍ فى أداء الواجب.

ولقد كان مرؤسوه ينظرون إليه بوصفه نموذجًا لما عساهم يصبحون خاصة أن هندرسون لم ينجب أطفالاً؛ مما جعله يتحلى بنظرة أبوية نحو شباب السلك الدبلوماسى الذين كان يرى فيهم ورثة يأتون من بعده.

يمكن القول بأن لوى هندرسون هو مخترع ثقافة وفكر الدبلوماسية الأمريكية فى العقود الأولى من حقبة ما بعد الحرب. وكانوا يسمونه - على محمل الود - «مستر فورين سيرفيس» - وكأنه التجسيد الحى للدبلوماسية وسلك الخدمة الخارجية، وهو لقب لا يزال علمًا عليه، ويستخدمه زملاؤه السابقون حين يتناولونه بالحديث. وفيما تحمل قاعات غرف الاستقبال الدبلوماسية فوق سطح الخارجية الأمريكية أسماء مؤسسى الدولة الأمريكية؛ فإن ثمة قاعة عامة واسعة فى الطابق الأرضى تحمل اسم هندرسون. وعندما أعلن وزير الخارجية هنرى كيسنجر إطلاق اسم الرجل على تلك القاعة فى عام ١٩٧٦؛ أثنى على هندرسون بوصفه «الجوهر الذى يجسد ما يجعل السلك الدبلوماسى أداة عظيمة ومتفانية من أدوات سياستنا القومية».

ولا يمكن أن يكون ثمة برهان أعظم من المسافة اللا متناهية التى تفصل بين الخارجية الأمريكية وبين الدولة اليهودية ؛ من حقيقة أن الرجل الذى شن حربه الشعواء لمنع الاعتراف بها هو ذاته الرجل الذى يرى فيه أنداده أنه يمثل أعظم مقاييس المهنة التى ينتمون إليها. وفيما يعد لوى هندرسون وغدا زنيما فى نظر الإسرائيليين واليهود الأمريكيين، إلا أنه يظل شهيد التجاهل والجحود العام بنظر موظفى السلك الدبلوماسى الأمريكى.. كان هندرسون من طراز الصفوة الكلاسيكية التى تنفذ إلى جوهر الأمور، كان يدرك أن الرأى الشعبى المحلى لا مكان له عند حساب المصالح القومية؛ ذلك لأن الجمهور العام يفتقر إلى الحقائق ومهارات التحليل وخبرة الحياة فيما وراء البحار مما أتيح بوفرة له ولزملائه.

أفلم يكن هو على حق – فيما أخطأ جميع هؤلاء المثقفين اليهود – بشأن الطبيعة الحقيقية للشيوعية؟

« وعلى الرغم من أنه ما من امرئ على يقين من المرة الأولى التى استخدموا فيها مصطلح «مستعرب» – أرابيست – فى أمريكا فى معرض الاستهانة، كى يصدق على من يؤيد العرب من الناحية السياسية»، إلا أن هذا التعريف الجديد والسلبى بدأ مع لوى هندرسون على الرغم من أنه لم يكن يتكلم العربية بل ولم يُمض فى العالم العربى سوى عامين فقط من أعوامه العملية التسعة والثلاثين(*).

(*) توفى هندرسون فى عام ١٩٨٦ .

ومنذ أوائل الخمسينيات فصاعدًا؛ ظل التعريفان اللذان يصدقان على مصطلح «مستعرب» يتعايشان جنبًا إلى جنب: تعريف السلك الخارجى والمبشر البروتستانتى المستعرب الذى يتكلم العربية بطلاقة وتوافرت لديه تجربة حياتية يعتد بها فى العالم العربي، ثم التعريف الآخر على مستوى العامة خاصة بين عامة اليهود - ذلك الذى أحب العرب وفعل ذلك غالبًا لأنه يكره اليهود.

وهذا الحكم ارتبط بدوره مع تهم بالاستعلاء الطبقى أو الاجتماعي.. ويوضح أحد رؤساء منظمة محافظة فى واشنطن؛ هذا الأمر فى معرض المقارنة بين خبراء شئون أمريكا اللاتينية وبين المستعربين فيقول: «إن «المتأسبن»-المختص فى الإسبانية - يشير إلى معانى اللا صفوة؛ بل ويرتبط ببارونات المخدرات وبثقافة محلات السوبر ماركت المكونة من سبعة إلى أحد عشر طابقًا وذلك بحكم علاقتنا الوثيقة مع العالم اللاتينى.

أما العربية فهى من الناحية الأخرى لغة بعيدة عنا، وصعبة ومن ثم يحوطها الغموض، والتضلع فيها يوحى بالقدرة على الدخول إلى طبقة حاكمة عليا ؛ حيث لا ترحيب بدخول اليهود ولا من على شاكلتهم من الأمريكيين.

ولأن مستعربى الخارجية الأمريكية كانوا جميعًا أفرادًا ممن كانوا يصدرون باستمرار على مدار الزمن عن خلفيات مختلفة؛ فإن سبر أغوار الحقيقة عنهم هو من الصعوبة بمكان؛ فضلاً عن أن أهميته تتجاوز- بكثير- كلاً من التعريفين السابقين لمصطلح المستعرب؛ وإن

كانت جذورهما السياسية غاية فى الوضوح؛ فعند إنشاء إسرائيل توجه مستعربو الخارجية الأمريكية إلى الشرق الأوسط، وقد استقر فى أذهانهم نموذج لوى هندرسون وما إن استقروا فى مواقعهم الخارجية حتى بدءوا يتأثرون بالقيم التى كانت تسود دوائر المبشرين المحلية.

الفصل السادس

المخضرمون

فى مذكراته التى كتبها بعنوان «مهمة فلسطين» ، كتب السياسى البريطانى - ريتشارد كروسمان يقول: أتصور أن بوسعك العثور على شخص تكون هوايته هى مراقبة الطيور يقف فى موقع التباعد عنها فيما يحدق فيك مباشرة، إن خبير الشئون العربية يتصف بالسمات نفسها.

فى عام ١٩٤٧؛ عُيِّن كروسمان عضوًا فى اللجنة الأنجلو - أمريكية التى تولت التحقيق فى مسألة فلسطين، وكان عضوًا فى البرلمان البريطانى بغير خبرة سابقة عن الشرق الأوسط ولا العرب ولا اليهود. وقدر له فى القدس والقاهرة أن يلتقى بمستعربين بريطانيين وأمريكيين للمرة الأولى فى حياته.

وهنا يقول كروسمان: إن المستعرب شأنه شأن من يعكف على مراقبة الطيور.. استطاع أن يتحرر من السوقى والمبتذل، من إيقاع المادية فى عالم الغرب والتمس اللجوء إلى سكينة داخلية. ويمضى كروسمان قائلاً: المستعرب وقع فى غرام العرب؛ لأنهم أتاحوا له أن يتوحد مع القيم العالية التى يفتقدها فى وطنه الأول؛ حيث كان محكومًا عليه أن يبقى محرومًا

من تحقيق الذات، لكن ها هو قد وجد نفسه فى الشرق الأوسط ولقد عقد العزم دون أن يعرف السبيل إلى ما يتبعه ؛ كى يوائم بين الحضارة الغربية وبين الثقافة العربية. لقد تعلم بذاته أثمن قيم فى الحياة من العرب.. لكنه هو ذاته أيضًا يعرف كوامن الضعف عندهم، وكم يشعر بالإحباط إزاء ما يراه فيهم من خمول ومن فساد فى طبقاتهم العليا، وفوق ذلك من تكريس الحضارة الغربية التى كثيرًا ما يتبناها العرب المتعلمون.. من هنا فهو أولى من غيره بانتقاد العرب لأنه يفهمهم حق الفهم، بيد أن نقده هذا إنما يصدر عن فرد ربط مصيره بقضاياهم.

فى سجل حوليات السلك الدبلوماسى الخارجى كتب «كارلون ستيفنز كون» يصف نفسه بأنه «آخر سفير من طراز القرن التاسع عشر»؛ كان يجلس (فى مقابلة) المؤلف معه فى بيته الريفى المسور بالخشب فى وادى فرجينيا، وقد زينت الجدران من خلفه بأقنعه الشيطان المجلوبة من الهند وكأنها تذكِّر المرء بذلك المتجر الذى كان يعمل فيه «لورغان صاحب» بطل رواية «كيم». والمعروف أن السفير«كون» كان هو الذى تولى من وراء الكواليس صياغة دليل السياسة الخارجية للرئيس الأسبق ريجان فى أوائل عام ١٩٨١ وقد ذكر أنهم عينوه فى أكثر من منصب لسفير؛ تتويجًا لحياة دبلوماسية حافلة قضاها فى الشرق الأوسط وشبه الجزيرة الهندية، إن «كون» يعتنق آراءً فى السياسة الخارجية شديدة الاختلاف عن آراء رونالد ريجان، ولكن حقيقة أنه كان جزءًا من فريق مرحلة الانتقال إلى عهد ريجان نفسه، إنما تشهد بالأسلوب الذى يمكن أن يؤثر فيه عنصر الاحتراف المهنى على أكثر الرؤساء البعيدين عن هذا الاحتراف.

يوضح السفير«كون» أنه اختار موقعه فى كاتماندو (نيبال)؛ لأنه أراد أن ينساه الآخرون، كان ذلك فى الثمانينيات، ولما تكن سفارة أمريكا فى نيبال قد زودت بهواتف بعد، بل كانت السفارة تستخدم أسلوب البرقيات العتيق. ولهذا «فلم تكن واشنطن لتعير التفاتًا إلى ما كنت أفعل فيها يا إلهي! كم كان الأمر رائعًا! ناهيك عن تعيين زوجتى جين – وهى بدورها دبلوماسية محترفة ومخضرمة– سفيرة لدى بنجلاديش المجاورة. ولهذا كنت أنتهز عطلة نهاية الأسبوع لأطير إلى دكا أو تطير إلينا جين فى كاتماندو أو نذهب معًا للاستكشاف فى الصين وبوتان؛ فقد كان السفر متعة لنا».

السفير السابق «كون» يتحدث بلهجة حادة مفعمة بالحفاوة تنم فى غموض عن روح الأمريكى البسيط تجمع بين المودة والارتياح.. هى اللهجة نفسها التى كانت تشيع فى خطابات جورج بوش، طبعًا مع مراعاة قواعد النحو. ذلك لأن السفير «كون» مثل بوش، خريج أكاديمية فيلبس فى ماساشوستس الواقعة فى حرم دير أندوفر القديم، الذى انتقل فى أواخر القرن التاسع عشر إلى ضاحية نيوتاون فى مدينة بوسطن. بينما ذهب بوش إلى جامعة ييل بعد أن خدم باعتباره طيارًا فى الحرب العالمية الثانية؛ فقد ذهب كون إلى هارفارد، وهو يصغر الرئيس السابق بثلاث سنوات، بعد خدمة قصيرة فى الجيش، بيد أن قصة «كون» تبدأ مع والده الذى يمكن أن يعد واحدًا من أصفى العقول التى أنجبتها أمريكا.

ولد كون الأب عام ١٩٠٤، فى ويكفيلد فى ولاية ماساشوستس وبعد طرده من ثانويتها أرسله البربر إلى أكاديمية فيليبس حيث كان يثير المشكلات باستمرار، وفى هارفارد كان بمثابة صاروخ غير موجه؛ لكنه فى هارفارد أيضًا التقى عالمًا فى الإنثربولوجيا، هو أرنست ألبرت هوتن الذى أوقد شعلة بين جوانج الفتى كون بكتابه المعنون «من القرد إلى أعلى» وهنا يضيف الابن السفير كون قائلاً: هكذا انغمس أبى فى النظريات العرقية، فى تلك الأيام التى كانوا يحترمون فيها التقسيم إلى أجناس وأعراق... الأيام التى كان يعرج فيها علماء الإنثربولوجيا إلى إفريقيا والشرق الأوسط مسلحين بخرائط ورسومات لألوان بشرة الإنسان وقوالب لقياسات الدماغ. طبعًا ليس لك أن تستعيد هذه السيرة فى أيامنا هذه وإلا وصفوك بأنك عنصرى، فالموضة فى مجتمعنا اليوم ألا تعترف بأن الشعوب والثقافات يمكن أن تكون مختلفة.

بيد أن كون الوالد ما لبث أن أصبح مشدودًا بالذات إلى «شعب الريف»، وهم قوم شقر من قبائل البربر ذوى العيون الزرق، ولم يكد يعرفهم أحد ويسكنون جبال أطلس فى المغرب، وكانوا أيامها يحاربون المستعمرين الفرنسيين. وكان والدى - يضيف السفير كون- يعجب بالمحاربين المغاوير ولا يستهويه صنف البشر المساوم فى بحر السياسة، كان أبى من طراز البريطانيين فى القرن التاسع عشر الذين شدهم الإعجاب بمحاربى الباتان، قبائل المقاتلين بشراسة الذين شهدتهم حدود أفغانستان مع الهند البريطانية. ثم وقع كون الأب وزوجته الجديدة -وكانت فى العشرين من العمر فيما كان فى الثانية والعشرين-

فـى قبضـة محاربى الريـف المغربـى عـام ١٩٢٦(*) الذيـن تصوروهما مـن الفرنسييـن وشرعوا يتناقشـون فيما بينهـم كيف يجهـزون عليهما، ولمـا كان كـون يتحدث فرنسية شديدة الركاكة؛ فقـد خلص رجال القبائل إلـى أنهمـا بالفعل أمريكيـان- حسب زعمهمـا- وسرعان مـا عقد والدى صداقـات مـع أحد أبناء منطقة الريف اسمه محمـد الأمنبهى ؛ بل وعاد به إلـى ماساشوستس عربونًا للصداقـة ولمزيد من الدراسـة. وعلى أساس حكايـات الأمنبهى كتـب الأب روايتين بعنوان«رجل مـن جبال الريف» و« لحـم الثور البري» وما زالت ذكريات طفولتـى تستعيد هذا الأمنبهى الذى ما لبث أن عاد إلى المغرب ومات بعدئذ مسمومًا.

(ولأن الأب والأم كانا فى حال من الترحال إلى أماكن بعيدة يجمعان كل ما يصل إلى أيديهما من أغراض وعينات، فقد تولت جدة الطفل رعايته حتى يشب عن الطوق). كان وضعنا المالى محفوفًا بالخطر. كان أبواى يحملان عصا الترحال كلما توافر فى أيديهما المال من هذه المؤسسة أو تلك. وحين لا يكونان على سفر كان بيتنا يسوده جو غريب حيث احتساء الشراب فى إطار من الخفة والسخرية معهود فى أجواء هارفارد.

ولم يكن أبى يتوقف عن اختراع النظريات، ولن أنسى ما حييت كيف أخذ يرقب باتريس لومومبا - زعيم الكونغو الوطنى على شاشة التليفزيون

(*) الإشارة هنا إلى ثورة جبال الريف بقيادة عبد الكريم الخطابى. «المترجم».

إبان أزمة الكونغو عام ١٩٦٠. وكانت أصابع أبى تتحرك، وكان بوسعك أن تلمح كم يود من صميم قلبه أن يضع هذه الأصابع على جمجمة لومومبا، فيما هتف لحظتها قائلاً: هذه ليست جمجمة من الكونغو.

نشر كون الأب أكثر من ٣٠ كتابًا، يعد بعضها من بين أفضل مؤلفات الرحلات والإثنوغرافيا فى أوائل ومنتصف القرن العشرين. وكان الأب كذلك جاسوسًا فى أثناء الحرب العالمية الثانية لمكتب الخدمات الخاصة الذى أنجب وكالة المخابرات المركزية فيما بعد، وكان من الطبيعى وضعه عن المكتب مؤلفًا بعنوان«حكاية من شمال إفريقيا»: عالم الإنثربولوجيا عميل لمكتب الاستخبارات ١٩٤١ - ١٩٤٣». ولقد ذهب أبى إلى ذلك المكتب متطوعًا بغير أدنى تردد ولو لم يكن المكتب قائمًا لأنشأه أبى وعمل فيه... لقد كان من الطراز المغامر... والوطنى أيضًا.

رجل من هذا الطراز كان جديرًا بأن يظل اسمه مذكورًا عند كل من يتعاطى الأدب والثقافة؛ لكن الأمر على خلاف ذلك فى الواقع، لأن الثقافة الأمريكية ليست على شاكلة نظيرتها البريطانية؛ حيث لا يزالون يكرسون أسماء كتاب أدب الرحلات ومؤلفى الإنثربولوجيا الوصفية، خذ مثلاً كتابه المنشور عام ١٩٣٥ بعنوان «المقاسات فى إثيوبيا والفرار إلى اليمن» والعنوان يشير إلى قيام «كون» الأب بأخذ مقاسات مقادير كبيرة من رءوس البشر فى إثيوبيا طاردوه ليطردوه خارج الحبشة، فولى وجهه شطر اليمن حيث صادفه حظ أفضل ؛ إذ وجد عينات بشرية وحيث يصف الأمر بقوله: ها أنذا أمثل خليطًا من الساحر والمهرج وراهب الاعتراف. وكم يخطئ القوم إذ يظنون أن ما أتمتم به من أرقام؛ إذ أقيس أدمغتهم، إن هو

إلا صلوات أرددها، وكثيرًا ما يسعد الفرد منهم أن يشعر بقدر من الأهمية وهو من غمار الناس عندما تؤخذ قياسات رأسه، ومعظمهم يتصورون أن أبى به مس من الجنون؛ ولكن من حسن الحظ أنهم يتسامحون مع الجنون فى تلك البلدان بأكثر مما يفعل القوم ببلدي.

مثل هذه السطور الساخرة ، يمكن أن ترقى إلى سخرية الكاتب «إيفلن دو» فى مؤلفه «سكوب»؛ أو تتوازى مع روبرت بايرون، فى الطريق إلى أوكسيانا ؛ لكنها تتضح أيضًا بشيء آخر يستدعى إلى الخاطر واحدًا من أعراف الكتابة البريطانية ذلك هو الحنين إلى بلاد العرب - أرابيا التى اجتذبت كون الأب بقوة، وما شده إليها سوى الجهامة التى تكسوها والفراغ الذى ينبسط فى أرجائها.

* * *

إن تفاؤله بالنسبة إلى بلاد العرب لم يكن بغير أساس فبفضل خدمات يهودى من اليمن اسمه «إسرائيل» ظل «كون» الأب ينعم بأيام هانئة؛ إذ يعكف من طلوع الشمس إلى غروبها على أخذ مقاسات رءوس من الجنس السامى. وفى هذا السياق يكتب «كون» الأب قائلاً: والحق أنه بغير «إسرائيل» هذا فلست أدرى ما عسانا كنا فاعلين فى اليمن.. ذلك لأن اليهود يعرفون عن العرب أكثر مما يعرف العرب عن أنفسهم، لكن على الرغم من أن كون الأب أحب يهود المشرق بكل ما يتفردون به؛ فإنه كان أقل شغفًا بالدولة الجديدة فى إسرائيل، وهو يذكر فى كتابه «القافلة» أن عام ١٩٤٨ ؛ ما لبث أن شهد حدثًا انتكس معه تيار تصفية الاستعمار، عندما

ارتدت مسيرة التطور؛ فاستطاع الإسرائيليون أن يخلفوا البريطانيين فى فلسطين وهم لا يزالون هنا.

وكتاب «القافلة» يعد أفضل كتب «كون» الأب، وهو عمل فكرى ينفطم على سطوره كثير من المستعربين الأمريكيين؛ إذ يستخدمون الجغرافيا لتفسير الخصائص الثقافية لشعوب الشرق الأوسط على اختلافها. وفى ذلك الكتاب يثنى «كون» الأب على الإسلام ؛ باعتبار أنه أتاح الدرجة المثلى من البقاء والسعادة لملايين من البشر وسط بيئة كانت تزداد مسغبة وحرمانًا. وهنا يعود المؤلف مؤكدًا استهانة مخيفة بالحياة العصرية وهو ما يشيع بين صفوف المستعربين وبين مؤلفى أدب الرحلات على السواء يقول: الجغرافيا تجلب الاستقلال.. والتكنولوجيا تهزمه، ومن ثم تراود بعض الهواجس بالدعوة إلى عالم واحد نعيش فيه فى ظل علوم التكنولوجيا... ولو كنا فى عالم واحد.. فأين يعيش المتمردون؟ وبغير المتمردين.. كيف يظل العالم واعيًا وفى غاية التأهب.

* * *

صدر «القافلة» عام ١٩٥١؛ لكن «كون» الابن السفير يقول بحزن: إن الكتاب بات الآن وكأنه ينتمى إلى عصر هيرودوتوس مؤرخ اليونان القديم.. والابن يبدو بدوره قطعة من شظايا ذلك البناء القديم: قد ينكر هذا... لكن بيته فى واشنطن أقرب ما يكون إلى روح ذوق أبيه: بيت من النوع الذى يرتاح فيه رجال من طراز الأب أو حتى من طراز رديارد كبلنج

شاعر الإنجليز فى الهند البريطانية.. كل الجدران مغطاة فى السقف بألوان تجليد الكتب القديمة ثم مساحات هائلة من الأرضيات، ربما أوسع مما فى بيت السفير بيل ستولفوز مغطاة بدورها بسجاجيد من أبدع ما أنتج الشرق.. ويفسر كون هذا الأمر بقوله: إن الدبلوماسيين يعشقون السجاجيد كما تعشقها قبائل التركمان سواء بسواء؛ لأنها- فى غالب الأحيان- هى متاع القبائل الرحل يحملونها من مكان إلى مكان فى أرجاء العالم المعمور ويودعونها من ثم تلك المساحات الحميمة المقربة إلى أفئدتهم.

السفير «كون» تبع خطى أبيه فى الدراسة فى أكاديمية فيلبس، ثم فى جامعة هارفارد لكنه قرر الالتحاق بالسلك الدبلوماسى؛ لأنه أقرب إلى ما كان عليه الأب ؛ وإن جاء مختلفًا، وهو يقول : إن أبى كان سعيدًا بهذا القرار.

هكذا جاء يوم الفاتح من سبتمبر ١٩٥٢ حين وصل«كون» إلى دمشق. وهو يتذكر التاريخ إذ استقبله يومها فى المطار واحد آخر من عشاق السلك الدبلوماسى هو ويليام إيجلتون ويقول: كانت تلك المرة الأولى التقى فيها مع إيجلتون ومن يومها ونحن من أخلص الأصدقاء. ولقد قدر ايجلتون أن يلعب فى الثمانينيات دورًا مهمًا فى علاقات أمريكا مع العراق.

أمضى «كون» السنوات الأربع التالية فى دمشق، وكانت تلك فترة طويلة لشاب فى العشرينيات من العمر. ولم يقتصر الأمر على أن المكان ضم كون وإيجلتون؛ بل وكان هناك أيضًا بيل ستولفوز وآرثر كلوز وعدد آخر من الأمريكيين المستعربين. وهنا قد يحتاج السياق إلى قدر من التفاصيل لرسم معالم الجو السياسى الذى كان يسود المكان باعتبار أن

سوريا فى الخمسينيات؛ كانت عالمًا قائمًا بذاته لا يضم دمشق أو حلب فحسب بل ويشمل أيضًا الجامعة الأمريكية فى بيروت القريبة من المكان بعد أن أصبحت بيروت جزءًا من دولة لبنان المستقل.

يقول السفير «كون» : لقد أثرنا غضب السوريين الشديد وكانت تلك تجربة جديدة بالنسبة لهم. وقلما تعرضت علاقة بين بلدين إلى ذلك التحول السلبى فى مدى قصير على نحو ما حدث فى العلاقة بين الولايات المتحدة وسوريا ؛ ذلك لأن العلاقة الأمريكية- السورية انقلبت رأسًا على عقب بعد عام ١٩٤٦ ؛ حين كان لوى هندرسون الأمريكى يدافع عن حقوق السوريين ضد قوات ديجول الفرنسية، تمامًا كما سبق للرئيس ويلسون وصديقه تشارلس كرين الدفاع عن السوريين ضد الفرنسيين والبريطانيين، وخلال عام ١٩٤٧ حين أعلن ترومان تأييده لقيام دولة يهودية.

هكذا أفضى قرن بأكمله شهد محبة وعطفًا وحدبًا من جانب المبشرين الأمريكيين إلى للعرب السوريين؛ إلى تصادم بليل مع إحدى الطروحات المتأصلة فى صميم الليبرالية الغربية مجسدة فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين. هكذا تحولت نظرة السوريين إلى الأمريكيين من المستوى الأرفع الذى كان حتى عام ١٩٤٦ إلى المستوى الذى رءوا فيه الأمريكيين بوصفهم عناصر الخطر التى تهدد كيانهم بالتجزئة والتقسيم.

كان الفرنسيون قد اقتطعوا لبنان، واقتطع البريطانيون شرق الأردن؛ ثم ها هم اليهود يكملون ما شرع به البريطانيون لكن بدعم أمريكى هذه المرة، باقتطاع فلسطين. من هنا جاءت صيحات وحدة الصف العربى

ضد اليهود، وكانت تقصد مبدئيًا - على الأقل - دعوات إلى إعادة قيام سوريا الكبرى؛ لكن فيما كان السوريون يتوقون إلى عودة فلسطين فضلاً عن سائر المناطق السليبة ؛ فإنهم كانوا يلقون أشد الصعاب فى إكمال مسيرتهم ذاتها، إذ كان الفرنسيون قد منحوا استقلالاً ذاتيًا للعلويين فى الشمال الغربى وللدروز فى الجنوب. لكن فى وقت الاستقلال الذى حان بعد ربع قرن من ذلك التاريخ أعيدت هذه المناطق فجأة لتتوحد تحت حكم دمشق؛ مما زاد الكيان السياسى صعوبة وتشوشًا.

* * *

وثمة خرافة عمدت إلى إذاعتها عن سوريا وسائل الإعلام الأمريكية التى تعوزها ذاكرة التاريخ.. وتابعها فى ذلك مؤيدو إسرائيل؛ محاولين إبراز فرق محتمل بين ديمقراطية الدولة اليهودية وبين عدم ديمقراطية الدول العربية.. توهم تلك الدراسة أن سوريا بلد لم يشهد أهله من العرب تجربة فى الديمقراطية أو فى سيادة القانون، وهذا مخالف للحقيقة على طول الخط على نحو ما يشهد به أى مستعرب أجنبى عاش فى سوريا فى الخمسينيات، فليس من بلد عربى عاش مثل سوريا تجربة الديمقراطية على الطراز الغربى ومارسها بكل حرية وإخلاص وسط ظروف غير مواتية على كل حال وكان ذلك فى الأربعينيات الخمسينيات ؛ بل تشهد ذاكرة التاريخ بأن فشل الديمقراطية جاء أوثق اتصالاً بتركة الاستعمار الأوروبى؛ أى بعد إنشاء إسرائيل جزءًا منها قبل ارتباطه بخصائص تاريخية أو ثقافية فى صميم تكوين السوريين أنفسهم.

فى يوليو عام ١٩٤٧، كان هندرسون قد ساعد فى وقف القوات الفرنسية هجماتها على سوريا. وعلى الرغم من أن نفوذ فرنسا - وهو يسعى إلى تقسيمها : كان لا يزال محسوسًا - فإن سوريا أجرت انتخابات عامة وكانت النتيجة متوقعة بالنسبة إلى بلد كان قد تشكل لتوه من واقع مجتمعات سياسية متنازعة... وقد فاز الحزب الوطنى الذى يتزعمه شكرى القوتلى بأصوات تفوق ما حصلت عليه أى جماعة أخرى، لكنه لم يكن قادرًا إلا على تشكيل حكومة أقلية؛ فيما ذهب النصيب الأكبر من الأصوات لصالح مختلف المستقلين الذين كانوا يمثلون شتى المصالح العرقية والإقليمية.

ولكن تحت السطح؛ كان الواقع أدهى وأنكى سبيلاً، ويذكر حبيب كحالة فى كتابه «مذكرات نائب»: لقد أجلت النظر من حولى فلم أر سوى حزمة من المتناقضات، كانت المهانة التى ألحقتها إسرائيل بالجيوش العربية فى حرب الاستقلال عام ١٩٤٨(*) قد ألحقت الضعف بالحكومات المنتخبة ديمقراطيًا؛ وعندها دبر حسنى الزعيم- رئيس الأركان السورى- انقلابًا فى ٣٠ مارس ١٩٤٣؛ وهو أولى الحلقات من سلسلة استيلاء العسكريين على السلطة فى مرحلة ما بعد الحرب الثانية بالعالم العربى؛ يومها رقصت الجماهير فى شوارع دمشق.

«حسنى الزعيم» لم يكن يمتلك أى سياسة متجانسة، تتيح له التوفيق بين الانتماءات السورية المختلفة على الصعيد الداخلى التى ورثها عن

(*) هى حرب سلب فلسطين فى الأدبيات العربية المعاصرة . «المترجم» .

سوريا تحت سيطرة الفرنسيين. وسرعان ما أطيح به فى انقلاب عسكرى آخر؛ بل وحوكم «حسنى الزعيم» عسكريًا وأعدم رميًا بالرصاص، وما لبث الحكم العسكرى التالى أن أعاد من جديد عملية تنظيم انتخابات وطنية جديدة لم يقدر لها أن تتم إلا فى عام ١٩٤٩. وجاءت نتائج التصويت على شاكلة التشتت نفسها التى جاءت عليه فى عام ١٩٤٧؛ مما دفع بهذه التجربة الديمقراطية الأخيرة إلى هاوية الفوضى بسبب احتدام التنافس بين الطوائف المختلفة التى اشتد عودها على أيام الفرنسيين.

من هنا اتسمت تلك الفترة بالاضطرابات والتظاهرات على نحو ما يكثر حدوثه فى المجتمعات الديمقراطية؛ لكن الذى كثر حدوثه أيضًا كان الاغتيالات السياسية.. على أن هذه الفوضى انتهت فى ديسمبر عام ١٩٤٩ عندما استولى العقيد أديب الشيشكلى على السلطة فى انقلاب عسكرى جديد.

كانت مقدرة الشيشكلى على إعادة النظام إلى نصابه دافعًا كى يطلق عليه المراقبون الأجانب وصف «أتاتورك العالم العربى» ؛ لكن كان الشيشكلى وليس غيره هو الذى بدد تصورات الأجانب بأن بوسع سوريا أن تجد طرقها نحو الاستقرار. ففى عام ١٩٥٣، أعرب عن أسفه علنًا لأن سوريا ما هى إلا الاسم الرسمى الحالى لبلد يقع ضمن الحدود التى سبق أن رسمها الاستعمار.. والمشكلة أن الرجل كان على حق فيما يقول.

فى عام ١٩٥٤، أطيح بأديب الشيشكلي؛ لأن اتجاه الشيشكلى أغضب عناصر مختلفة داخل الجيش وخارجه؛ ما دفعهم إلى التخلص من الرجل.

ولم تنقض أشهر قليلة؛ حتى جاء خريف ١٩٥٤م ليشهد السوريون وقد أجروا انتخابات برلمانية حرة ونزيهة. وجاءت نتائجها أقرب ما تكون إلى انتخابات الجزائر فى عام ١٩٩٢ التى أوصلت الأصوليين الإسلاميين قاب قوسين أو أدنى من السلطة، جاءت لتشكل دليلاً على أن الديمقراطية الغربية لا تتيح حلاً سريعًا لأدواء المجتمعات العربية.

لقد فاز بأكبر عدد من المقاعد المستقلون والطائفيون؛ فيما جاء على رأس الفائزين منذ انتخابات عام ١٩٤٩ حزب البعث، وهو جماعة جديدة حاولت تخطى الانقسامات العرقية والدينية من خلال أطروحات تدور حول اقتصاد على الطريقة الشيوعية وسياسة موالية للاتحاد السوفيتى.

وكما قدر للدبلوماسى الأمريكى هندرسون وصحبه مشاهدة فظائع الستالينية، أصبح هذا الجيل الجديد من موظفى السلك الدبلوماسى الأمريكى شاهدًا على ظاهرة جديدة ومؤلمة لم يكن ليفهمها سوى قلة من الأمريكيين.

لقد كان «كون» وزملاؤه شهودًا على نضالات سوريا ؛ ومن ثم إخفاقها فى التخلص من التركة الثقيلة التى تخلفت عن تاريخ الاستعمارين العثمانى والأوروبى على السواء، وهو تاريخ كانت الدولة الصهيونية الجديدة تقف دائمًا شاهدًا عليه وعلى مسافة أقل من ساعة بالسيارة من دمشق - قامت وهى تتألف إلى حد كبير من مهاجرين أوروبيين جاءوا بأساليب غريبة تتحدى بعنف الثقافة العربية- الإسلامية الأصيلة بدلاً من أن تتواءم معها، ولم يكن هؤلاء المهاجرون اليهود بحاجة إلى مدارس تبشيرية ولا آلات

طباعة : كيف كى تعلمهم تكون الوطنية أو القومية، ثم زادت جراحات الجالية الأمريكية الوافدة إلى سوريا عندما استطاع الإسرائيليون بسرعة ويسر إقامة دولة على غرار الأسس الليبرالية الغربية؛ بينما عجز عن ذلك عرب سوريا على الرغم من مرور أكثر من قرن من المساعدات التى تلقوها من المبشرين البروتستانت. وألقت هذه الحقيقة بظلالها على الدبلوماسيين الأمريكيين وبعضهم كان ينحدر من عائلات تبشيرية... وكانوا يتفاعلون بدورهم مع جالية الوافدين.

* * *

كانت إسرائيل هى أبرز الأسباب لا لمعاناة سوريا السياسية فحسب؛ بل ولكراهية السوريين الذين أضمروها لأمريكا.. كراهية شديدة لأنها كانت مستجدة وغير متوقعة ؛ ثم إنها كانت قد بدأت تدفع السوريين نحو السوفييت، عدو أمريكا رقم واحد.

ولم تكن تلك كراهية عمياء ؛ فقد كان الدبلوماسيون يعرفون ما لم يكن يعرفه الأمريكيون الآخرون: إن الإسرائيليين ليسوا كما يتصورهم الأمريكى العادى فرسانًا فى دروع متألقة ولا كان السوريون من فصيلة الوحوش مثلاً، كان ألفرد ليروى أثرتون-السفير فيما بعد فى مصر- دبلوماسيًا شابًا بسوريا فى الخمسينيات على نحو ما كان «كون» وإجلتون وستولفوز، ولكنه لاحظ أن الكيبوتسات (المزارع الجماعية) الإسرائيلية التى يطلق عليها النار الجنود السوريون من مرتفعات الجولان، لم تكن

بالضحايا البريئة على نحو ما صورته أجهزة الإعلام الأمريكية فتقول : صحيح أنهم كانوا مزارعين إسرائيليين؛ لكنهم لم يكونوا مجرد مزارعين عاديين.. لقد كانوا من الفئة شبه العسكرية ، ولم يكن وجودهم مقتصرًا على أرض إسرائيلية بل وعلى خط الهدنة حيث كانوا يعمدون إلى استفزاز السوريين. ولهذا طرحت وجهة النظر السورية لدى عودتى إلى واشنطن، وشعرت - فى ذلك الوقت - بالتعاطف مع العرب؛ مدركًا أن للإسرائيليين كثرة من المتعاطفين وأنهم أقدر على تدبير أمورهم بأنفسهم.

بيد أن الحياة اليومية فى سوريا؛ كانت بدورها درسًا حول ما يمكن أن يساعد به الطابع القومى - الوطنى فى زيادة الأحوال تفاقمًا. وهنا نعود إلى كارلتون كون.. يقول: ثمة عقدة نفسية كانت خليقة بالسوريين، أتذكر استعراضًا عسكريًا خرجت فيه دبابة عن مسارها فقتلت واحدًا من المشاهدين، وتصادف وجود سائح أمريكى فى المنطقة يحمل كاميرا تصوير فما كان منهم إلا أن اعتقلوه... والحق أن لكل من السوريين والإسرائيليين القدرة على تصور وقوع الظلم. ويحتاج الأمر إلى اختراعهم درجات جديدة على مقياس «ريختر» لقياس الاهتزازات العاطفية عند الشعوب السامية فى الشرق الأوسط.

يواصل «كون» الحديث قائلاً:

أتذكر حفل استقبال فى دمشق، ظل فيه صحفى سورى يلقى على مسامعى محاضرة حول أمريكا وكيف أنها تعمل على نشر سرطان يأكل قلب العالم العربي... ويومها انفجرت مجيبًا: إن إسرائيل جاءت لتبقى؛

لأنه ما من طرف خارج الشرق الأوسط عازم على التخلص منها، وأنتم أيها القوم لا تملكون لا العزم ولا الإرادة على أن تفعلوا ذلك بأنفسكم. ساعتها رمقتنى نظرات المستعربين الآخرين فى القاعة متهامسين: لقد تهاوى «كون»؛ لأننى فقدت هدوئي، وساعتها عرفت أننى لم أقدم حقيقة على الخطوة الأخيرة التى تجعل منى مستعربًا حقيقيًا؛ وهو ما كنت جديرًا أن أكونه نظرًا للخلفية التى عاشها والدى.

ومن ناحية أخرى ذكر «كون» فى حديث منشور آخر؛ أن إسرائيل تخرب الجو أمام الدبلوماسيين الأمريكيين فى المنطقة، وقال إن من الوضوح بمكان فى أعين المتفاعلين مع الحقائق، أن إنشاء إسرائيل ربما كان أخطر العوامل المنفردة التى أضرت بسياسة أمريكا ومصالحها فى الخارج منذ أحداث الحرب العالمية الثانية وأن لهذا العامل آثاره على المدى البعيد.

«إن ما تفعله إسرائيل بالنسبة لمصداقيتنا ولمركزنا - لا فى دول العالم العربى وحده بل فى كل أنحاء العالم الثالث - لأمر فى غاية الوضوح لكل من ينظر إليه ويمعن فيه التفكير».

وقال «كون» كذلك: «ثمة أجزاء من الشرق أردت أن أزورها خلال فترة خدمتى»؛ وعليه فقد حزم «كون» متاعه فى صيف ١٩٥٦ فى سيارته الفورد «الستيشن واجون» وسافر بها برًا إلى العراق ثم إيران وأفغانستان وباكستان «إلى حيث مركزى الجديد فى نيودلهى» ويومها قال:«لقد اضطررنا إلى تغيير ١٣ إطارًا معطوبًا فى السيارة طوال رحلتنا

لكنه ما لبث أن عاد فى عام ١٩٦٣، إلى الشرق الأوسط بوصفه قنصل الولايات المتحدة فى مدينة «تبريز» شمال غربى إيران. وهو يصف الأمر بقوله : «كان ذلك رائعًا. تبريز كانت فى أوج ٨٠٠ سنة من الانحدار».

ثم عاد «كون» إلى العالم العربى ليخدم فى المغرب. وبعد تقاعده أمضى جانبًا من وقته لتحرير مذكرات «دانييل بليس» مؤسس جامعة بيروت الأمريكية ولأن «كون» لم يتقن العربية قط؛ بل وأمضى ردحًا طويلاً من خدمته خارج العالم العربى فهو معروف بأنه«مستعرب» الشرق الأدنى أو «مشد» وهو أقرب الفصائل إلى المستعرب الحقيقي. بل إن «كون» يعرف هذه الفئة «مشد» بأنها أفضل مكتب بالخارجية الأمريكية، ذلك لأن المسئولين فى مكتب شرق أوروبا لم يقدر لهم التعامل مع أى شغب فى عام ١٩٨٩، ولم يقتل بينهم سفير، أما موظفو الشرق الأدنى فهم يعرفون معنى إطلاق الرصاص أو معنى التعرض لحمى الصحافة والإعلام.

كل هذه الأطروحات تساق عفو الخاطر بغير مرارة أو سوء قصد، إن«الدبلوماسى كون» يدرك أنه أنجز خدمة ناجحة فى السلك الدبلوماسى الأمريكي، وهو يلحظ زائره من مسافة متباعدة وبنفس مطمئنة كما لو كان يفحصه بمنظار مكبر، ويفسر الأمر بقوله: إن حياته خارج الوطن وهبته قدرًا من الحكمة؛ مما حصنه ضد «ادعاء الثقافة» وتعاطى السياسات المحلية فى أمريكا ؛ وتلك متوالية مترابطة الحلقات يعدها «كون» نعمة يشكر ربه عليها.

«تالكوت ويليامز سيل» شخصية أخرى ما زالت موضع ترحيب، شأنه شأن معاصريه من رفاق الصبا من أمثال بيل ستولفوز وآرثر كلوز،

وقد يضاف إليهم جورج بوش أيضًا ؛ على الرغم من أنه صوت ضد بوش فى الانتخابات الرئاسية حتى رغم اتفاقه بشكل عام مع الرئيس السابق فى سياسته الشرق أوسطية، فإن سيل - كما يعمد بنفسه إلى التوضيح «ليس رجل البعد الواحد فى أى قضية». إن بيت سيل فى منطقة واشنطن تتجلى فيه الآثار المادية التى تنبئ عن حياة أمضاها فى العالم العربي: سجاجيد شرقية ومنمنمات وصور محفورة عن الأراضى المقدسة وكتب قديمة عن الشرق الأوسط، وهو يقول: إننى أقرأ كثيرًا من الكتابات الجديدة عن المنطقة؛ ولكن أحيانًا أعود إلى الكتب القديمة مثل كتاب جورج أنطونيوس بعنوان «يقظة العرب»، وعندما يبلغه زائره (مؤلف الكتاب) أنه بسبيل وضع كتاب عن«المستعربين» ، إذا بالسيد سيل - وهو - سيد مهذب مولود فى بيروت عام ١٩٢١ يبتسم بعمق ويرد بتوجيه سؤال: هل قرأت «شواطئ الحب البرية ؟ ».

هذا العمل من تأليف «بفرلى بلانش»، عبارة عن كتاب خامل الذكر حول أربع نساء من العصر الفيكتورى فى إنجلترا؛ يحاولن - كما قد نقول- وضع شخصياتهن فى بيئات فريدة وغريبة كمن يبحثن - كما يقول الكتاب المذكور - عن ذلك الذى تلاشى من الغرب.. ذلك الذى يشدهن إليه فى باطن اللا شعور. ذلك الجو الشرقى من الاستغراق فى التأمل ، من الاستبطان.. فى كينونة الأشياء وكيفيتها ؛ حيث تصل الأشياء إلى جوهرها فإذا به حالة من السكون اللذيذ أقرب إلى الشهوة... وأبعد تمامًا

عما يعرفه الغرب، لكن صاحبنا «سيل» ليس من أهل الترف اللذيذ... وعلى الرغم من أن خدمته كانت عاصفة- فى بعض الأحيان- أوصلته بعد ترك السلك الدبلوماسى إلى صدامات عنيفة مع الجماعات الموالية لإسرائيل، فإنه وصل - فيما يبدو - إلى حالة الجوهر والكيف الخاصة به ؛ على الرغم من أنه ينكر بشدة أنه رجل رومانسي؛ بل يفضل أن يصف نفسه بأنه : «برجماتي»، واقعى وصاحب قضية ويقول: إن الزخارف التى تزين بيتى من صنع زوجتي.. ولا يكاد يهمنى جمع التحف الشرقية.. وعندما كانت تذهب إلى السوق فى الشرق.. كنت أقبع باعتبارى رياضيًا - فى ملعب التنس.

الخلفية العائلية للسيد «سيل» تبدو كأنها تاريخ الحركة البشرية البروتستانتية فى العالم؛ جده الأعلى لأبيه كان رئيسًا لكلية أمهرست حين كان دانييل بليس تلميذًا بها، وجده الأعلى لأمه كان من أوائل المبشرين فى تركيا والعراق. هذا الجد بالذات، ويليام فردريك ويليامز المولود فى عام ١٨١٩ - عام إبحار أول مبشرين إلى الشرق الأوسط. أصبح أخوه ويليز ويليامز مبشرًا فى الصين. وهو الذى عمل بفضل إتقانه الصينية واليابانية مترجمًا للكومودور «بيرى» الذى فتح اليابان أمام التجارة فى عام ١٨٥٢، ويفسر«سيل» الأمر فيقول: لقد تعهد جدى الأعلى بأن ينذر ولديه لخدمة الرب؛ فذهب أولهما إلى الصين واتجه الآخر إلى الشرق الأوسط.

على أن «سيل» كان مستعربًا من أبناء جيله، يشعر بقرابة دم تربطه مع موظفى شئون الصين.. فى الخارجية الأمريكية - هؤلاء المبشرون

البروتستانت وأخلافهم الدبلوماسيون فى الصين الذين تعرضوا لنقد عنيف، شأنهم شأن المستعربين فى عقد الخمسينيات. وفى هذا يقول «سيل»: نحن جزء من نفس شجرة العائلة. وفى رأيه أن موظفى شئون الصين وقعوا فريسة بين براثن المكارثية؛ فيما وقع المستعربون بين مخالب اللوبى الجديد الموالى لإسرائيل.

وفيما كانوا يتهمون موظفى الصين بأنهم أضاعوا الصين لصالح الشيوعيين ؛ فقد ألصقوا بالمستعربين صفة معاداة السامية. ويتساءل صديق للدبلوماسى «سيل» من ضيع الصين؟ ومن عارض قيام إسرائيل؟ إنه ؛ الاتهام نفسه فى الحالتين إن كل ما فعله موظفو شئون الصين أنهم كانوا يبلغون عن حقيقة ما يجرى؛ طغمة شيانج كاى شيك كانت فاسدة، وماوتسى تونج كان فى طريقه للاستيلاء على الصين.. وكذلك فعلنا – أبلغنا عما كان يجرى حقًا وصدقًا فى الشرق الأوسط (جورج بوش، الذى كان أكبر دبلوماسى أمريكى بالصين فى السبعينيات يمكن اعتباره من متأخرى اختصاصى الصين، لكن لأن بوش لم يتعلم الصينية قط فقد يوصف– على نحو أدق– بأنه من النوع ذى الاهتمام الصينى؛ وقد يفسر هذا تدليله للنظام الشيوعى إبان فترة رئاسته).

وصل ويليامز فردريك ويليامز– جد «سيل الأعلى – إلى سوريا فى عام ١٨٤٩ فى سن الثلاثين، وفى عام ١٨٥١ انتقل إلى الموصل حيث تمكن بعد سنتين من ذلك التاريخ من إنقاذ حياة الحاخام شوليوم رئيس الطائفة اليهودية الذى اعتقله المسئولون العثمانيون بتهم فظيعة.

الأمريكيون فى الشرق الأوسط كانوا متعاطفين – بعامة– مع يهود المشرق، سواء كان هؤلاء الأمريكيون من المبشرين أمثال صاحبنا ويليامز أو من الباحثين – المغامرين مثل «كون» الابن.. بعد ذلك انتقل

المبشر ويليامز إلى ماردين قرب حدود سوريا - تركيا حاليًا؛ حيث تمكن من حيازة بعض العاديات الآشورية التى لا تقدر بثمن بعد اكتشافها فى حفريات نينوى القديمة. وقد توفى ويليامز فى جنوبى تركيا عام ١٨٧١ بعد أن عاشر أربع زوجات على التوالى، ماتت كل منهن بعد المرض فى الشرق الأوسط، وعادت إحدى بناته إلى نيو إنجلاند حيث تزوجت قسيسًا هو ويليامز شامبرز، جد الدبلوماسى «سيل»، وقد غير شامبرز مذهبه بإلحاح من زوجته وتخرج فى جامعة برنستون، ثم توجه كمبشر إلى شرقى تركيا ناسجًا على منوال حمية المبشر ويليامز.

شامبرز هذا كان شاهد عيان على مذبحة الأرمن الجماعية، وقد كتب نداء مؤثرًا إلى الرئيس الأمريكى ويلسون يحث فيه على انتهاج سياسة أكثر فعالية لأمريكا فى المنطقة. وكان شامبرز أيضًا على معرفة وثيقة بالضابط البريطانى شارلس دوتى ابن أخ دوتى (رائد الاستعراب) وسميه أيضًا، وكان الصديق المفضل للمستشرقة «جرتود بل» التى عملت فى العراق.

وقد ولدت أم الدبلوماسى «سيل» فى «أرضروم» فى جنوب شرقى تركيا حيث مقر أبيها. وعندما كانت تمضى دراستها العليا فى الشئون الإسلامية فى جامعة كولومبيا بنيويورك التقت مع والد «سيل» لورنز سيل، الذى كان بدوره ابنًا لكاهن.. وانتقل الزوجان إلى بيروت عام ١٩١٩؛ حيث حصل والد «سيل» على وظيفة أستاذ علم النفس والفلسفة بالجامعة الأمريكية فى بيروت.

وقد نشأ «سيل» في بيروت في العشرينيات وهو يبادر إلى القول: « كانت نشأتي في لبنان أمريكية ألفين في المائة. ولقد قاومت بعنف تعلم العربية في طفولتي ثم تعلمتها مثل أي موظف آخر بالسلك الدبلوماسي». وبخلاف ذلك، فإن ذكرياته تشع عاطفة نحو بيروت الغافية والمسالمة : إذ كان يحفُ به الخدم من الأرمن وهم لاجئون من الاضطهاد التركي. ثم يقول: لقد تغيرت الأوضاع، إن إسرائيل هي واحد من العوامل التي أدت إلى تسييس لبنان.

عندما عاد «سيل» إلى منطقة أسلافه في نيو إنجلاند درس في معاهد نورثاستون وماساشوستس وكانتون – نيويورك قبل توجهه ليدرس في أكاديمية «ديرفيلد» وكلية «أمهرست» ... لم تكن فكرة العودة ثانية إلى الشرق الأوسط تخطر في باله – عودة يكرس فيها حياته وعمله على نحو ما فعل أبوه وجده وجد أبيه؛ فإن الحرب العالمية الثانية جاءت لتشهد «سيل» وقد تحولت به الأقدار للخدمة في إيران قبيل زحف ستالين على تلك المنطقة.

وقد ساعد لوي هندرسون – الدبلوماسي الأمريكي – على الحيلولة دون إتمامه؛ وبعد أن انخرط سيل في السلك الدبلوماسي – الأمريكي أرسلوه إلى ألمانيا المحتلة ؛ حيث كان «جون ماكلوي» مفوضًا ساميًا. كان ماكلوي من الحكماء من أمثال هندرسون وماكلوي وجورج كينان وتشارلس بوهلن وعندما جسروا على تناول– في تقاريرهم– الجوانب السلبية من الواقع الروسي، فقد استهدفت تناول السهام نفسها طائفة المستعربين– من الدبلوماسيين الأمريكيين – من أبناء جيله؛ لأنهم جسروا على تناول في تقاريرهم– الجوانب الإيجابية من الشئون العربية.

يقول «سيل»: إنه تراوده مشاعر مختلطة إزاء خدمته فى ألمانيا بعد الحرب؛ نظرًا لما فعله النازى فى اليهود، ولقد أتجهت إلى الشئون العربية أساسًا؛ إذ كان ثمة عدد ضخم من المواطنين الأمريكيين المتحدثين بالألمانية، ولذلك كان الشرق الأوسط فرصة سانحة لمستقبل مرموق. لكن فى ضوء تاريخ عائلى أحسب أن علاقتى بالعرب علاقة متوازنة؛ ولقد فقدنا فى أمريكا ميزة الأسرة الممتدة إلى بطون وفروع؛ لكن العرب لا يزالون يحتفظون بهذه الميزة على مدى أجيال».

إن «سيل» ليس المستعرب الوحيد - من جيله- ممن خدموا شبابًا فى السلك الدبلوماسى فى ألمانيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية نفس التجربة نفسها خاضها رفيقان له - هما «باركر هارت» و«ألفرد ليروى أثرتون» وكلاهما أصبح فى المستقبل مساعدًا لوزير الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط؛ فضلاً عن أفراد آخرين من المستعربين وجميعهم يدعو أن هذا النشاط شحذ إحساسهم بمعاناة اليهود وشجعهم على الاهتمام بالنزاع العربى - الإسرائيلى يقول قائلهم: فى ألمانيا أصبح واضحًا أن الشرق الأوسط سيكون ساحة العمل الفعال فى المستقبل.. ولهذا أردت أن أذهب إلى هناك! أما حقيقة أن كلاً منهم طلب انتدابه للعمل فى العالم العربى وليس فى إسرائيل فتفسرها مقتضيات المهنة إذ كانوا ينظرون إلى إسرائيل منذ مولدها على أنها طريق مسدود لأفراد السلك الدبلوماسي، فلماذا يتعين مثلاً على الدبلوماسى أن يتعلم العبرية التى لا تفيد إلا فى بلد واحد؛ بينما لو تمكنت من العربية فلسوف تفتح أمامك أبواب أكثر من عشرين قطرًا؟ مع هذا كله فلا يزال الأمر جديرًا بالملاحظة؛

أن يطلب «سيل» وزملاؤه بعد معايشة التجربة فى ألمانيا - بعد هتلر - وما زال رماد اليهود ساخنًا ، الالتحاق بوظائف السلك الدبلوماسى فى العالم العربى خلال السنوات الأولى من الصراع العربى - الإسرائيلى.

فى عام ١٩٥٢ ، غادر سيل ألمانيا عائدًا إلى مدارج صباه فى الشرق الأوسط، ولم يكن قد رآها منذ الثلاثينيات قبيل التحاقه بأكاديمية ديرفيلدز هناك وجد كل شيء حميمًا ومألوفًا. أول موقع له كان فى عمان فى الأردن حيث تسنى له - على الرغم من تواضع مركزه الدبلوماسى أن يتمتع بعلاقات خاصة مع نصف مجلس الوزراء ؛ إذ كان نصف الوزراء تلاميذ سابقين لوالده فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، على أن سيل لم يتلفت إلى الوراء قط. بعد أن تعلم العربية على يد مدرس فلسطينى وجد نفسه يمضى السنوات الثلاثين التالية بوصفه دبلوماسيًا أمريكيًا فى العالم العربى دون انقطاع، اللهم باستثناء مهمة هنا أو مأمورية هناك بوزارة الخارجية الأمريكية؛ حيث كان عمله يدور فى معظمه على العلاقات العربية - الأمريكية؛ وإن كان قد عمل مساعدًا أقدم لوزير الخارجية للشئون الإفريقية.

على طول هذه المسيرة اكتسب سيل ما يمكن اعتباره آراء المستعربين التقليدية. اكتسب إعجابًا بمستعربى الماضى من البريطانيين ، وشعر بأن إزاحة الإسرائيليين للفلسطينيين العرب - من فلسطين هى المشكلة المحورية فى الشرق الأوسط، وهى المسئولة- إلى حد كبير- عما يستبد بالمنطقة من عنف وزعزعة للاستقرار. يتكلم سيل مسترسلاً عن أحداث أكتوبر ١٩٧٣ عندما كان سفيرًا فى تونس، يومها أرسل برقية إلى وزير خارجيته هنرى كيسنجر ينصحه فيها بأن يرسل أسلحة للدفاع عن إسرائيل بعد أن باغتها هجوم مصر وسوريا.

وعلى الرغم من أن كيسنجر وجَّه إليه اللوم على ذلك؛ فإن كيسنجر كان أول من يعرف مقدرة سيل ومهارته كاختصاصى فى الشئون العربية ومن ثم أوفده بوصفه مبعوثًا خاصًا إلى لبنان عام ١٩٧٦ بعد اغتيال السفير الأمريكى فرانسيس ميلوى.. وفى بيروت عمل سيل جاهدًا لتدبير الإجلاء دون ضجة كبيرة للدبلوماسيين الأمريكيين وعائلاتهم وسط احتدام الحرب الأهلية؛ بيد أنه تعرض للنقد بغير حق إذ استخدم فى هذه العملية رجال أمن من منظمة التحرير الفلسطينية؛ ويفسر هذا بقوله: استخدمت عناصر منظمة التحرير لأنها ببساطة كانت تسيطر على المنطقة التى تعين علينا اجتيازها.

وعندما كان سيل سفيرًا لدى سوريا فى عام ١٩٨١؛ كانت برقياته الدبلوماسية- وبعضها رآه معززًا للإجراءات السورية - تسبب التوتر العصبى لدى فرانسيس فوكوياما المفكر الأمريكى المعاصر وكان وقتها ضمن هيكل موظفى الخارجية الأمريكية ؛ فإذا به يكتب على هوامش تلك البرقيات : « تالكوت سيل هو السفير السورى فى واشنطن وليس السفير الأمريكى فى سوريا». لكن الأمر كان من وجهة نظر سيل: « إننى كنت أنحنى إلى الوراء كى أثبت أننى لست متحيزًا بحكم الأمر الواقع». لكن عندما حل صيف ١٩٨١ ؛ كان سيل قد طفح به الكيل إزاء سياسة إدارة ريجان الجديدة ووزير خارجيته ألكسندر هيج التى قامت على التأييد البالغ لإسرائيل ولم يعرض عليه القوم ترقية؛ فما كان منه إلا أن عمد فى ٣١ أغسطس إلى استدعاء مراسلى جريدة واشنطن بوست ووكالة أسوشيتدبرس - إلى مكتب السفير فى دمشق؛ ليعلن خبر اعتزاله السلك

الدبلوماسى.. وإذ خلد إلى كرسيه الوثير صرح السفير «الأمريكي» «سيل» بأن عملية كامب ديفيد قد وصلت منتهاها، وأنه ينبغى متابعة بذل جهود لإقرار السلام ضمن إطار مختلف. ودعا الولايات المتحدة إلى المبادرة فورًا للاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وانتقد بألسنة حادة رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن وكذلك المستوطنات المزروعة فى الضفة الغربية. ويصف صامويل لويس- كان وقتها سفيرًا لأمريكا فى إسرائيل- هذا التصرف الذى أقدم عليه زميله سيل بأنه تصرف «مهين».

وفى مايو ١٩٨٢، بعد أن أصبح «سيل» مواطنًا عاديًا خاطب الرابطة الوطنية للعرب الأمريكيين قائلاً: سيكون من واجبنا أن نقنع إسرائيل بأن القدس الشريف لا يمكن أن تظل مقاليدها إلى الأبد بين أصغر الأديان وأقلها شأنًا وهى الأديان التى جعلتها مدينة مقدسة... واستخدم «سيل» عبارات كانت خليقة لتحقيق المصالح القومية للولايات المتحدة، وفى أواخر تلك السنة كان سيل يتحدث أمام رابطة خريجى كلية أمهرست؛ فانتقد وزير دفاع إسرائيل - وقتها إيريل شارون - الذى رأى فيه سيل عنصرًا لا يفترق عن أفراد قوات العاصفة النازية.

ولك أن تتوقع أن سيل لم تكن علاقاته سهلة مع اليهود الأمريكيين وهو يتذكر مناسبة دعيت فيها مجموعة من مستعربى الخارجية الأمريكية إلى عشاء يهودى لجمع التبرعات، وفى نهاية الأمسية أحسسنا - معشر المستعربين - جميعًا ونحن جلوس وحدنا فى طاولتنا الخلفية أن القوم غير مستريحين لوجودنا وما كنا نحن من جانبنا بمستريحين.. كان أمرًا مخجلاً!

ويعترف «سيل» لمحدثه قائلاً: لك أن تظننى مبالغًا فى التخصص فى الشرق الأوسط، والحاصل أن إحدى بناته واصلت تقاليد الأسرة فقد درست العربية فى أمهرست ثم فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة؛ وانتقلت بعدها للتدريس فى عمان وهى تعمل معاونة ضمن هيئة موظفى الملكة نور بالأردن.

علـى أن «شغـف» هـواة مراقبـة الطيـور بالعـرب - علـى حـد تعبير السياسـى البريطانى كروسمـان - لا يتعين بالضرورة ترجمته إلى علاقة شائكة مع إسرائيل؛ فكما أن العالم يتسع لطوائف متنوعة من البشر، هناك أيضًا أنواع مختلفة من المولعين بمراقبة الطيور.

ها هو «ريتشارد إندلاند» يحدق فيك بالنظرة نفسها المتباعدة النافذة على نحو ما يتصف به «سيل» و«كون». ولد فى ولاية أوماها عام ١٩٣٠ لكن عندما التحق بهارفارد لم يعد إلى مسقط رأسه فى الغرب الأمريكى الأوسط. قادته الدرجة التى نالها من هارفارد إلى دراسات عليا فى جامعة ستانفورد، ومن ثم إلى حلقة دراسية عقدت حول مصر بلغ من قوة تأثيرها فيه أن رتب كى يمضى سنة كاملة فى منحة دراسية بالقاهرة، يقول: ما إن حططت رحالى فى مصر - منتصف الخمسينيات - حتى صرت على الفور مولعًا بالعرب ودنياهم. أدركت أننى حللت فى المكان الذى سأجد فيه الترحيب باستمرار، نحن معشر الأمريكان جئنا بالتعليم والطب إلى سوريا - الشام - وإلى الخليج العربي، ولقد شعرت بأننا نجلب الشىء نفسه إلى مصر.

اهتم إندلاند في مصر بدائرة الاستعلامات الأمريكية المنبثقة عن الخارجية الأمريكية؛ مع اقتصار عملها على وسائل الإعلام والعلاقات الثقافية. التحق بالدائرة المذكورة فأرسلوه إلى بيروت ليتعلم العربية عام ١٩٥٧، وكانت الخارجية الأمريكية قد أنشأت- في ذلك الوقت- معهدًا في بيروت لتدريس العربية دون أن يرتبط رسميًا بجامعتها الأمريكية؛ وإن كان جزءًا لا يتجزأ من عالم الاغتراب والوافدين (*). ومع ذلك يقول إندلاند:«كانت الجامعة الأمريكية تقدم لنا المحاضرات وتقيم الحفلات الموسيقية وكان طلابها يستخدمون مكتبتنا كما كنا نستخدم مكتبتهم، كان لدينا الكثير مما نؤديه معًا»، وكانت السنة التي أمضاها إندلاند وسط ذلك الجو المفعم بالاستعراب الأمريكي؛ هي التي أقنعته بأن نوازعه الأولى نحو الولع بالعرب كانت صحيحة.. كان لهم وكانوا له أيضًا. فمن عام ١٩٥٨؛ حين أصبح مسئولاً صحفيًا وثقافيًا في سفارة أمريكا بتونس وحتى عام ١٩٩٢؛ حين تقاعد من السلك الدبلوماسي لم يخدم «إندلاند» سوى في مجال الشئون العربية؛ باستثناء وحيد يتمثل في ١٨ شهرًا أمضاها في سايجون خلال حرب فيتنام، وفي هذا قول «إندلاند»: إن لي من سنوات الخبرة المعاشة في العالم العربي ما يفوق أي مستعرب آخر في السلك الدبلوماسي الأمريكي.

(*) يقصد معهد «شملان» لتعليم العربية في «سوق الغرب» قرب بيروت؛ حيث كان يدرس الدبلوماسيون وعناصر المخابرات الأمريكية «المترجم».

وتلك حقيقة يؤكدها- إندلاند- وهو يستعرض قصة حياته بلهجة سريعة ورتيبة:

سنة ٦٢ إلى سنة ٦٤ فى الإسكندرية، ٦٦ و ٦٧ فى الجزائر.. على الرغم من ١٤ شهرًا قضيتها فى الرباط، ٦٧ إلى ٦٩ فى واشنطن، وسنة ٧٠ عودة إلى بيروت و ٧١ فى الكويت؛ ومن ٧٢ إلى ٧٥ فى الأردن؛ ثم ٧٦ و ٧٧ فى الكويت والبحرين وقطر، ثم ٧٩ إلى ٨٣ فى دمشق.... أجل كنت عضو مجلس إدارة المدرسة الأمريكية فى سوريا، وكانت المدرسة تقع بجوار ثكنات للجيش قصفها المتطرفون، وإذ تجولت فى المدرسة بعد ذلك وجدت أشلاء بشرية عند الباب، لكن كان لدينا برنامج ثقافى فعال؛ أوفدنا خمسة آلاف طالب سورى للدراسة فى أمريكا وقامت مكتبتنا فى دمشق بمهمات جليلة.

إندلاند وزوجته جوان عقدا زواجهما فى القاهرة، وولد طفلهما الأول فى بيروت والثانى فى تونس، والثالث فى الإسكندرية. كان آخر موقع خدمته فى تونس؛ حيث كان قد بدأ أولى درجات السلك الدبلوماسى منذ عقود مضت مع الزمن؛ وخلال تلك الفترة قام بعدة زيارات إلى إسرائيل وأقصى ما يسوؤه فى هذا الصدد يعبر عنه بقوله: يستبد بالإسرائيليين وسواس وهاجس الأمن بصورة لم أفهمها على الإطلاق.. ومن المؤكد أننى عارضت هذا كما عارضت ذلك العنصر المؤيد لإسرائيل فى سياستنا؛ لكن كنت لا أشعر بأى غضاضة إذ أشرحه لمعارفى من العرب، ولو كنا نؤمن كما أؤمن بأن أبرز ما ترمز إليه أمريكا يمكن أن يؤدى إلى العالم الذى نرنو إليه جميعًا، فلن تثور أمامك يومًا مشكلة استيعاب التفاصيل،

والفيصل فى هذا أن تعرف من أنت.. وأنك أمريكى فى الأساس.. فلا أنت عربى ولا أنت إسرائيلى أيضًا.

«إندلاند» طويل القامة نحيل مثل- زميله السفير- «سيل». وقد أصبح «جواب آفاق» فى سنوات خدمته الأخيرة، وقبل أن يتقاعد فى واشنطن كان يقضى كل عطلة نهاية الأسبوع ماشيًا يجوس خلال القرى ومضارب البدو فى أرياف تونس ، وقد أنس إلى الناس ونعم بما يحفل به المكان من حيوان ونبات، وفى هذا المقام يقول: كما نستطيع أن نتصور.. أنا رجل أحب العالم العربى وقد نعمت بحياة طيبة هناك.

هكذا كان أمره على هذه البساطة والتعقيد أيضًا.

لم تكن جميع الأيدى العربية المحنكة- على حد تعبير الخارجية الأمريكية من فئة مراقبى الطيور ؛ بل كان بعضهم أقرب إلى النوع التحليلى مثل لوى هندرسون ولقد كان ريتشارد بوردو باركر من ذلك النمط التحليلى من المستعربين.

هناك فى الخارجية الأمريكية من يتذكر - تالكوت سيل- وريتشارد (ديك) باركر ولو بقدر من الود المحدود ؛ فيقول: إن الرجلين كانا متماثلين حتى فى الشكل والمظهر... على أن هذا التماثل اقتصر على المظهر دون سائر الخصائص والصفات! فبينما ولد سيل ونشأ بالعالم العربى بين أسرة انغمست فى أعمال التبشير، وولد ديك باركر لأب عسكرى كان يعمل فى الفيلبين عام ١٩٢٣. وبعد أشهر قليلة نقلوا أباه إلى الولايات المتحدة

فاستقرت العائلة فى ولاية كانساس.. وعلى خلاف أسرة باركر من براهمة نيو إنجلاند الميسورين.. افتقرت العائلة إلى وفرة المال بل وإلى الصلات الاجتماعية بما يتيح لها إرسال فتاها «ديك» إلى معهد تعليمى من طراز رفيع ؛ فأرسلوه إلى جامعة ولاية كانساس ليدرس الهندسة. وفى عام ١٩٣٤ التحق باركر بسلاح مشاة الجيش ليخدم آمرًا لفصيلة خلال الحرب العالمية الثانية. وفى معارك غابات الأردين فى أواخر عام ١٩٤٣؛ وقع باركر أسيرًا فى قبضة النازيين الذين نقلوه مع أسرى أمريكيين آخرين فى شاحنات مبردة ومحكمة الإقفال بغير طعام إلى معسكر للأسرى فى غربى بولندا. وإذا كانت الحرب تؤذن بنهايتها جاء تحريره على يد الجيش الروسى الأحمر. وكانت تلك ضربة موجعة.. كما قد نقول إذ نقله السوفييت بدورهم فى ظروف لا تكاد تختلف عن ظروف الألمان إلى أوديسا على البحر الأسود، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، تم إطلاق سراح باركر من الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤٥.

وعندما جاء الربيع، وعلى الرغم من أن الطقس كان لا يزال باردًا فى الساحل الشمالى من البحر الأسود، أبحرت سفينة باركر جنوبًا حيث طرأت نسمة دافئة على برودة الهواء. وبغير انتظار وبعد ثلاث سنوات من كآبة الإحباط والوحشة إذ بباركر يطالع أسوار القسطنطينية (إسطنبول)، يرى القباب والمآذن.. «أشياء لم أكن قد رأيتها من قبل بل لم أكن أعرف أن ثمة أشياء كهذه عاشت واستمرت رغم توالى السنين».

هكذا قدر له بعد ثلاث سنوات وللمرة الأولى، أن يرى أضواء المدينة. لكن الذى لا يزال يتذكره عن إسطنبول هو الدفء؛ إذ كانت السنوات الثلاث

التى أمضاها - فى أوديسا مسلسلاً لا ينقطع من الرعشة تحت قارس الزمهرير؛ بيد أن السفينة واصلت إبحارها تجاه الجنوب. وفى بورسعيد عند مدخل قناة السويس أتاه الربيع الطلق مشوبًا بدفء البحر الأبيض المتوسط.. ساعتها شعر باركر بمعنى الحرية للمرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية و«منحوا كلاً منا مائتى دولار وسمحوا لنا بمغادرة السفينة كى نستمتع بالمدينة». وعندما سرحوه من الجيش عام ١٩٤٧ عاد إلى كانساس بهدف وحيد هو تخرجه فى الجامعة.

فى عام ١٩٤٩؛ التحق ريتشارد باركر بالسلك الدبلوماسى فى الولايات المتحدة، فى تلك اللحظة كانت الخارجية قد شرعت فى الاستجابة لواقع ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ حيث وجدت نفسها بإزاء عالم معقد ومتغاير من شعوب وجماعات لغوية متباينة، قدر للولايات المتحدة التنافس على مواقع النفوذ مع الاتحاد السوفيتى بوصفها قوة عسكرية واقتصادية.. مثل هذا الواقع كان يتطلب سلوكًا دبلوماسيًا محترفًا بحق إذ لم يعد كافيًا- على حد تعبير أحد مسئولى السلك الدبلوماسي- الاقتصار على أندية الصفوة التى تطرح أفرادًا من عشاق الموسيقى والمرح ومن ذوى الدماء الزرقاء يعيشون ويعملون كأنهم هواة اكتسبوا الفرنسية والألمانية على مستوى تلاميذ المدارس؛ دون أن يعرفوا شيئًا عن لغات مثل الأوردية أو العربية.. نحن بحاجة إلى اختصاصيين حقيقيين.

هذا الإدراك للحقيقة نجمت عنه نتيجة مقصودة؛ وأخرى غير مقصودة تمثلت فى فرصة سانحة أتيحت لخيرة أبناء الصفوة ذوى الدم

الأزرق حيث الصفوة هم أبناء المبشرين فى لبنان من أمثال سيل وتولفوز اللذين كانا يتفاخران - بصرف النظر عن معرفتيهما الفعلية بالعربية - بما كان لديهما من مخزون المعارف والخبرات الموروثة فيما يتعلق بالشرق الأوسط؛ مما كان يشكل الركيزة الواضحة للخبرة بالمنطقة، أما النتيجة المقصودة؛ فإنها أتاحت الفرصة أيضًا لعناصر أقل تواضعًا فى المحتد ولكن لا تقل كفاءة واستحقاقًا ومنها ديك باركر.

كان باركر قد استظهر الألمانية من أيام معسكر أسرى للحرب؛ مدللاً بذلك على قدرة فى الإلمام باللغات، لم يكن يعرف قط أنه يمتلكها، وبعد جولة وظيفية إجبارية بوصفه من شباب السلك الدبلوماسى فى أستراليا؛ عينوا باركر فى مدينة القدس المقسمة فى عام ١٩٥١ و«عشت وزوجتى عند بوابة مندلبوم حيث المعبر بين شطرى القدس الأردنى والإسرائيلى؛ وهناك استحضرت مدرسًا خصوصيًا لتعليمى العربية.. كان تعليم العربية بصورة نظامية فى مراحله الأولى فى تلك الفترة وحتى عام ١٩٥٠؛ لم تكن الخارجية الأمريكية قد رصدت اعتمادات يؤبه لها لتدرس اللغات الشرقية الفريدة التى ما لبثت أن أصبحت أمرًا حيويًا فى حقبة التنافس الدولى مع السوفييت».

ألم يسبق لكل من ويليام هودجسون فى عشرينيات القرن الماضى ومن بعده رايموند هير فى عشرينيات القرن الحالى أن يسافرا بالضرورة إلى الخارج من أجل تعلم اللغة العربية؟ وعندما التحق شاب أمريكى اسمه هيرمان إيلتس بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٤٧؛ كان الموقع الوحيد فى

عموم أمريكا الذى يتيح تعلم العربية هو كلية ديفنتى فى هارفارد. يقول باركر: كُنت قد تعلمت المبادئ على يد اسكتلندى من نوعية المبشرين، وبعدها عقدت الخارجية امتحانًا لى فى إجادة اللغات وكان عبارة عن سؤالهم إياى أن أعد بالعربية من واحد إلى عشرة وبعد العد الصحيح قاموا بتدشينى بوصفى مستعربًا (!) على أن الموقف تغير جذريًا فى سنوات قليلة إذ؛ أنشأت الخارجية الأمريكية معهدها المدنى لتعليم اللغة العربية فى بيروت متأثرة– ولا ريب– بقربه من جوار الجامعة الأمريكية وإلى ذلك المكان اتجه باركر بعد سنتين قضاهما فى القدس.

عندما غادر باركر القدس إلى بيروت؛ كانت آراؤه فى طريقها إلى التبلور تمامًا فيما يخص النزاع العربى – الإسرائيلي، وعلى خلاف سيل لم تكن عائلة باركر تستند إلى خلفية تشمل عناصر شرق أوسطية، لكن تجربته أثناء الحرب العالمية أتاحت له التعاطف مع اليهود لدرجة لم يكن ليصل إليها زميله سيل : «على الرغم من أننى نجوت من فظائع الهولوكوست؛ فإن اقتيادى أسيرًا للألمان فى عربة صندوق فى عز الشتاء؛ جعلنى أكثر حساسية من الأمريكى العادى إزاء ما عايشه اليهود. وعندما عرفت فى أستراليا أن وزارة الخارجية تزمع إرسالى إلى الشرق الأوسط سارعت مهتاجًا بإبلاغ القنصل الإسرائيلى فأمدنى بأول قائمة قراءات وأول دروس عن سياسات الشرق الأوسط، هكذا ذهبت إلى القدس وأنا فى صف إسرائيل».

لكن أفكاره ما لبثت أن اعتراها التغيير على نحو ما يحدث للمرء، إذ يتعرض لمعايشة الواقع وهو يقيم فى مكان ما مقارنًا بمجرد القراءات التى يكون قد حصلها أو الزيارات المختصرة التى يكون قد قام بها ؛ ولندع باركر نفسه يفسر الأمر بهذه العبارات:«بالتدريج.. وربما من غير وعى أو قصد لم يعد العرب بنظرى كائنات تجريدية ؛ بل أصبحوا بشرًا حقيقيين وبعضهم أضحى من أصدقائنا، وعلى الرغم من أننى لا أتصور أن ساورتنى أوهام بشأنهم... فإننى تفهمت عن حق أسباب السياسة التى ينطلقون منها وكانت أسبابًا أكثر إقناعًا من أسباب الإسرائيليين. ولا أتصور أن هذا حدث لمجرد أن تعلمت اللغة العربية بدل العبرية ؛ فاللغة ما هى إلا أداة لاتصالات أكثر تفصيلاً؛ بل إن الإقامة فى مكان ما أهم لبصيرة المرء من معرفة لغته». وما يحدثك باركر فى هذا إلا عن معرفة وبصيرة والمهم أنه واصل مسيرته ليصبح أول اختصاصى فى شئون الحقبة الجديدة للشرق الأوسط.. أول مستعرب بالخارجية الأمريكية يحصل على معدل ٤ درجات من مجموع ٥ درجات فى نظام اختبارات الخارجية الأمريكية الذى أخذوا به فى الخمسينيات.

باركر أيضًا على حق حين يلمح إلى أن العرب أكثر جاذبية من الإسرائيليين، فها هو كروسمان يذكر فى مؤلفه «مهمة فى فلسطين» كيف بدا يهود فلسطين قبل قيام إسرائيل متوترين، بورجوازيين تراهم بحق من صميم أهل شرق أوروبا أو حتى من الألمان؛ بيد أن الأمر مضى إلى أعمق من ذلك وعلى نحو ما يعبر موظف بريطانى كان يعمل فى أردن ما بعد الحرب العالمية الأولى: إن سنوات التهذيب والشمائل العربية تفسد

علينا ما هو مألوف فى العالم الغربى من خشونة وفظاظة، وهكذا كان يهود فلسطين إذ ينتمون إلى مجتمع مستوطنين خشن ودينامى لا يعوزه أن يشمل أكثر من قلة من العناصر المثقفة والمتوترة والغريبة الأطوار؛ يتجسد فيه عالم الغرب بقدر من التشفي، على أن كروسمان يصف حوارًا فى القدس حول موضوع: لماذا لا يملك الإنجليزى سوى أن يكون مؤيدًا للعرب؟!

«قال الكولونيل إن الأمر يرجع إلى معاداة السامية، لكن ضابطًا قال: إن هذا كان حقيقيًا قبل مرحلة هتلر وقبل أن يعرف أى إنجليزى ما معنى معاداة السامية، ورد ضابط آخر أن الأمر ليس على هذا النحو ففى أثناء ثورة العرب على الأتراك، وإذ كان رجالنا يطلق عليهم الرصاص من خلف وهم يسبغون حمايتهم على اليهود كان معظمهم يحبون العرب، فالعربى المخضرم قد يطلق عليك النار فى الليل فإن جئت للتحقيق فى الصباح دعاك إلى فنجان قهوة. ثم خلصوا إلى أن ما يجعل الشرطى مواليًا للعرب إنما هو شمائل العرب أنفسهم.. وهنا قال ضابط شاب: لكن أيضًا لأن العربى أقل من المستوى على نحو ما وإذا كان متعلمًا وتساوى معك كما يتساوى اليهودى؛ فقد لا تنحاز إليه كما تفعل الآن».

وفيما كان باركر ينتقل جيئة وذهابًا إلى إسرائيل عن طريق بوابة مندلبوم؛ كان يسلم باضطراد بذلك التباين الصارخ بين المجتمع الإسرائيلى وسائر أنحاء الشرق الأوسط، ولكن لم يكن هذا حال زملائه من وزارة الخارجية المقيمين فى دمشق وسائر العواصم العربية.

«ألفرد ليروى أثرتون» شاهد إسرائيل للمرة الأولى فى صيف عام ١٩٥٥؛ بعد أن كان قد أمضى فى سوريا ثلاث سنوات على التوالي. ويومها قال نفسه: يا إلهى كم هم متعمقون ومتحمسون هؤلاء الإسرائيليون؟ لا تستطيع الدخول فى حوار معهم دون أن يعترى أوصالك الجفاف. وثمة مستعرب آخر من جيله هو مايكل ستيرنر رأى إسرائيل للمرة الأولى فى عام ١٩٥٩ بعد ما يقرب من عقد من الزمن فى الدنيا العربية؛ حيث كان يعمل فى شركة أرامكو للنفط وبعدها فى الخارجية الأمريكية... وقال فى انطباعاته:

«على نقيض العالم العربي، كانت الحياة الإسرائيلية تكتنفها موجة من الفكر والحركة. نحن فجأة بعد أن ننزع اللوحات العربية من سياراتنا ماركة موريس مينور المكشوفة، فى منطقة الأرض الحرام الفاصلة بين لبنان وإسرائيل فإذا بنا نغوص بغتة فى مجتمع بدا كل من فيه يتجادل حول مستقبل الاشتراكية. كانت تلك مرحلة الاندفاعة المثالية فى إسرائيل قبل أن ينسدل عليها ستار التشاؤم، لكن - يا ساتر! كم كان الطعام فظيعًا- كانت هناك سلسلة لا تنقطع من المأكولات التى بالغوا فى طهوها على الطريقة الألمانية». على أن ستيرنر هذا كان قادرًا على العودة للاسترخاء والراحة بعودته إلى حيث كان العرب؛ وكان فى هذا يشابه أثرتون ويماثل باركر ومن قبلهم تالكوت سيل... الإسرائيليون كانوا قومًا يسهل تقديرهم ولكن يصعب التعامل معهم ومشكلتهم أنهم يعاملونك كما لو كنت واحدًا من أقرب أفراد العائلة دون مراعاة أصول اللياقة والمسافة المريحة التى عادة ما ينعم بها الغرباء، فضلاً عن ذلك كانوا أندادًا لك سواء بسواء؛ ثم كان الأدهى والأنكى أنهم لم يسمحوا لك بأن تنسى ذلك لحظة من اللحظات.

بعد أن أتقن باركر العربية فى بيروت؛ بدأت الحياة الدبلوماسية للرجل على غرار حياة زميليه ريتشارد إنلاند وتالكوت سيل: عمان، مكتب إسرائيل والأردن فى الخارجية، مكتب ليبيا ، ثم عودة إلى بيروت ثم القاهرة ثم مكتب شئون مصر فى واشنطن فالرباط. وفى عام ١٩٦٠، كان باركر قد أكمل مأموريته فى مكتب ليبيا فى واشنطن وسنحت أمامه وقتها فرصة تعلم العبرية ، وفى هذا يقول باركر: رفضت، إذ كان يمكن لهذا أن يخلف أثرًا معاكسًا فى سيرتى المهنية بوصفى مستعربًا وأنا معترف بذلك فقد خلفت ورائى هناك إلى العالم العربى كثيرًا من الولاءات المحلية.

هذه المحليات... أو... العمالات... بدأت فى الحرب العالمية الأولى؛ حين تبنى الوكلاء السياسيون البريطانيون - وهم عناصر المخابرات وقتها - قضية القبيلة العربية التى انتدب العميل الإنجليزى أو العميلة الإنجليزية للعمل معها. لكن معناها لدى وزارة الخارجية الأمريكية فيما بعد الحرب الثانية أصبح يعنى التعاطف مع أحد جوانب القضية ومع البشر المرتبطين بها بسبب عدم التعرض للجانب الآخر.. وقد حدث هذا فى مواقع شتى من المعمورة: مثلاً الدبلوماسيون فى نيودلهى ، كانوا أحيانًا يميلون مع الهند وضد باكستان؛ فيما كان المحتمل أن يميل المقيمون منهم فى إسلام أباد مع باكستان ضد الهند... هذه المتوالية أصبحت متفشية بالذات فى الشرق الأوسط بحكم عوامل رياضية بحتة؛ فاللغة العربية ومعها الصينية واليابانية والكورية لغات مصنفة فى السلك الخارجى على أنها لغات - فائقة الصعوبة - وعلى الرغم من أن الفارسية تستخدم الحرف العربى فإنها عضو فى عائلة اللغات الهندو-

أوروبية وليس المجموعة الأفرو- سامية؛ مما يجعل الفارسية أقرب إلى الإنجليزية، ومن ثم أسهل على نحو ما فى التعليم. والمهم أن تعلم العربية كان من ثم يستغرق سنوات. وإذ توظف الخارجية هذا الاستثمار فى فرد ما؛ فإنها تطلب استخدام تلك المهارات فى الميدان.. بينما لا تنفع الصينية إلا فى قلة من البلدان الأجنبية وفيما لا تصلح الكورية إلا فى شمال وجنوب كوريا ولا تستخدم اليابانية إلا فى اليابان فإن هناك أكثر من ٢٤ سفارة وقنصلية أمريكية فى العالم العربى وهى تكفى كى تستغرق تاريخ خدمة الأفراد الدبلوماسيين، وعليه ففيما قد يُمضِى العنصر الصينى جزءًا من تدرجه الوظيفى فى الشئون المتصلة بالصين؛ فإن بوسع العنصر المستعرب مُضى كل سنوات نضوجه واكتماله فى العالم العربي، وفى مثل هذه الظروف تتأثر بالطبع آراؤه بصدد المسألة العربية - الإسرائيلية.

فى أواخر الستينيات؛ كان «باركر» قد اكتسب سمعة بوصفه «رجل الولاءات المحلية».. يقول: بعد حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ - التى خسرتها مصر - خضت بمفردى معركة فى وزارة الخارجية الأمريكية كى يأخذ القوم الرئيس المصرى جمال عبد الناصر على محمل الجد... ولقد أصبح السفير باركر واحدًا من أصدقاء عبد الناصر القلائل فى واشنطن، وهكذا فعندما أصبح جوزيف سيسكو مساعدًا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى فى عام ١٩٦٩؛ وشرع فى عملية تطهير جزئية لشبكة قدامى المستعربين كان «ديك باركر» على رأس الضحايا، نقلوه من إدارة الشئون المصرية، قلب النشاط العربى - الإسرائيلى، إلى المغرب على أطراف سياسات العالم العربى والشرق الأوسط. يقول باركر: «كنت أضمر

كراهية شخصية لسيسكو». ويضيف إنه أمضى السنوات الأربع نائبًا لرئيس البعثة فى سفارة أمريكا بالمغرب فى ظروف محفوفة بالضجر والسأم من الناحية السياسية.

بعد ذلك أصبح باركر سفيرًا لأمريكا فى الجزائر ثم سفيرها لدى لبنان عام ١٩٧٧، أى بعد عام من قيام «سيل» بإخلاء السفارة - كان الموقف الأمنى فى بيروت قد تحسن قليلاً، ويقول باركر: شعرت بأقسى الإهانة بفعل الغطرسة الإسرائيلية وبسبب تجاهل السيادة اللبنانية، ولم يكن ثمة خيار واسع بين الإسرائيليين والسوريين. ويوضح باركر أن مناحيم بيجن - رئيس وزراء إسرائيل - أحرجه عندما رفض اتفاقًا حول تحركات للقوات فى جنوب لبنان، لذلك فأنت تطالع فى بيت باركر فى ضاحية جورجتاون؛ واشنطن حوائط مكتبته الخاصة التى لم تقتصر على معروضات الخط العربى؛ بل وتعرض أيضًا صورًا كاريكاتورية لها دلالاتها.

أنهى الدبلوماسى الأمريكى «باركر» مدة خدمته سفيرًا لبلاده فى الرباط التى أعلنته فى عام ١٩٧٩ شخصًا غير مرغوب به، بعد أن ثبت أنه كتب تقارير حول المعارضة للحكم المغربي.

وباركر يصف نفسه بأنه عضو فى جماعة من أهل النخبة - الأمريكية الذين فقدوا حظوتهم عند أصحاب العروش العربية، ومن الأسباب الأخرى التى حملت العرش المغربى على كراهية باركر: أنه كان الدبلوماسى المكلف بإبلاغ شاه إيران السابق - وقد كان صديقًا للرباط- بأن ليس

بوسعه القدوم إلى أمريكا - عقب الثورة الإيرانية - حين كان الشاه وقتها في المغرب، ويصف السفير باركر مهمته تلك بأنه تلقى التعليمات من واشنطن - بأن « أعرض عليَّ الشاه بيتًا - أو وطنًا - في باراجواى أو جنوب إفريقيا.. ويجدر بى أن أقول إنه تلقى الأنباء كرجل».

كان السفير - السابق - باركر شديد الانتقاد للرئيس الأمريكى كارتر؛ لأنه كان لم يغلق سفارة أمريكا فى إيران عام ١٩٧٨ ويفى بعهودنا لصديقنا - نفس الشاه الذى سبق أن أعاده لوى هندرسون- إلى عرشه منذ ربع قرن... باركر ينظر كما ينظر- أستاذهم هندرسون- إلى مصالح أمريكا نظرة حازمة مجردة من العواطف، وهو يتصور أن أمريكا كان ينبغى لها التعامل مع الإسرائيليين بمزيد من القسوة والحزم. على مدى ما انصرم من عقود بل وتعامل صدام حسين بقدر أكبر من تلك القسوة والحزم ؛ بهذا ينحو - باركر - بمزيد من اللائمة على رفاقه وأصدقائه من المستعربين الذين خدموا فى العراق فى الثمانينيات، وفى هذا يقول قائلهم: باركر رجل من الصعب فهمه.. ثمة جانب مستقر فى شخصيته يجلب له عداوة أصدقائه وعداوة الإسرائيليين على السواء.

السفير باركر متقاعد الآن ولكنه يمارس الآن ما سبق أن رفضه فى عام ١٩٦٠... إنه يتعلم العبرية وهو يتدارس أحداث حرب الأيام الستة قائلاً: لقد أصبت بالإحباط إزاء عجزى عن قراءة مذكرات إسحاق رابين فى نصها الأصلى.. وأيا ما كان الأمر؛ فذلك هو المبرر الذى يعطيه تفسيرًا لأحدث ما أقدم على تعلمه.

«جوزيف سيسكو» أصبح فى عام ١٩٦٩؛ أول رئيس من غير المستعربين لإدارة الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية باعتباره مساعدًا للوزير. وهو يزعم أن بوسعه تحديد ما يزيد على عشرين نمطًا من أنماط هؤلاء المستعربين... ثم يستدرك موضحًا أنه يبالغ فيما يقول، وقد انحنى باتجاه زائره بزاوية حادة مضيفًا: لكن صدقنى.. ليس هناك نمط ثابت للمستعرب فى كل حال. ثم يورد على ذلك مثلاً هو «الفرد أثرتون» الذى لا يصنف لا ضمن مراقبى الطيور - «المحايدين» - على حد تعبير السياسى البريطانى كروسمان - ولا هو نسخة مطبوعة من لوى هندرسون - المستغرق فى الأمر إلى حدود التقمص.

«الفرد روى أثرتون» فصيلة نادرة من اختصاصيى الشرق الأدنى زائدًا المستعرب.. هو المخضرم الذى تطور ليصبح من المحدثين، وليثبت أنه واحد من أنجح جيل الاختصاصيين فى الشرق الأوسط وأوسعهم نفوذًا وتأثيرًا، هو رجل يمكن أن يؤثر فى التاريخ بفضل تطوره الشخصى فى إطار المسألة العربية - الإسرائيلية.. بدأ أثرتون فى سوريا فى الخمسينيات وتشكلت لديه الانطباعات نفسها التى تتولد لدى الدبلوماسيين الأمريكيين هناك عن العرب والإسرائيليين؛ بيد أن آراء أثرتون ظلت فى حال من التطور وإن كان يصعب بيان السبب الذى دفع إلى هذا التطور، وبينما أمضى أثرتون ردحًا طويلاً من خدمته خارج المدار العربى؛ فقد كان هذا أيضًا حال دبلوماسيين آخرين ممن لم ترق آراؤهم إلى آراء أثرتون. وربما يمكن جواب مثل هذا السؤال فى خبايا الشخصية بأكثر مما يدخل فى باب تجربة بعينها هنا أو هناك.

«السفير ألفرد روى أثرتون» يخلق فى نفسك ذات الانطباع الذى يولده فى خاطرك - السفراء أيضًا - بيل ستولفوز وكارلتون كون وتالكون سيل وريتشارد إندلاند وديك باركر.. سيد مهذب ومتميز؛ فى إهابه فتوة وفى وجدانه فيض من ذكريات يعشقها عن أيامه الخوالى فى وطن العرب. لكن بدلاً من الطنافس الشرقية ولوحات الخط العربى والمحفورات العتيقة للأرض المقدسة تزين جدران مكتبه، فأنت تجد صورًا فوتوغرافية ممهورة بتوقيع أصحابها ومهداة إلى أثرتون: مناحيم بيجن وأنور السادات وهنرى كيسنجر يشكرونه على جهوده ويحمدون صداقته، وغداة وفاة بيجن فى عام ١٩٩٢؛ أخلد أثرتون إلى مكتبه متأملاً..كان قد عرف بيجن جيدًا وتفاوض معه، وهنا يدلى بملاحظاته قائلاً : سوف ينصفه التاريخ فعندما أعطى سيناء وأبرم السلام مع مصر، تعين على بيجن أن يتخذ خيارات صعبة وحكيمة، كان معناه التخلى عن أشياء ظل يحارب من أجلها طوال حياته.

ولد ألفرد أثرتون عام ١٩٢١، فى بتسبورج وترعرع فى سبرنجفيلد بولاية ماساشوسيتس حيث كان أبوه مهندسًا، ويصف أسرته بأنها كانت أسرة متماسكة من الطبقة الوسطى ثم يتساءل: أتريد أن تعرف شيئًا عن معاداة السامية؟ طيب.. عندما انتقلت أسرة يهودية إلى منطقتنا- ولا تنس أن تلك كانت فترة أمريكا المستغرقة فى المسيحية فى الثلاثينيات- كنت ترى بغض اليهود حقيقة نابضة ماثلة أمام عينيك على نحو أسوأ من مواقف معاداة إسرائيل التى تبناها بعض من عرفت من الدبلوماسيين الأمريكيين.

في سبرنجفيلد درس أثرتون في مدارس الحكومة، ولدى حصوله على الثانوية اتخذ والده قرارًا جاء على غرار أفضل ما يتخذه الآباء من قرارات؛ ما أدى إلى تغيير حياة ابنه: «تصور أبي أنني لم أكن مستعدًا بعد من الناحية الوجدانية للالتحاق بالجامعة؛ إذ كنت وقتها أفتقر إلى النضج والثقة في النفس. وعليه فقد أرسلني سنة إضافية إلى ثانوية ملحقة بأكاديمية أكستر» ذلك المعهد الذي أنشئ عام ١٧٨١؛ وكانت «مؤسسة فيليب أكستر» جزءًا من النخبة نفسها التي انتمى إليها مؤسس وأكاديميات متميزة أخرى مثل أندوفر وديرفيلد. ولما كانت موارد الأسرة محدودة فقد تعين على الفتى أثرتون أن يخدم جرسونًا على الموائد ليدبر مصاريف الدراسة ؛ بيد أن الأشهر العشرة التي أمضاها في المدرسة أوصلته إلى جامعة هارفارد؛ بل وسعت مداركه إذ عرضته للتعامل مع نوعيات شتى من البشر وبلغ الأمر بالفتى أثرتون إلى حد أن قام برحلة على الدراجة سنة ١٩٣٨م إلى ألمانيا حيث كان يعيش في بيوت الشباب ويقول لن أنسى ما حييت الشعار المعلق على باب: شبيبة هتلر: خودن فيربوتسن.. اى ممنوع لليهود. لكنها كانت التجربة التي زادتني نضوجًا وحولت المجردات عندي إلى أرض الواقع المعاش، وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية قطع أثرتون دراسته ليخدم في وحدة لمدفعية الميدان. وكما فعل زميله باركر خدم في مناطق الغابات، على أن صدور قانون المجندين أتاح له معاودة دراسته في هارفارد بعد الحرب والحصول على البكالوريوس ودراسة الألمانية، حيث كانت ألمانيا والسياسة الدولية قد ملكت عليه العقل والوجدان.

في تلك الأيام كانت كليات القمة تعمل بوصفها مزارع استنبات عناصر السلك الدبلوماسي في أمريكا. وفي ربيع ١٩٤٧ اجتاز

أثرتون امتحان الخارجية وعينوه فى قنصلية أمريكا فى شتوتجارت بألمانيا، وكان عمله عبارة عن استجواب الناجين من معسكرات الاعتقال النازية، ومن سواهم الذين شردتهم ويلات الحرب وتقدموا للحصول على تأشيرات دخول للولايات المتحدة... فى ذلك الوقت سافر دبلوماسى يهودى زميل هو سيمور ماكس فنجر إلى أمريكا ليشهد احتفالاً بإنشاء إسرائيل.

«وعاد ماكس إلى ألمانيا؛ فيما يكاد يخنقه التأثر من التجربة ولم أكن قد عانيت من قبل كل هذا الحماس العاطفى وظلت المسألة محفورة فى ذاكرتي». وبعد ثلاث سنوات فى شتوتجارت انتقل أثرتون وزوجته «بيتي» إلى بون حيث كان چون ماكلوى قد وصل مفوضًا ساميًا لتنظيم انتقال ألمانيا الغربية المحتلة إلى وضع الاستقلال التام.

وبدأ الأمر فى بون وكان الدبلوماسى الأمريكى الشاب يرى الشرق الأوسط كلما تطلع فى كل زاوية وكل مسار؛ كانت لجنة التوزيع المشتركة – وهى منظمة يهودية – تساعد فى إرسال الناجين من معسكرات الاعتقال إلى إسرائيل، وكان أثرتون على صداقة حميمة مع زميله بيتر ميل بالسفارة البريطانية الذى كان منقولاً لتوه إلى بون من دمشق؛ ويومها قال له ميل: إن الشرق الأوسط هو المحور القادم الذى تصنع فيه منجزات الخدمة الدبلوماسية، وعليه جاء أول أبريل عام ١٩٥٢ وبعد ما يقرب من خمس سنوات كاملة

فى ألمانيا ليشهد أثرتون وهو يملأ بطاقة يسميها الدبلوماسيون - بطاقة كذبة أبريل - مؤداها: أنت تذكر المواقع الدبلوماسية الثلاثة التــى تود الخدمة فيها فــى أنحاء العالم؛ ولــن تحصل -عادة- على أى منهــا ؛ بيــد أن أثرتون كان سعيد الحــظ إذ طلب دمشق وبيروت وعمان... فكان أن فاز بدمشق.

وقبل أن يشد الرحال إلى هناك؛ انخرط فى دورة دراسية عن منطقة الشرق الأوسط فى المعهد الدبلوماسي. وكان أستاذه إدوار رايت الذى يتذكره أثرتون بأنه كان من أهل التبشير؛ مؤيدًا للعرب ومعاديًا لإسرائيل، وفى وجه الدعوة المذهبية التى كان يطرحها رايت دخلت آراء أثرتون الموالية لإسرائيل فى طور كمون كالبيات الشتوي، ثم كان أن أمضى السنوات الأربع التالية من حياته فى دمشق حتى عام ١٩٥٦...«واستقر فى ذهنى أنا وزملائى العاملين فى سوريا فى ذلك الوقت؛ خيبة أمل جماعية كلما اتضح أن حكومتنا كانت تنحاز إلى صف إسرائيل - ذلك العنصر الدخيل على الشرق الأوسط. كانوا قد علمونى أن أرى أن العرب هم الضحايا البريئة لمشكلة أوروبا مع اليهود.. وبسبب الوضع السياسى فى سوريا الخمسينيات كان قد نشأ تيار عربى كامن تحت السطح من معاداة السامية، وكان الدبلوماسيون الأمريكيون يتعاطفون مع ذلك التيار وإن كان زملائى أقرب إلى تأييد العرب منهم إلى البغض المبيت لليهود ولم يكن ذلك هو نمط معاداة السامية قديمًا... فى ماساشوسيتس فى أمريكا حين انتقلت إلى منطقة الجوار عائلة يهودية».

السفير الأمريكى فى سوريا كان فى ذلك الوقت «چيمس موس»، وكان بدوره مستعربًا ذا باع فكرى طويل فى مجالى اللغة والثقافة على السواء، لكن كان يراوده شعور بخيبة الأمل بالنسبة السياسة الأمريكية.. بل وبالنسبة إلى العرب أيضًا ذات يوم دخل أثرتون (الشاب) بعصبية مكتب السفير ليطلب منه إسداء نصيحة مهنية؛ كان أثرتون قد أدرك أن الوقت قد حان كى يدرس العربية كى يصبح مستعربًا بحق؛ فما كان من السفير موس إلا أن قال: يا فتى.. لقد درست العربية وأتقنتها وخدمت فى العالم العربي.. ثم خلصت إلى أن العربية لغة تفتح بابا يفضى إلى حجرة فارغة خذ نصيحتى وتعلم الفرنسية بدلاً منها (!).

وهذا عين ما فعله أثرتون تمامًا، أنه يعرب عن«ندمه» لأنه لم يتعلم العربية، ولكنه فى هذا إنما يجامل أصدقاءه العرب لا أكثر ولا أقل، بل هو يعلم أنه لو كان قد تعلم العربية لما أحرز ما أحرزه من تقدم فى السلك الوظيفي، إن أثرتون بدأ يكتسب - دون أن يدرى - تلك الخاصية المهنية الكاملة التى تميزت بها حقبة كيسنجر.. أن تكون قد حصلت على خبرة وطيدة بالشرق الأوسط لكن دون أن توسم بتلك المجموعة من المعتقدات التى تدرجك فى سلك المستعربين.. تلك الفئة التى كان علمًا عليها رجال من أمثال سيل وستولفوز وباركر.

إلى حلب فى الشمال، نقلوا أثرتون من دمشق عام ١٩٥٦؛ حيث كلف مع زميله كارلتون كون بتأسيس قنصلية مؤقتة فى غرفة بفندق البارون

القديم؛ على أن تواضع الظروف فى حلب اضطر عقيلة أثرتون إلى البقاء فى دمشق - كانت كريمتهما تدرس فى الكلية الأمريكية فى بيروت. وفى مقهى فى حمص كان يجلس فيه أثرتون فى طريقه إلى دمشق من حلب لزيارة زوجته، علم أثرتون بهجوم إسرائيل على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦، كانت الأزمة المتكاثفة التى أثارها تأميم جمال عبد الناصر قناة السويس؛ فضلاً عن الهجمات التى كان يشنها الفدائيون الفلسطينيون من الأراضى المصرية على إسرائيل قد تصاعدت لتصل إلى حرب كبرى.

أما بريطانيا العظمى وفرنسا، وقد استبد بهما الغضب بسبب تأميم القناة فقد انضمتا بدوريهما إلى إسرائيل لشن هجوم ثلاثى على شبه جزيرة سيناء المصرية.. يقول أثرتون: كنت فى غاية الانتقاد لإسرائيل فى تلك اللحظة، ولحسن حظى كان هذا موقف الرئيس أيزنهاور الذى أوقف المعونات الاقتصادية إلى إسرائيل وكان على وشك إجبار الدولة اليهودية- قسرًا- على الانسحاب من المنطقة التى استولت عليها فى سيناء، كنا معشر الأمريكيين فى وضع طيب إزاء أصدقائنا العرب فى سوريا. ولم تكن هذه الوشيجة السيكولوجية بين العرب من أهل البلاد والأمريكيين لتقتصر على سوريا؛ ففى مصر خلال حرب ١٩٥٦ تحدثت زوجة دبلوماسى أمريكية عن الجنود المصريين الذين كانوا يحاربون الإسرائيليين فقالت: «إننا فخورون بهم».

فى أول يناير ١٩٥٧.. افتتح «ألفريد أثرتون» رسميًا أول قنصلية أمريكيـة فى حلب، واستطاع يومها رفع علم الأشرطة والنجوم على المبنـى؛ ويشرع فـى تعيين موظفيـن سوريين محلييـن، فى الوقت الذى كان زميله الدبلوماسى «كون» قد غادر لتوه بالسيارة فى طريقه

إلـى موقعه الجديـد فى الهند.. لكن شهـر العسل الثانى هـذا بين أمريكا وسوريا جاء موجزًا؛ فما لبث أن انهار فى العام التالى عندما قام الرئيس الأمريكـى أيزنهاور بإرسال قوات مشاة الأسطـول الأمريكى (المارينز) إلـى سواحل لبنـان لدعم حكم كميل شمعون المسيحـى الماروني؛ يومها أدى نزول المارينـز إلى البر اللبنانى إلى مظاهرات معادية لأمريكا قامت خارج قنصليتها فـى حلب، وقد عمد الرئيس الأمريكى بمساعدة جوهرية مـن الدبلوماسى المخضرم «لوى هندرسـون» إلى صياغة «حلف بغداد» بوصفـه حلفًا مناهضًا للسوفييت؛ شمـل كلاً من تركيا وإيران وباكستان ونظـام الهاشميين المواليـى للغرب فى العراق. بعد ذلـك وقع فى العراق انقلاب عسكرى عام ١٩٥٨ أطاح بالملكية التى كانت قد أنشأتها «جرترود بل» وزملاؤها البريطانيون بعد الحرب العالمية الأولى.

ودون سابق إنذار، إذا بالشعوب العربية فى العراق وسوريا ومصر تدخل مرحلة راديكالية؛ ما جعل «أثرتون» وزملاءه الدبلوماسيين فى حال من الانتقاد المرير لسياسة الحكومة الأمريكية التى يمثلونها. شعرنا بأن وجود إسرائيل بات يحول بين العرب وبين أن يظلوا معاديين للسوفييت. إن أثرتون يتذكر زيارة من جانب الكولونيل ويليام أدى وزوجته مارى وكانا ضيفين على بيته فى دمشق، وإذا كان الكولونيل ينتمى إلى أوساط مبشرين وكان أيضًا عم «أرثر كلوز» سفير أمريكا وقتئذ بالسعودية ؛ فقد كان معارضًا لاستخدام مشاة المارينز لإنقاذ حكومة مسيحية مارونية فى لبنان حتى لو كانت موالية لأمريكا.

الكولونيل «أدى» - كما يقول «فيليب بارام» - كان صديقًا عظيمًا وشخصيًّا للعرب... ولطالما كان معبرًا عن وجهات نظرهم.. وخاصة آراء ابن سعود؛ ولو بقدر مقلق من الصراحة والبلاغة، وكان الكولونيل «أدى» قد استقال من وزارة الخارجية فى عام ١٩٤٧؛ احتجاجًا على سياسة الرئيس الأمريكى ترومان المؤيدة لإسرائيل فى فلسطين. وقد توفى عام ١٩٦٢، وبناء على طلبه دفنوه فى لبنان وقد نقشوا على مثواه شاهدًا يقول: «مارينز الولايات المتحدة».

بيد أن «أثرتون» لم يكن راضيًا كل الرضا عن بيئة التحزب أو التحيز التى كان يعيش وسطها؛ وكأنها امتداد لمؤسسة التبشير الثقافى المنعزلة والمتماسكة فى بيروت، ويوم عمل «أثرتون» بوصفه ضابط الاتصال المسئول عن تنظيم مؤتمر إقليمى لسفراء أمريكا بالمنطقة فى دمشق.. شهد «أثرتون» كيف عومل «إدوارد لوسون» - سفير أمريكا فى إسرائيل - من جانب زملائه السفراء الأمريكيين، معاملة العدو لا أكثر ولا أقل، ولم يشفع له أنه كان سفيرًا لأمريكا، بقدر ما كانت مشكلته أنه معين لدى إسرائيل، وبعد المؤتمر طلب «أثرتون» من رئيسه السفير «موس» أن يسمح له ببضعة أيام إجازة يقضيها وزوجته فى إسرائيل و... «حذرنى السفير موس بأننى لو ذهبت فقد يعلن السوريون أننى شخص غير مرغوب فيه»؛ لكن «أثرتون» ذهب على أى حال..« وعندما عدنا لم نلق، للغرابة أى نتائج وخيمة من جانب السوريين بل وجدناهم شغوفين للغاية بمعرفة انطباعاتى عن إسرائيل».

يخلص السفير(السابق) أثرتون من ذكرياته عن سوريا بهذه العبارات: ثمة شيئان أتذكرهما: المستعربون الأمريكيون الذين يخدمون فى إسرائيل والدبلوماسيون الأمريكيون من اليهود العاملين فى أى مكان من الشرق الأوسط؛ فى تلك الآونة بدأت أتساءل عما إذا كنا - معشر الأمريكيين - قد أصبحنا جزءًا من المعركة الدائرة.

فى عام ١٩٥٩، وبعد ١٢ سنة قضاها فى الخارج - السبع الأخيرة منها فى سوريا - عاد «أثرتون» إلى واشنطن ليعمل فى مكتب شئون العراق والأردن بوزارة الخارجية. وكان رئيسه هو «ويليام ليكلاند» وهو مستعرب قديم من أشد المؤيدين للقومية العربية وجمال عبد الناصر وحكم الأغلبية من أهل السنة. ولأن «أثرتون» لم يكن قد تعلم العربية، «كان واضحًا أننى لم أكن عضوًا فى نادى المستعربين» وعليه فبعد فترة عمل موجزة مع «ليكلاند» نقلوه من الشئون العربية إلى الشعبة اليونانية- التركية بالوزارة.

«هكذا تحولت من كونى شخصية كبيرة فى حلب الصغيرة إلى حيث أسندوا لى عملاً بيروقراطيًا رتيبًا فى مكاتب الخارجية. وكان درسًا يلقنك كيف تعيد تكييف صورتك عن الذات، ولقد تعلمت- فى تلك الأثناء- كيف أن واشنطن لا تستطيع فهمها إذ كنت من وراء البحار».

وكان تكليفًا جديدًا لم يكن بوسع كل دبلوماسى القيام به، فإذا كان بمقدور معظم المستعربين أن التعامل مع العرب من منطلق مواقعهم

الرفيعة فى السفارة؛ فلم يكن بوسعهم التعامل مع أندادهم الأمريكان وسط بيئة التنافس المحتدم فى وزارة الخارجية، لكن تكوين شخصية الدبلوماسى وسمعته إنما كان يتم وسط تلك الممرات المنعزلة الخانقة للأنفاس.

بعد سنتين أمضاهما فى واشنطن، أخذ «أثرتون» إجازة دراسية لتعلم الاقتصاد فى جامعة كاليفورنيا فى «بيركل»؛ ثم أصبح مسئولاً اقتصاديًا فى قنصلية أمريكا فى كلكتا بالهند، وكانت تلك خطوة فرعية من حيث تدرجه الوظيفي، لكنها كافية، مع تجربة مكتب اليونان وتركيا كى تحقق توازنًا صحيًا مع جانب المستعرب فى حياته المهنية.

عاد «أثرتون» إلى واشنطن ثانية فى عام ١٩٦٥؛ كان على رأس مكتب الشرق الأدنى السفير«رايموند هير» الذى عمل دبلوماسيًا شابًا فى القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، وها هو ذا قد أصبح مساعدًا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، وعمل «أثرتون» مباشرة مع مساعد هير، ونائبه «هاريسون سيمز» وكان المكتب فى تلك الفترة- عبارة عن ماكينة استعراب فعالة التروس؛ إذ كان يعمل بوصفه قطب التوازن البيروقراطى إزاء جهاز متزايد الخطورة والحذق يتمثل فى اللوبى اليهودى؛ ويقول المشايعون لمكتب الشرق الأدنى: إنه كان الموقع الوحيد فى واشنطن الذى يجد فيه العرب من يسمعهم بأذن مصغية ومنصفة أيضًا؛ فضلاً عن كونه المكان الذى لم يكن للإسرائيليين أو مؤيديهم موضع قدم عند الباب، وكان من المسئوليات التى أسندت إلى «أثرتون» مسئولية

التعامل مع وكالات الإغاثة العاملة فى الشرق الأوسط. يومها لاحظ أنه فيما كانت منظمات مثل «كير» وغيرها من الجماعات العاملة مع العرب تحظى من جانب مكتب الشرق الأدنى بكل صنوف الدعم الدبلوماسى والتعبوى، كانت المنظمات الغوثية اليهودية المتنوعة العاملة فى إسرائيل تلقى معاملة المواطن من الدرجة الثانية، بل ولا يعترف المكتب بوجودها... وكان الأمر فى غاية الاستفزاز.

وهكذا.. قرر أثرتون تغيير قواعد اللعبة، وأن يسلك فى ذلك طريقته التى عرف بها من الهدوء بغير انفعال.

وكانت طريقته هذه - التى لم تتعد إلى استعداء الآخرين بالإدارة - هى التى دللت على مهاراته المكتبية المتميزة التى لم تفت ملاحظتها على رؤسائه ولا على اللوبى اليهودى ذاته، الذى شرع «أثرتون» فى إقامة علاقات معه، وبهدوء أيضًا.

هكذا جاءت كوامن التعاطف بين «أثرتون» واليهود وقد كانت مستترة أثناء حقبته السورية، لكى توازن تعاطفاته المؤيدة للعرب، ويلاحظ زميل للسفير «أثرتون» أن روى «كان من التوازن والإنصاف بمكان، ولم يفصح قط عن آرائه ولست بقادر حتى يومنا هذا أن أصف لك ماهية تلك الآراء».

ثم شاء القدر، بعد ذلك الانقلاب الصغير الذى قام به «أثر تون» مع وكالات الإغاثة أن أعيد تنظيم وزارة الخارجية الأمريكية لينتهى

الأمر بصاحبنا «أثرتون» مديرًا للشئون العربية - اليهودية، ثم جاءت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧؛ - ومعها انطلق«أثرتون» من خمول الذكر ليصبح معروفًا ومرموقًا.

تجدر ملاحظة أنه فيما كانت هناك جوامع مشتركة بين رجال من طراز «كون» و«سيل» و«باركر» و«إنلاند» و«أثرتون» ؛ فإن ثمة قواسم فاصلة بينهم أيضًا؛ فمثلاً «كون» و«أثرتون» لم يقدر لهما يومًا إجادة اللغة العربية، و«باركر» لم يقدر له الدراسة فى إحدى كليات القمة؛ وهكذا، فإن التعميم فى الحكم على هؤلاء المستعربين أمر سهل ميسور... بشرط واحد؛ ألا تكون قد القيت واحدًا منهم هنا أو هناك.

الفصل السابع

لا وقت للراحة

لم يشهد السلك الدبلوماسى الأمريكى- يومًا - لحظة واحدة من الراحة أو الفتور.... هكذا يقول رجل باسم فى غاية الرضا. على عينيه نظارات نصفية ويعلو هامته شعر فى لون الفضة. وقد جلس يحتسى قهوته «الكابوتشينو» فى أحد مقاهى شارع فيافينيتو فى روما ، إنه «ت. كلوفيريوس» سفير سابق لدى البحرين ويعمل مديرًا عامًا لقوة المراقبة فى سيناء التى تتخذ مقرها فى العاصمة الإيطالية.. يبدو محدثنا كأنه لم يترك شيئًا إلا وقام به من خلال خدمته الدبلوماسية: فى السعودية تعلم فن تحنيط الجثث. يقول «ليس ثمة تحنيط هناك، فالمسلمون يدفنون موتاهم خلال أربع وعشرين ساعة. لكن طبيبًا لبنانيًا كان يجربه على جثث الأجانب، وقد ساعدته فى ذلك يومًا وأتذكر أننا وضعنا جثة أمريكى فى فريزر مقصفنا الذى لم يكن فارغًا بحال من الأحوال؛ بل أتى حين من الدهر ليشهد الدبلوماسي «كلوفيريوس» مشاركًا فى تحقيق جريمة قتل اتهمت فيها امرأة أمريكية وعشيقها بتدبير قتل الزوج. وما كان من«كلوفيريوس»- وقد كان يعتقد بإدانة المرأة - إلا أن دبر لإخراجها من البلاد.

ولم تكن تلك هى المغامرات الوحيدة التى أقدم على خوضها السفير «كلوفيريوس».

لقد ولد فى بوسطن عام ١٩٣٤.. منحدرًا من صلب عالم جغرافى هولندى ومتخذًا اسمه أيضًا. ونشأ وسط عائلة من ضباط البحرية المحترفين. وبسبب ضعف النظر لم يتمكن من الالتحاق بالأكاديمية البحرية الأمريكية فى «أنابوليس» حيث ذهب أفراد آخرون من أسرته؛ لكن بعد التخرج فى جامعة «نورث وسترن» دخل مدرسة مرشحى الضباط التى أوصلته إلى دائرة استخبارات البحرية فى واشنطن؛ حيث تعيَّن عليه الاختيار بين عدة لغات فريدة كى يتعلمها :«التقطت روزنامة وقرأت فيها أن هناك عشرين بلدًا وأكثر تتحدث العربية، وعليه فقد وضعت العربية خيارًا ثالثًا بعد الروسية والصينية». واختارته البحرية لدراسة العربية ثم أرسلته إلى كاليفورنيا بعد عام من التعلم، وبعدها أوفدوه سنتين فى وظيفة تنصت لمخابرات البحرية فى قبرص تخللتها رحلات إلى لبنان وسوريا ومصر.

ترك «كلوفيريوس» البحرية عام ١٩٦٢؛ وأمضى عامًا يفكر فى الانغماس فى عالم التجارة والأعمال أو الصحافة. وأخيرًا حصل على منحة دفاع قومية لدراسة شئون الشرق الأوسط بجامعة أنديانا.. ولم يطل به الوقت حتى أصبحت فيتنام قضية ساخنة فى حرم الجامعة. «كانت فترة كئيبة بالنسبة لنا – معشر الدارسين بالجامعة ممن لهم علاقات مع الجيش». وما كان منه إلا أن التحق بالسلك الدبلوماسى فى عام ١٩٦٧م

رغبة منه فى مفارقة عالم الجامعة ودوائر يسار المثقفين مع العودة إلى الخدمة الحكومية. وفى أول يونيو ١٩٦٧؛ أبحر على متن حاملة الطائرات الأمريكية «أنديندنس» فى طريقه إلى السعودية.

فى ميناء لشبونة، تلقى «كلوفيريوس» أنباء الهجوم الإسرائيلى المباغت على مصر نذيرًا بحرب الأيام الستة. وكانت السفينة قد بلغت «نابولى» فيما كانت سفارات أمريكا تغلق أبوابها فى كل أنحاء العالم العربى؛ بيد أن السفارة فى «جدة» كانت لا تزال مفتوحة لتصريف الأعمال. وطار«كلوفيريوس» من «نابولي» إلى «إسطنبول» ومنها إلى«جدة» حيث التقى مع «تالكوت سيل» الذى كان نائبًا لرئيس البعثة ثم السفير«هيرمان إيلتس» المسئول عن إبقاء السفارة مفتوحة الأبواب. وقد قُدِّرَ لـ «هيرمان إيلتس» ، ومعه السفير «روى أثرتون» أن يكونا الوحيدين من أهل الاستعراب ممن سُمح لهم بأن يدخلوا ضمن «شلة» كيسنجر المقربة إليه. وعلى غرار «أثرتون» كان «إيلتس» يعد مستعربًا غير تقليدي، بمعنى المستعرب الذى لا يبدو أنه يضمر آراء مؤيدة للعرب. رجل طويل القامة.. من أهل الصنعة ودود، لا يفارق الغليون أصابعه. كان مرءوسو «إيلتس» مولعين بالإشارة إليه على أنه «هيرمان سليل الألمان» فى إشارة إلى أرومته الألمانية وسلوكياته المنتمية إلى عالم المحافظين. إن «إيلتس» يشع من كل جوانحه بالحكمة والخبرة – «حكيم» ينحدر من أوساط الناس يصفه «ديفيد لونج» – وهو دبلوماسى آخر كان يخدم في «جدة» فى ذلك الوقت – بأنه يعمل ١٨ ساعة يوميًا. وسبعة أيام بلا انقطاع فى الأسبوع، من ناحية أخرى، يلاحظ عضو فى مجلس الأمن الأمريكى القومى بأن

«هيرمان إيلتس» واحد من أقدر كاتبى البرقيات الدبلوماسية فى الخارجية الأمريكية.. بفضل ما أوتى من عقلية ثاقبة وفكر منضبط.

ولد السفير هيرمان فردريك إيلتس عام ١٩٢٢؛ العام فى القدس وإسطنبول. وإذ بدأ الكساد الاقتصادى عام ١٩٢٦؛ يمزق أوصال النسيج الاجتماعى والاقتصادى فى ألمانيا نقل الأب عائلته إلى «سكرانتون» فى ولاية بنسلفانيا الأمريكية؛ حيث وجد له أقرباؤه عملاً فى السكة .حديد المحلية، إن غصة لا تزال فى حلق السفير «هيرمان» إذ يتحدث عن والده الذى كان يراه عاملاً مرهقًا مكدودًا فى السكة الحديد.. والذى كان لا يفتأ يلهب خيال ابنه بأحاديثه قبل النوم عن حياة رغدة ومغامرة فى السلك الدبلوماسي»: لقد ضحى أبى بكل شيء كيما يتيح لى الفرصة فى أمريكا.. ومات عندما كنت فى «فردان» أشارك فى الحرب العالمية الثانية.

* * *

ومن يوم تخرجه فى جامعة بنسلفانيا ؛ كان الفتى يعرف أنه سيكون دبلوماسيًا. فى يوم من الأيام كان قد سمع عن كلية «فلتشر» للحقوق والدبلوماسية؛ لكنه كان بحاجة إلى وظيفة يدفع منها مصاريف الدراسة. وشاء الحظ أن يبادر هالفورد هوسكنز أستاذ الدراسات الشرق أوسطية إلى إتاحة فرصة عمل للفتى إيلتس يدرس فيها بالمركز القانونى للسودان المصرى-الإنجليزى. فى تلك الأيام حاول إيلتس الرفض قائلاً: إن

اهتمامه متجه صوب الشئون الأوروبية؛ لكن الأستاذ أجابه بقوله: أيها الفت إن أردت عملاً هنا فأحرى بك أن تقبل ما نقدمه، وعندما التحق الفتى بالجيش عام ١٩٤٢ كان اهتمامه بالشرق الأوسط قد ازداد اتقادًا.

* * *

وجد نفسه فى نورماندى عام ١٩٤٤، وبعد إصابة فى الركبة أوصلته معرفته كملازم شاب بالألمانية إلى وظيفة فى المخابرات الحربية ، يتقصى فيها أثر مستندات النازى قبل مبادرة القادة الهاربون إلى إعدامها، أو قبل وصول الحلفاء الآخرين إلى وضع اليد عليها. وبعد الحرب استطاع هيرمان إيلتس تعويض ما فاته، فالتحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٤٧، على أننى أصبحت مستعربًا بالصدفة، لم يكن تعلم اللغات قد تطور إلى ما أصبحت عليه الآن. وكانت الساحة لا تحوى سوى القلة لدرجة أن معارفى المحدودة باللغة العربية وبأحوال المنطقة أهّلتنى لوصف «الخبير» ، ومن ثم وضعونى فى وظائف من عاصمة لأخرى: طهران، جدة، عدن وبغداد.

فى عام ١٩٦٤: شغر منصب رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية فى تل أبيب وناور إيلتس للحصول عليه ولم يكن قد تخلى قط عن رغبته فى أن يصبح دبلوماسيًا أمريكيًا فى أوروبا، وكأنما كان يشعر بأنه بهذا يقترب من الدائرة التى كان قد بدأ بها والده الدبلوماسى الأوروبى. وكان يتصور أن من شأن منصب فى إسرائيل أن يوصله إلى اختتام ناجح

لسيرة المستعرب ويشكل من ثم خطوة وسيطة باتجاه أوروبا ؛ ثم إن إيلتس كان يشعر بقدر من عدم الارتياح إزاء صفة مستعرب التى ألصقت به وإزاء تلك النوعية من الدبلوماسيين الذين يشغفون بالولاء للثقافات المحلية، وقد كتب عليه العمل معهم جنبًا إلى جنب؛ لكن يشاء سوء طالعه أن تكون لدى أفريل هاريمان وكيل الخارجية أفكار مغايرة بالنسبة إلى مستقبل هيرمان إيلتس.

كان عقد استئجار القاعدة الأمريكية فى ليبيا على وشك الانتهاء، ولم يكن هاريمان واثقًا فى السفير الأمريكى فى ليبيا، وكان يريد عنصرًا مقتدرًا فى سفارته فى طرابلس يرقب تطور المفاوضات مع حكومة الملك إدريس السنوسي. وشرح هيرمان لوكيل الوزارة أهمية أن يخدم عنصر مستعرب فى إسرائيل كى يكون مطلعًا على ما يدور فى الجانب الآخر. لكن التمساح العجوز تظاهر بأنه لا يحسن الاستماع وإنما خفض هاريمان رأسه قائلاً: إيلتس ، سوف تذهب إلى طرابلس.

*   *   *

وفى عام ١٩٦٥؛ كوفئ إيلتس على حسن إنجازه فى ليبيا بأن بعثوه سفيرًا فى السعودية فى سن مبكرة نسبيًا - الثالثة والأربعين- وعاود وكيل الوزارة وقتها إلقاء محاضرة حازمة على مسامعه؛ حيث قال: «أرأيت لو كنت قد وافقت على طلب إرسالك إلى إسرائيل لما أصبحت الآن سفيرًا».

يقول جون كينيث جالبريت - أستاذ الاقتصاد فى هارفارد وقد خدم بدوره سفيرًا بالهند: إن تكون سفيرًا أشبه بأن تكون طيارًا؛ فترات طويلة من السأم وفترات موجزة من الإثارة وقت الأزمات.

وهكذا وفى أوائل يونيو ١٩٦٧؛ وقبيل وصول «كلوفيريوس» إلى جدة وبعد سنتين أمضاهما هيرمان إيلتس فى عمله باعتباره سفيرًا بها واجه واحدة من تلك الأزمات الكبرى:

اندلع القتال فى سيناء ومرتفعات الجولان، وكان الفلسطينيون فى أجهزة الإعلام (السعودية) قد أمعنوا فى تبشير الجماهير بوعود الانتصار، ثم جاءت أنباء الهزائم العربية تتساقط كالصواعق على الرءوس، وشعر العسكريون بأن هناك من تخلى عنهم فقالوا: إنهم لن يظلوا على علاقتهم بالأمريكان، وسارعت أرامكو إلى إجلاء مستخدميها، وتلقى إيلتس برقية من واشنطن توصيه بأن يعمل بدوره على إجلاء موظفيه ، لكن إيلتس رفض طلب واشنطن بإغلاق السفارة.

يقول كلوفيريوس الذى وصل إلى جدة لحظة وصول الأزمة إلى نقطة الغليان : كان الفرنسيون يهمسون فى الآذان بضرورة طرد الأمريكان؛ واعدين بأنهم سوف يديرون أرامكو من بعدهم. كانت أزمة الشرق الأوسط بالنسبة إلى الفرنسيين عبارة عن فرصة تجارية جديدة. على أن إيلتس يتذكر أن أرامكو لم تكن هى المشكلة، بل «كانت القضية الحقيقية هى المساعدات العسكرية. كان الفرنسيون على استعداد لتوقيع عقد كبير

يشمل ناقلات الجنود المدرعة، وكان رحيلنا جديرًا بأن يجعل أمامهم الأبواب ليتولوا بدلاً منا أمر العلاقات العسكرية».

* * *

ثم إن الأمر زاد خطورة بما يتجاوز مجرد المخاوف من الخسارة لصالح الفرنسيين، فكما أن سوريا الكبرى كانت محورًا للعلاقات العربية-الأمريكية فى مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية كانت السعودية فى الموقع نفسه فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية. رأى فينا أهلها شركاء فى أمور النفط والتجارة تمامًا كما سبق أن رأى فينا أهل الشام شركاء فى أمور التربية والتعليم.

كانت العلاقة قد بدأت رسميًا فى فبراير من عام ١٩٤٦؛ باجتماع الملك عبد العزيز مع الرئيس روزفلت الذى كان المترجم فيه هو الكولونيل ويليام إدي. وفى الخمسينيات توازى دور أرامكو مع دور جامعة بيروت الأمريكية السابق بوصفها ضابط الإيقاع المستتر للعلاقات العربية-الأمريكية؛ حيث حل محل المبشرين رجال خشنون غلاظ جاءوا من تكساس وأوكلاهوما يمضغون التبغ فى أشداقهم ويصنفون بأنهم أهم أمريكيين فى الشرق الأوسط.

* * *

ولم يكن يرمز إلى هذه العلاقة بأكثر بلاغة ودرامية بأكثر من خط التابلاين، تلك الأنابيب العملاقة من الأسمنت التى يجاورها طريق؛ وقد

نقلت النفط باتجاه الغرب من حقول الظهران عند الخليج عبر شمال الجزيرة العربية وحتى البحر المتوسط والبحر الأحمر؛ وهو ما يصفه «أرنست لاثام» الذى كان من معاونى السفير إيلتس بأنه واحد من شرايين حياة الوجود الأمريكى فى الشرق الأوسط.

هذا الوجود، أو تلك الإمبراطورية، كان لها أيضًا جانبها الرومانسى الذى امتد حتى عقد السبعينيات، أى الفترة التى انفجرت فيها أسعار البترول؛ مما جعل السدنة الغربيين يترنحون من هول الموقف. وهنا يسترسل ديفيد لونج فى ذكرياته عن الجزيرة العربية بقوله: إنها كانت فى تلك الأيام الخوالى شيئًا عظيمًا... كانت كيانًا أصيلاً، مجتمعًا تقليديًّا دون زخارف أو تزويق، لا يحمل على كاهله طبقات التمدين التى وضعها العرب فى مجتمعات مصر أو بلاد الشام.

ولقد قيض لكل من «كلوفيريوس» ومعه «لاثام» وموظف آخر من معاونى السفير إيلتس هو «جراهام فوللر» معايشة هذا المجتمع الأصيل بغير تزويق عندما انطلقوا بصحبة حارس من أهل المنطقة مسلح بمسدس عيار ٣٨ مم وسيف ذهبى المقبض، فى رحلة طافوا بها الجزء الشمالى من البلاد.

يتذكر«لاثام» قائلاً: هذه هى بلاد العرب على فطرتها، وكما عرفها رواد رحالة مستشرقون من أمثال تشارلس دوتى؛ حيث ترى الرجال وقد تخلل لحاهم الخضاب وأطلت من عيونهم نظرات كالشرر، وحيث يمكن أن تتعرف على واحة اجتاحها الملاريا من واقع البشرة التى اسودت؛

حيث يكون السكان السود قد اكتسبوا حصانة ذاتية ضد الملاريا، فإن مالت سيارتك إلى واحة قوامها من الأهالى السود؛ فما عليك إلا أن تغادرها لفورك قبل أن تجتاحك أسراب البعوض عند حلول الظلام.

ثم يتذكر «لاثام» و«كلوفيريوس» واحة من هذا القبيل صادف فيها عددًا من المدرسين الفلسطينيين ويقول: كنا أول قوم من عالم الحضارة يأتون إليهم على مدار عدة أشهر. جلسنا معًا نحتسى الشاى ووضعوا بيننا إناء ضخمًا من خفار يحوى أقراص الكينين، وتجاذبنا لساعات أطرافًا من أحاديث قبل أن يسدل الظلام الستور. ثم يضيف «لاثام» : أدركنا أن هناك عوامل مشتركة وكثيرة تجمع بيننا وبين هؤلاء الفلسطينيين.

فى يوم آخر ضل «لاثام» و«فوللر» بعض الطريق فوجدا نفسيهما وقد تجولت بهما السيارة فى ضواحى المدينة المنورة ولها قداسة مكة؛ حيث لا يجوز لغير مسلم دخولها ، وكان على اللاندروفر أن تستدير ١٨٠ درجة عند محطة بترول كى تسارع بالخروج من المدينة.

كان الدبلوماسيون الثلاثة لا ينعمون-فى واقع الأمر- بريعان الشباب؛ بل كانوا يحاولون أيضًا التعلق بأذيال حقبة كاملة من الزمن، حيث كان الدبلوماسيون الأمريكيون روادًا يديرون- على قلتهم- سفارة صغيرة بشارع فلسطين فى جدة بدلاً من جموع البيروقراطيين العاملين فى مجمع السفارة فى الرياض.

ويفسر «لاثام» الأمر بقوله: فيما : كان القوم فى أرامكو يعدون بالمئات كنا نحن لا نعدو العشرات... كنا مجرد فتات على كعكة عالمهم

النفطى الحافل، وكان لأرامكو مكتبتها الشرق أوسطية ومكتبها للمعلومات الذى كنا نغشاه كى نستقى ما نبغيه.

فى أعقاب حرب ٦٧؛ انتهت خدمة لاثام فى الشرق الأوسط ونقلوه ليكون من أوائل المختصين بشئون البلقان.

* * *

«سينشيا بارنوم» استشارية دولية فى نيويورك.. نشأت فى السعودية؛ إذ كانت ابنة ممثل شركة الطيران العالمية الأمريكية الذى يعمل مع الخطوط السعودية ، تقول: لم يكن ثمة ود مفقود بين الأمريكيين من جماعة النفط والتجارة ومواطنيهم من جماعة السفارة - السلك الدبلوماسي- كما يسمونهم فى جدة؛ بل كانت كل من الجماعتين مقسمة بدورها إلى معسكرين مختلفين... الذين ينعمون بصداقات عديدة بين العرب والذين يقبعون فى بيوتهم يحتسون الخمر ويسخطون على هؤلاء التاعسين من أهل البوادى والقفار.

ثم تقول: إن الثغرة الواسعة بين الثقافتين الأمريكية والعربية؛ جعلت من الصعب بناء جسور إنسانية بين الطرفين فأنت تخاطر فى ذلك بأن تقع بين المطرقة هنا والسندان هناك. ولن يكون بوسعك أن ترضى أيًّا من الطرفين. لهذا اختار الكثير نعمة التطرف المطلق.. إما أن يكره العرب من ناحية وإما أن ينحاز إلى جانبهم بشكل تام. من ناحية أخرى: كان الشعور المحلى بالمنطقة تجاه العلماء والخبراء بالذات شعورًا مختلطًا. لقد انقضت سنوات حتى عام ١٩٨٠، حين كان «ديفيد لونج» يدير برنامجًا

للماجستير مخصصًا للأمير بندر بن سلطان وقدموه يومها إلى (ولى العهد) فهد بن عبد العزيز ويتذكر لونج كيف كانت عبارات تقديمه بوصفه مستعربًا... عبارات مفعمة بالمبالغة والإسراف فى الإطناب؛ يومها لمعت عيون فهد وتمتم بآيات من القرآن الكريم فحواها ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

* * *

على أن هيرمان إيلتس استطاع الإبقاء على مجمل تلك العلاقة بين الرياض وواشنطن خلال فترة حرجة للغاية، ولو كان قد أصغى إلى تعليمات واشنطن لتصدعت العلاقة على أساسها على نحو ما حدث للعلاقات الأمريكية - السورية.

ولم يكن إيلتس لينطلق من دوافع مهنية بحتة؛ بقدر ما كان يصدر أيضًا عن مطلق المصلحة الأمريكية بألا تخسر ميزة تجارية كان من الصعب كسبها ولصالح دولة غربية منافسة. وليس صدفة أن يستطيع إيلتس-دون تقديم أى تنازلات-إبقاء السفارة مفتوحة فى جدة بمعاونة نائبه سيل وغيره من المساعدين. وكان النصف الثانى من عام ١٩٦٧ فى أعقاب حرب الأيام الستة؛ مرحلة مشوبة بتوتر شديد؛ إذ كان يمكن أن تتصدع العلاقة الأمريكية - السعودية فى أى وقت. هناك أمضى كلوفيريوس تلك الأشهر بوصفه الموظف الأمريكى الوحيد فى الرياض يقوم بكل شىء ابتداء من المهام القنصلية الاعتيادية إلى المساومة على

---

(١) سورة الجمعة.

استئجار البيوت استعدادًا ليوم الانتقال من ميناء جدة على البحر الأحمر إلى العاصمة الصحراوية - الرياض؛ حيث لم يكن مسموحًا من قبل بالإقامة للدبلوماسيين الأجانب.

وإذ أعجب إيلتس بجهود كلوفيريوس البالغ وقتها الثالثة والثلاثين قال له: «لا بأس عليك، سأجد لك وظيفة مرموقة فور أن تنجز هذه المهمة». كان إيلتس قد درج على تبنى تشجيع الدبلوماسيين من الشباب الذين يحترمهم. منهم مثلاً «ويليام روخ» الذى تبناه إيلتس بعد تكليفه بافتتاح أول مكتب صحفى وثقافى أمريكى فى الرياض؛ فأصبح -فيما بعد سفيرًا باليمن ثم سفيرًا فى الإمارات العربية المتحدة.. وذلك إنجاز يتحقق لموظف فى هيئة الاستعلامات الأمريكية وليس موظفًا فى الخارجية؛ حيث الهيئة دائرة منفصلة وحيث كان من الصعب - حتى على أنبغ موظفيها- أن يكون من موظفى الخارجية أو من السفراء.

ومن صنائع إيلتس أيضًا «دانييل كورتزر» ، وهو يهودى أصولى وكان نائبًا لعميد جامعة يشيفا فى نيويورك، وأوصى إيلتس بتعيينه مسئولاً سياسيًا بسفارة أمريكا فى القاهرة عام ١٩٧٩م عقب توقيع اتفاقات كامب ديفيد للسلام ويقول: «ربما كان المصريون غير مستريحين لفكرة وجود دبلوماسى يهودي، لكن.. اللعنة! لقد كانت السفارة سفارتنا بمعنى أن ليس لأحد حق التدخل فى شئونها».

وبهذا أصبح «كورتزر» أول يهودى أمريكى يخدم فى إحدى سفارات الولايات المتحدة فى بلد عربى كبير؛ بل وكان يأمر بطعام الكوشير اليهودى فيأتيه حسب الطلب إلى حيث يقيم. وفى هذا يقول أحد المستعربين: هناك نوعان من اليهود الأمريكيين ممن عملوا فى شئون

الشرق الأوسط بالحكومة الأمريكية.. الذين كنا نثق فى أنهم لن يسربوا الأسرار إلى الإسرائيليين؛ والذين كنا لا نثق فيهم، كورتزر كان من النوع الأول.

حرص إيلتس- أيضًا- على أن يجد وظيفة مرموقة لمساعده الآخر «كلوفيريوس» عندما حان نقله إلى موقع جديد وكان ذلك فى إسرائيل، حيث المكان الذى سبق وأراد إيلتس نفسه العمل فيه ولم يستطع، بسبب إفريل هاريمان.... وفى هذا يقول «كلوفيريوس»: ذكر لى إيلتس أنه ينبغى لى أن أرى كلا الجانبين وألا أعير أى اهتمام بسخافة العداء للسامية التى كنت قد سمعتها من آخرين كانوا يعملون فى السفارة.

عرضوا على الدبلوماسى الأمريكى «كلوفيريوس» العمل فى سفارة أمريكا فى إسرائيل، وهو يتذكر هذا العرض فيقول : «كان العرف الدارج يحكم عليك ألا تتاح لك العودة إلى العالم العربى بعد خدمة تقضيها فى إسرائيل، وعليه فقد تلقيت أخبار العرض الجديد بقدر كبير من التوجس والمخاوف والفضول»..على أن كلوفيريوس إنما كان يقتحم مجالاً جديدًا فلم يسبق لأى مستعرب من قبل الخدمة فى إسرائيل، وكان الأمر يتطلب قدرًا غير عادى من التحوط والحذر.. كان عليه مثلاً أن يروى أكاذيب بيضاء لأصدقائه من عرب الجزيرة حول موقعه الوظيفى الجديد، وعندما جاء الحمالون لنقل أمتعته أبلغوهم بأن يضعوا على الصناديق ملصقًا يقول: «الجهة المقصودة قبرص» وكان الترتيب أن يعاد تغليف وتعبئة الأمتعة لترسل من قبرص إلى إسرائيل، وفى ٤ يوليو ١٩٦٩ وبعد بضعة أيام من التخلى عن حياته التى أمضاها بوصفه مستعربًا فى السعودية؛ وصل

«كلوفيريوس» إلى تل أبيب؛ حيث شرع لفوره فى دراسة العبرية. «وكان لدى الإسرائيليين مقدار من الفضول والتشكك يفوق ما كان عندي. ولقد تعرفت إلى أصدقاء كثيرين فى مجتمع الأثاريين المحلى بفضل الصور التى كنت أقتنيها للمواقع النبطية فى السعودية؛ حيث لم يكن باستطاعة الإسرائيليين الذهاب إليها. وكان رد فعلى المبدئى تجاه إسرائيل إيجابيًا؛ إذ كان أداؤها أفضل قليلاً عما هو الآن.. كنت متزوجًا ولى طفل واحد فى عام ١٩٦٩، ووجدنا فى تل أبيب خدمات ومرافق طيبة من حيث السكن والمدارس، وكان ذلك فى أعقاب نشوة انتصار حرب ١٩٦٧؛ حيث كان الإسرائيليون بانتظار مكالمة هاتفية لصنع السلام من الملك حسين.

بعد ذلك استطاع دبلوماسيون أمريكيون كثيرون النسج على منوال كلوفيريوس.. «توماس بكرنج» مثلاً انتقل من كونه سفيرًا لدى الأردن ليصبح سفيرًا فى إسرائيل. «ريتشارد فيتس» و«نيكولاس فيلوتس» تحركا فى الاتجاه المضاد من مساعد رئيس البعثة فى السفارة بتل أبيب إلى سفير بالأردن؛ بيد أنه كلما تحرك الفرد إلى أعلى زاد ابتعاده عن معطيات الواقع المحلى فيما تقل قدرته على التنقل والترحال.

ومن ثم فتجربة أن تكون سفيرًا أمريكيًا فى بلد عربى كالأردن ليست مغايرة كثيرًا عن أن تكون سفيرًا أمريكيا فى إسرائيل؛ ذلك لأن تقنيات الدبلوماسية متماثلة بقدر تماثل سيارات الليموزين الفارهة أيضًا. لكن كلوفيريوس كان- فى ذلك الوقت- من شباب الدبلوماسيين الذين كتب عليهم الانتقال من دقائق الحياة فى العربية السعودية إلى دقائق الحياة فى إسرائيل. المهمة الأولى التى أسندوها إليه كانت فى المجال الاقتصادى

ليعالج أمر التبرعات الخيرية الأمريكية التى انتقلت بعد الاستيلاء على الضفة الغربية من مقرها فى عمان الأردنية إلى تل أبيب؛ بما يكفل مواصلة تقديم خدماتها الإنسانية للفلسطينيين. وكانت تشمل مؤسسات: كير والغوث الكاثوليكى والخدمة اللوثرية العالمية. وكان التعامل مع الإسرائيليين بمثابة صدمة انتابت تلك المؤسسات الخيرية حيث اتصف الإسرائيليون بمزيد من الكفاءة وقليل من أدب السلوك وكثير من الطلبات بأكثر مما كان عليه نظراؤهم العرب. لكن الأمر بالنسبة إلى «كلوفيريوس» انطوى على إمكانات النفاذ بالبصيرة، لا إلى جوهر سلطات الاحتلال الإسرائيلى فحسب، بل وإلى ردود فعل العاملين فى تلك المؤسسات المسيحية الغوثية إزاء اليهود المتشددين؛ إذ كانت همزة الوصل لكل من المؤسسات الخيرية والدبلوماسى كلوفيريوس هى وزارة الرعاية الاجتماعية فى إسرائيل، وكانت فى تلك الفترة بيد الحزب الوطنى الدينى.

يقول «كلوفيريوس»: «فى تلك الفترة كانت إسرائيل تتخير أفضل عناصرها لتضعهم فى مواقع الحكم العسكرى للضفة الغربية ؛ أملاً فى كسب قلوب العرب وعقولهم لدرجة يمكن معها القول إنه فى المراحل الأولى من الاحتلال كان يمكن لجيش الدفاع الإسرائيلى أن يكسب فى انتخابات شعبية بالضفة الغربية، لكن ما لبث النقاب أن انكشف عن واقع السيطرة الاستعمارية والفساد الذى يرافقها وجاء ذلك بالتدريج».

«عندما غادرت إسرائيل عام ١٩٧٢، كنت قد بدأت أشهد فسادًا هائلاً ضاربًا فى صفوف المؤسسة المدنية العسكرية الإسرائيلية بالضفة

الغربية. وكان ذلك على شكل عمليات الإذلال والإرهاب الجسدي؛ فضلاً عن الرشاوى الصغيرة؛ ما تعين على العرب دفعها للموظفين الإسرائيليين. وما إن جاء الليكود بيجن إلى السلطة عام ١٩٧٧م حتى عمدوا إلى تشجيع هذا الإذلال لكرامة البشر؛ فوضعوا فى الضفة الغربية أخبث عناصر اليهود العراقيين ومن سواهم من يهود الشرق - سفارديم من أجل اضطهاد العرب. ومن الأسباب غير المذاعة عن بقاء إسحاق رابين وزيرًا للدفاع حتى أواخر الثمانينيات أنه كان يريد استعادة نزاهة جيش الدفاع الإسرائيلى فى الضفة الغربية».

يتحدث السفير «كلوفيريوس» عن إسرائيل بالطريقة نفسها التى يتناول بها أفضل المستعربين حديثهم عن الأقطار العربية، لا من منطلق المشجع وحسب؛ بل ومن منطلق المطلًع على بواطن الأمور. يعرف القاموس المستخدم وظلال المعانى المطروحة والتناقضات الحاصلة والجوانب الإيجابية والحماقات المدمرة للذات، وعندما تصغى إليه فأنت تدرك مكمن سوء الفهم تجاه إسرائيل؛ الذى يتسم به المستعربون من أصحاب المبشرين؛ ألا وهو العجز عن إدراك حقيقة الآخر.. بمعنى أنه بقدر ما أن سوريا أو الجزيرة العربية تشكل عوالم أكثر تعقدًا واكتمالاً مما توحى به الصور النمطية المنطبعة عنها بالأسود والأبيض... فكذلك الأمر مع إسرائيل، وكما أن للمستعربين أصدقاء حميمون ومعارف مقربون طوال العمر فى العالم العربى ويشكلون عنصرًا إنسانيًا حساسًا قلما تأخذه فى الاعتبار آليات السياسة الواقعية، فإن للدبلوماسيين الذين خدموا فى إسرائيل أصدقاء ومعارف هناك. على أن المستعربين أشبه

بالرحالة- المستكشفين؛ ويعنيهم الحرص على الواقع المشاهد بالتجربة العملية، وهم لا يقبلون بوجود شئ إلا إذا تيسرت لهم مشاهدته وسماعه بل ومعايشته شخصيًا كما قد نقول.

«المستعربون فى معظم الحالات ليسوا متحيزين ضد إسرائيل من منطلق مشاعر عاطفية عميقة؛ بل لأنهم - ببساطة- لم يتعرضوا للتجربة» إن كلوفيريوس يعنى بهذه العبارات أنهم لم يقدر لهم- قط- العيش فى إسرائيل، وفى هذا يقول أيضًا صمويل لويس- سفير أمريكا فى إسرائيل- بين عامى ١٩٧٧ و١٩٨٥: «المستعربون ثم الدبلوماسيون الأمريكيون العاملون فى إسرائيل يأتون من نسقين مختلفين تمامًا من أنساق التجربة الشخصية؛ فالمستعربون استقوا أصدقاءهم وتجاربهم من واقع العالم العربى أما الدبلوماسيون الأمريكيون فى تل أبيب فهم اختصاصيون فى الشئون السوفيتية أو الآسيوية أو أمريكا اللاتينية، وكانوا ينشدون العمل خارج مناطق اختصاصهم. لهذا حرصت أنا وروى أثرتون على الإلحاح على مباشرة عملية تخصيب متبادل بين الطرفين فى أواخر السبعينيات فى محاولة لاستخدام المستعربين فى إسرائيل وبالعكس».

* * *

وإذا كان كلوفيريوس رائدًا فى هذا المجال؛ فقد عمد إلى استخدام الحقيبة الدبلوماسية لإرسال نسخ من كتاب عاموس ألون بعنوان «الإسرائيليون المؤسسون والأبناء» إلى الأصدقاء الدبلوماسيين فى

كل أنحـاء العالـم العربى وكتاب ألـون المنشور للمـرة الأولى عام ١٩٧١؛ عبارة عن دراسة سيكولوجية بليغة لأول جيلين فى إسرائيل، ويقف الكتاب شاهـدًا على وجـود مؤسسة حزب العمل الليبرالية وينـزع إلى التهكم على حقيقـة الطابع اليهـودى- الشرقى لإسرائيل التى طفـت على السطح أكثر وأكثـر مـع انصرام السبعينيـات؛ ما يجعلـه دليلاً لما أصبـح يعرف باسم إسرائيل الجميلة.

إن مناجـم بيجيـن الـذى تولى فيمـا بعد رئاسـة الـوزارة، وهو زعيم منظمـة الأرجون السريـة - الإرهابية - لا يظهر اسمه فـى فهرست أسماء الأعـلام بالكتـاب، مـن هنـا يكتب ألـون عـن إسرائيل بغيـر الليكـود وبغير المستوطنيـن من الجناح اليمينى - المتعصـب - وأيضًا بغير السفارديم- اليهود الشرقيين - تلك إذن إسرائيل التى يمكن أن يهضمها على الأقل كثير مـن المستعربين. وبالمناسبـة فقد ذكر «ناتانيل هوويـل» - وهو مستعرب وكان سفيـرًا لأمريـكا فى الكويت وقت الغزو العراقـى - أنه وجد إسرائيل فعالـة نابضة بالحيـاة عندما زارها للمرة الأولى عـام ١٩٧١؛ حيث «وجدت حساسية وقيادة عالمية الاتجاه على نحو لم أكتشفه فى السنوات اللاحقة».

* * *

والحاصل أن كثيرًا من المستعربين الأمريكيين باتوا-أخيرًا- فى السبعينيات؛ وبكل معانى الكلمة على مشارف الراحة النفسية إزاء الحقيقة القائلة بدولة يهودية. لكن جاء انتخاب بيجن لرئاسة الوزارة

فى مايو ١٩٧٧ ليطوح بهم بعيدًا إلى روح الخمسينيات؛ بمعنى السخط على تقسيم فلسطين. وقد صدق تالكوت سيل فى إحساسه بأن سياسات الليكود تتنافى أخلاقيًا مع مصالح إسرائيل فى الأجل الطويل. ولقد جاء بيجن ليتبع سياسات متشددة؛ وعلى الرغم من أنه كان يوحى بدرجة من الاحترام؛ فإن الدبلوماسيين وجدوا أنه من الصعب التعامل معه على أساس شخصي، ثم إنه كان يمثل فى عيون الكثيرين الصورة النمطية السلبية عن اليهودى الأوروبى المثير للمتاعب، وإذ قدر للدبلوماسى كلوفيريوس أن يشهد تدهور المجتمع الإسرائيلى فى ظل الليكود؛ فهو يتكلم بحمية صديق حقيقى لما يسميه إسرائيل الجميلة حين يقول:

«إنهم يعطون لمناحم بيجن أكثر مما يستحق عن كامب ديفيد وما كان لمعاهدة سلام أن تتم بين مصر وإسرائيل: لولا وجود نماذج من حزب العمل من أمثال موشى ديان وعيزر وإيزمان وأهارون باراك ممن أسدوا النصيحة إلى بيجن؛ وهم الذين ظلوا يضغطون صوب إبرام الاتفاق؛ على أن بيجن كان من التعقل إلى حد إدراك أن ليست فى صفوف الليكود موهبة يعتد بها. وهكذا كان اتجاهه لطلب المساعدة من حزب العمل. أما أرييل شارون فقد ظل يوزع الاتهامات بغير أساس حول انتهاكات مصر للمعاهدة (مع إسرائيل).

* * *

إن «عاموس ألون» الكاتب المثقف والجنرال شارون بطل الحرب الذى تحول إلى سياسى من الجناح اليمينى هما بمثابة طرفى حركة البندول التى تتحول على إيقاعها العواصف التى يسجلها المستعربون تجاه السياسات الإسرائيلية. إن السفيرة إبريل جلاسبى؛ إذ كانت مستشارًا سياسيًا ونائبًا لرئيس البعثة فى دمشق عام ١٩٨٣ هتفت فى مكتبها أمام كاتب هذه السطور قائلة: أوه! عاموس ألون، لله دره من رجل!.

وهكذا فما عليك إلا أن تذكر اسم عاموس ألون حتى تنطلق قصائد المديح من أفواه المستعربين؛ فإن ذكرت شارون فلن يقتصر الأمر على السفير سيل وسط مسئولى إدارة الشرق الأدنى فى الخارجية الأمريكية ممن يجدون وزير الدفاع الإسرائيلى السابق فظًا غليظًا، كارلون كون يقول: عندما يتحدث شارون ويبتسم فهو أشبه بجورنج- زعيم النازى المقيت - أما لوشيوس باتل السفير السابق لدى مصر ومساعد وزير الخارجية للشرق الأدنى ورئيس معهد الشرق الأوسط فى واشنطن فيقول: إن شارون واحد من أفسد وأخبث الشخصيات فى هذا القرن.

الجنرال أرييل شارون بجرمه المكتنز وسلوكه الأشبه بوغد من الطراز التقليدى؛ يتحمل وزر خطايا لا يستهان بها؛ بعضها معروف أكثر من سواه.. فى منتصف الخمسينيات قاد عددًا من أسوأ الغارات تعصبًا لإرهاب المدنيين الفلسطينيين فى قطاع غزة.

وفـى عـام ١٩٨٢، كان مـن شـأن سياساتـه أن سمحـت لوحـدات الميليشيـات المارونيـة باقتحام مخيمى صبرا وشاتيـلا فى بيروت؛ حيث ارتكبت عناصر الميليشيات مذبحة. وخلال توليه وزارة الدفاع الإسرائيلية فـى أوائـل الثمانينيـات كانـت معاملته للسـكان البدو المحليـين عارية من اللياقة والكرامة. يتذكر أحد الدبلوماسيين الأمريكيين لقاء مع شارون فى إسرائيـل؛ حيث وقف شارون على رأس الرجل منتقدًا السياسة الأمريكية بألسنة حداد؛ متناسيًا حقيقة أن أمريكا كانت تحول بلايين الدولارات نقدًا وعدًّا إلى البلاد من أجـل تعويم اقتصاده النيوستاليني. يقول الدبلوماسى الأمريكـي: كان يومًـا قائظًا وكان قميص شارون قد انفتح إلـى أسفل من فـرط بدانته وكان بوسعك أن تلمح العرق يتصبب فوق كرشه ليشكل بركة صغيرة فوق الأرض.

كان شارون يكره الدبلوماسيين الأمريكيين كراهية التحريم. ولم لا يفعل وقد كان مبغضًا كذلك للدبلوماسيين الإسرائيليين؟ رأى فيهم حفنة من المأفونين المستعدين لإعادة تسليم أرض إسرائيل لمجرد إنشاء علاقات دبلوماسية مع المزيد من البلدان.

لكن يظل من المشكوك فيه بكل مقياس حتى فى ظل خيال موغل فى التصور - التطرق إلى إرييل شارون بوصفه واحدًا من أقسى وأسوأ شخصيات العقد الأخير ناهيك عن القرن بأكمله؛ وذلك فى ضوء ما شهده العالم فى السنوات الأخيرة من شخصيات رجال من طراز نيكولاى شاوسيسكو فى رومانيا وآية الله الخمينى فى إيران وصدام حسين

فى العراق وبول موت فى كمبوديا ومنجستو هايلا مريام فى إثيوبيا المسئول عن تشريد ملايين من البشر من ديار آبائهم؛ ناهيك عن مسئوليته عن المجاعة التى راح ضحيتها الملايين. ثم هناك بارونات الحرب فى الصومال والصرب ممن جعلوا الملايين يتضورون جوعاً؛ بل وأقاموا لهم معسكرات اعتقال بكل معنى معسكرات الاعتقال، إن المبالغات التى اكتنفت آرييل شارون والتى ظل يرددها بغير انقطاع المستعربون - الأمريكيون - حول ذلك الجنرال الإسرائيلى الشديد البدانة والوقاحة، الداهية اللامع فى أمور التكتيك؛ أليست تقود إلى طرح سؤال لا مناص من طرحه: أهو شارون ذاته الذى يكرهون؟ أم شارون هذا مجرد ذريعة تريحهم ويتعللون بها للتنفيس عن بغضهم الذى يضمرون لإسرائيل؟

وهل إسرائيل مقبولة لديهم عندما تكون كاملة الأوصاف من الناحية الأخلاقية؟ إن السفير كلوفيريوس سوف يجيب عن ذلك بأنه ينبغى لزملائه إدراك الظلال الرمادية الفارقة بين إسرائيل الجميلة عند المثقف «ألون» وتلك التى يراها شارون؛ لكن الأمر الذى لا يخفى بحال هو أنه بينما يعكف قدامى المستعربين على الإسهام أمام زائرهم فى شرح التعقيدات الرهيبة التى ينطوى عليها تفسير الواقع العربى وهم يمضون ساعات فى ذلك ؛ لكنهم لا يكادون يأبهون بأن يروا إسرائيل من خلال صورة نمطية سلبية شديدة التبسيط.

* * *

يقول كلوفيريوس: إن ذروة خدمته الدبلوماسية فى إسرائيل؛ كانت عندما سألته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل إذ التقته فى مكتبها إبان حفل استقبال: «كيف ترى إسرائيل العالم العربى خارج حدودها؟»، قلت لها «إن الإسرائيليين كانوا على قدر من السذاجة والخطأ فيما يتعلق بكثير من الأشجار العربية المغروسة هنا أو هناك؛ ولكن لديهم فكرة طيبة عن مجمل الغابة العربية التى يتعاملون معها». وقلت لها أيضًا إن إسرائيل ساذجة فى تصوراتها عن المشاعر الحقيقية الكامنة فى نفوس عرب إسرائيل وكذلك أهل الضفة الغربية».

ومن العجيب أن خدمة كلوفيريوس فى إسرائيل فى أعقاب خدمته بالسعودية أدت إلى دفع ترقيته الوظيفى بدرجة غير عادية بدلاً من إنهاء اختصاصه باعتباره واحدًا من المستعربين. وكما وجد أثرتون نفسه مسئولاً عن مكتب الشئون العربية بالخارجية خلال حرب الشرق الأوسط عام ١٩٦٧؛ وجد كلوفيريوس نفسه مسئولاً عن المكتب نفسه فى حرب ١٩٧٣، وعندما بدأ وزير الخارجية هنرى كيسنجر رحلاته المكوكية فى نهاية ذلك العام؛ بدأ كلوفيريوس فى البروز بوصفه كبير المسئولين عن الصياغة للاتفاقات المختلفة التى كانت مطروحة؛ إذ كان زملاؤه يرون فيه ممثلاً لطرفى النزاع.

وفى عام ١٩٧٦، وقبل أقل من عشر سنوات على التحاقه بالسلك الدبلوماسى، رُشح كلوفيريوس سفيرًا لدى البحرين، وقلما شهد تاريخ الدبلوماسية الأمريكية موظفًا ترقى من رتبة صغيرة ليصبح سفيرًا فى مثل هذا الوقت القصير.

عندما قرر السفير هيرمان إيلتس مقاومة اقتراح واشنطن بإجلاء موظفيه فى سفارة أمريكا فى جدة خلال حرب عام ١٩٦٧؛ أدى هذا إلى دفع تقدمه الوظيفى إلى الأمام فى الأجل الطويل على الأقل وهو فى هذا يقول: قليل من الدفع يصلح الأمور.. يفيد ولن يضر فى كل حال.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يتمرد فيها إيلتس على مسار التفكير السائد والطرح التقليدى.. قبل اندلاع حرب ١٩٦٧ كان قد أوصى ومعه سفير أمريكا فى ليبيا - فى ذلك الوقت «ديفيد نيوسوم» - بإرسال مدمرات بحرية أمريكية عبر مضايق تيران بمدافع مصوبة على طريقة كورفو - بمعنى غير متأهبة للانطلاق (نهجًا على سابقة إرسال سفن حربية بريطانية فى مظاهرة بين ساحل كورفو اليونانى والبانيا ذات النظام الشيوعى تأييدًا لليونان وترويعًا لألبانيا)، وكان القصد هو استعراض أمريكى للقوة أمام مصر وضد إغلاق خليج العقبة بوجه الملاحة الإسرائيلية، ولتطمين الإسرائيليين بأن الولايات المتحدة عاقدة العزم على الوفاء بالتزاماتها تجاه أمنهم على نحو ما قطعته بعد حرب سيناء ١٩٥٦.. يقول إيلتس: المستعربون الآخرون كانوا ضد هذا الاقتراح، وانطوى الأمر على ممارسة الولاءات المحلية من جديد؛ بيد أن أفضل قوات عبد الناصر كانت وقتها متورطة فى اليمن؛ ومن ثم فلم يكن للمصريين أن يقصفوا سفننا.

«كان الجيش المصرى يساند القوى الوطنية فى ثورة اليمن؛ وقد واصلت الحرب الأهلية هناك من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٩، ثم إن

الإسرائيليين عندما يروننا جادين فى حمايتهم، كان يمكن ألا يشعروا بضرورة شن هجوم إجهاض مباغت على مصر على نحو ما فعلوا لفورهم».

هذا التفكير المستقل؛ ربما يكون قد لعب دورًا فى المنصب الذى أسند إلى إيلتس بعد وهو نائب قائد الكلية الحربية الأمريكية فى بنسلفانيا. وكان ذلك نوعًا من المنفى الدبلوماسى، وكان على إيلتس أن يأوى إلى عزلته تلك إلى أن جاءت إحدى ليالى خريف عام ١٩٧٣، فى أعقاب حرب أكتوبر عندما تلقىمكالمة من جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى- يأمره بالقدوم إلى واشنطن «لأن الوزير كيسنجر يريد أن يتكلم معك».

كان كيسنجر يستعد لأولى جولاته الدبلوماسية فى عواصم الشرق الأوسط؛ وبدأ محادثة إيلتس بأن سأله عن الملك فيصل، عاهل السعودية قائلاً:« سمعت أن فيصل معاد لليهود، وأنا يهودي، فقل لى كيف أتعامل معه؟»، أجاب إيلتس قائلاً لكيسنجر: « كل ما هنالك عليك أن تدع فيصل يتكلم ويتكلم ويتكلم وسوف يحاضرك عن المؤامرة الصهيونية وما إلى ذلك. وما عليك إلا أن تسمع بهدوء وأدب وبعد ذلك - كما شرح إيلتس - ستأتى لحظة يشير فيها فيصل إلى مسجل اللقاء بأن يغادر المكان فتلك هى نسخة الاجتماع التى سوف ترسل إلى منظمة التحرير الفلسطينية - وبعد ذلك يستطيع فيصل وكيسنجر أن يتحولا إلى الكلام الجاد والتعاون المفيد.

وقد لاحظ كيسنجر أن إيلتس كان من القلائل الذين أوصوا بكسر حصار عبد الناصر الذى فرضه على مضايق تيران فى عام ١٩٦٧. وإذ

أومأ إيلتس موافقًا عرض كيسنجر أن يكون سفيرًا فى مصر؛ حيث كان متوقعًا استئناف العلاقات الدبلوماسية فى غضون أيام بعد أن كانت قد قطعت عام ١٩٦٧. وعاد إيلتس إلى موقعه فى تلك الليلة لإعداد حقائبه. ولأن كيسنجر قام أيضًا بتسريب الخبر بأن إيلتس سوف يصحبه على طائرته إلى الشرق الأوسط ثم يبقى فى القاهرة لتولى مسئولياته الجديدة؛ فقد رتب إيلتس لشحن أمتعته فى وقت لاحق.

عمل «هيرمان إيلتس» سفيرًا لأمريكا فى مصر فى الفترة بين عامى ١٩٧٤ حتى ١٩٧٩؛ ولم يقتصر الأمر على أنه كان من المقربين ضمن دائرة كيسنجر الضيقة من مستعربى الخارجية الأمريكية بالنسبة إلى سياسة كيسنجر بالشرق الأوسط ولا يشاركه فيه سوى الفرد أثرتون؛ بل إن إيلتس كان من المقربين إلى الرئيس جيمى كارتر أيضًا.

شهد إيلتس وشارك فى عدد من الأحداث التاريخية: اتفاق سيناء لفصل القوات؛ وقد لعبت فيها أمريكا دور السمسار بين مصر وإسرائيل بعد حرب ١٩٧٣؛ ثم زيارة الرئيس المصرى السادات المفاجئة إلى القدس عام ١٩٧٧؛ وبعد ذلك اتفاق كامب ديفيد.

برهن إيلتس على أنه شديد المراس حقًا. يقول أحد المشاركين فى كامب ديفيد: إن إيلتس كان هو الذى يفسر شخصية السادات إلى كارتر وفانس وزير خارجيته وبرجينسكى مستشاره للأمن القومي. وإذا لم يكن أحد من هؤلاء يعرف كيف يفهم السادات ، كان إيلتس هو الذى يقول لهم متى يكون السادات جادًا ومتى يكون منغمسًا فى بلهوانات استعراضات

مسرحية؛ ثم إن إيلتس كان حريصًا على معاملة رئيس الوزراء بيجن باحترام محسوب كلما التقى معه. كان يعرف أن وجود مستعرب سفيرًا فى مصر؛ قد يجعله محل شك فى أعين الإسرائيليين؛ لكنه اكتسب ثقة بيجن بل كان يرسل إليه باستمرار مذكرات مهذبة. وعندما توفيت زوجة بيجن كتب إليه رسالة شخصية ومطولة، كل ذلك على الرغم من أن إيلتس على مستوى السياسة كان يكره مناحيم بيجن.

إن موقع «هيرمان إيلتس» فى التاريخ؛ سيكون متصلاً فى الأساس بسنوات خدمته فى مصر، وتلك فرصة عمل يدين فيها إلى فراسة كل من سيسكو وكيسنجر بالنسبة إليه، ومن الواضح أن محور تقييم كيسنجر له هو قدرته على إبقاء سفارة أمريكا فى جدة مفتوحة واستعداده لأن يعارض جميع زملائه؛ فيوصى باستعراض عسكرى للقوة فى مضايق تيران. وهنا يتذكر جوزيف سيسكو قائلاً: «هنرى وأنا رأينا أن إيلتس هو أفضل من صادفنا: كان متوازنًا بأكثر من سائر المستعربين، أما هنرى فقد رأى أنه لن يقامر به كما فعل بآخرين».

على أن المرء قد يشعر هنا بشيء آخر فى تقارب الرجلين دون أن يعترف به لا إيلتس ولا كيسنجر أيضًا. فعلى الرغم من أن إيلتس ليس يهوديًا مثل كيسنجر فإنه مثله ابن عائلة لاجئين ممن هربوا خشية الاضطراب السياسى فى ألمانيا. وعاش كلا الصبيين تجربة المهاجر إلى أمريكا فى المرحلة نفسها تقريبًا، والأهم أن كلا الرجلين احتفظ بين جوانحه الموروثة فيما يبدو- وبصورة عميقة- بما يشكل إطارًا مرجعيًا من تاريخ القرن التاسع عشر كى يفسر على أساسه ما تتكشف عنه حقائق الزمن الحالى..

يقول إيلتس: أنا أكنُّ إعجابًا شديدًا لهنرى كيسنجر... كان العمل معه متعة فكرية، له ذهن لامع لا يلبث أن يقدح أفكارًا. والأهم من ذلك أنه كان من أصحاب الرؤى النظرية يتطلع قدمًا إلى الطريق الذى ينبغى أن يسلكه.إن ما لا يدركه باستمرار المستعربون وغيرهم من أهل الاختصاص أن الجزء من العالم الذى ينتمون إليه لا يشكل سوى جانب من الصورة الأوسع فى مجملها؛ وهم لم يفهموا قط أن كيسنجر إنما كان يعمل على صعيد أوسع نطاقًا بكثير؛ بمعنى أنه كان يتعامل فى وقت واحد مع جميع أجزاء الكرة الأرضية.

* * *

بيد أن إيلتس خاض بالفعل مواجهات مع كيسنجر:«هنرى أستاذ فى فن رواية القصص مبتورة على طريقة «ولا تقربوا الصلاة»، وقد قدمت له استقالتى مرتين، وأظن أننى واحد من سفراء قلائل ممن وقفوا بوجهه ولم يحنق على ذلك بصورة ما؛ بل بدا وكأنه يحترم هذا الموقف، وكُنت من بين قلة من السفراء الذين لم يوجه إليهم انتقادًا يومًا من الأيام (*).

(*) فى أول مايو ١٩٩٢ منح هيرمان إيلتس كأس السلك الدبلوماسى، وهو واحد من أرفع الأوسمة التى يمكن أن يحوزها دبلوماسى أمريكي. وتقول براءته : «هيرمان فردريك» إيلتس الجندى والدبلوماسى والمربى بدأ حياة مهنية طويلة ومتميزة ضابطًا فى المخابرات العسكرية فى الحرب العالمية الثانية وأمضى ٣٢ عامًا فى السلك الدبلوماسي، توجت بتعيينه سفيرًا لدى السعودية ومصر، وكان المستعرب المتمكن فى الخارجية - وبهذا كان ملهمًا لزملائه من أهل الاختصاص، وعندما تقاعد عام ١٩٧٩ أصبح أستاذًا بارزًا للعلاقات الدولية فى جامعة بوسطن، حيث أنشأ مركز العلاقات الدولية ومن بعده قسمًا مستقلاً للعلاقات الدولية .

إن قرار إرسال مستعرب مثل «كلوفيريوس» ليخدم فى إسرائيل، وقرار استدعاء مستعرب آخر من الطراز نفسه مثل «إيلتس» من المنفى الوظيفى تم اتخاذهما على أساس خلفية من التحولات الجوهرية التى طرأت على إدارة شئون الشرق الأدنى فى الخارجية الأمريكية، ومن ثم على مجمل تاريخ المستعربين الأمريكان... ولأن هذه التحولات شكلت قوسًا واسعًا قبل أن تتجسد فى منعطف حاد فقد شملت تيارات متنافسة وعديدة كان من شأنها إخفاء ما كان يدور من وراء الستار لسنوات عدة؛ فيما لا تزال تحمل مغزاها من حيث التحول المهم الذى طرأ على حياة الأفراد الذين تأثروا بها.

فحتى عام ١٩٦٩؛ يسهل إصدار تعميمات حول إدارة الشرق الأدنى، بل وعلى مجمل دوائر الاستعراب الأمريكية، لكن منذ ذلك الحين فصاعدًا تغير المنظر الاستعرابى الأشمل ليصبح غابة متشابكة الأغصان ومتداخلة الطيوف والألوان. أين هذا من الخطوط القليلة والواضحة فى الماضي؟ وقد شملت عناصر المبشرين ومراقبى الطيور وأنماطًا على شاكلة لوى هندرسون. لكن ظلت دوائر الجامعة الأمريكية فى بيروت استثناء شديد التميز وسط هذه العملية التى استجدت من التحديث الثقافى والسياسى؛ إلا أن وزارة الخارجية تطورت بدورها بفعل عاملين نجمت عنهما سلسلة من التداعيات؛ كان أولهما - ولعله الأقل إثارة - يتعلق بالإصلاحات التى طرأت داخل صفوف وزارة الخارجية نفسها وكانت جارية منذ عقد الخمسينيات؛ حيث جاءت الخارجية بالمزيد من العناصر من الأقليات

والجماعات الإثنية وأبناء الطبقة الوسطى. أما العنصر الثانى والأهم؛ فكان يتمثل فى الفلسفة السياسية للرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون الذى تم انتخابه فى نوفمبر ١٩٦٨، والتى جاءت ترجمتها بمثابة ثورة من نوع ما فى إدارة شئون الشرق الأدنى.

الفصل الثامن

خبراء المنطقة ... ساخطون

جاءت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧؛ بمثابة حدث زلزالى أدى إلى تغيير فى حدود الشرق الأوسط.. يقول المؤرخ السياسى «ويليام كوانت»: فى واقع الأمر، فإن عملية السلام التى شهدتها السنوات الأخيرة قصد بها فى الأساس أن تعالج ما نتج عن أحداث ذلك الصراع، لكن فى عالم المناورات البيروقراطية فى واشنطن جاءت حرب الأيام الستة بنتائج شديدة الخلط والاضطراب.. شذرات متداخلة من التفاصيل التى لا توصل إلى صورة ذات معنى أو تأثير، وجاء الأمر بالنسبة إلى مستعربى وزارة الخارجية محاطًا بغلالات من التوتر والغموض سواء فيما يتعلق بالتعبئة لتلك الحرب أو ما نتج عنها من عواقب.

فعندما عمد الزعيم المصرى جمال عبد الناصر تصعيد التوتر فى الأسابيع السابقة على اندلاع المعارك، سادت مناقشات كثيرة فى أروقة إدارة الشرق الأدنى وغيرها من أفرع الحكومة الأمريكية، عما ينبغى القيام به وإن لم تنشب معارك ضارية حول السياسات التى يتبعها الفرقاء.

وكما يلاحظ كوانت؛ كان المستعربون والإسرائيليون كذلك يقفون فى الجانب نفسه الذى يقول: إن على واشنطن أن تظل بعيدًا عن هذا الصراع

الذى بدأ يضطرم.. كان المستعربون ينطلقون من فكرة أن من شأن حرب تقع أن تضعف على الأرجح - من موقف إسرائيل، أما الإسرائيليون فكانوا ينطلقون من الفكرة العكس وهى: إن بوسعهم أن يكسبوا الحرب إذا لم يتدخل أى طرف لمساعدة العرب.

* * *

الرئيس ليندون جونسون كان على غرار من سبقوه- دوايت أيزنهاور وجون كيندي- يحبذ بقاء الحالة الراهنة فى الشرق الأوسط، مزيج من التعاطف مع إسرائيل ولكن بدرجات متفاوتة ثم صداقة مع العرب؛ والأهم من ذلك رغبة فى تفادى وقوع النزاع. ولأن جونسون كان رئيسًا قليل الخبرة يفتقر إلى أى آراء ثابتة بشأن الشرق الأوسط؛ فقد كان يتلقى المشورة عن الموضوع دون تمحيص أو رؤية وكثيرًا ما كانت النصائح التى تسدى إليه متناقضة.

* * *

كان المستعربون باستثناء هيرمان إيلتس وديفيد نيوسوم، يعارضون إرسال سفن أمريكية لكسر إغلاق جمال عبد الناصر لمضايق تيران، بيد أن مسئولين آخرين فى وزارة الخارجية من المقربين إلى وزيرها دين راسك كانوا يحبذون الفكرة، إلا أن موقف الدوائر العسكرية الأمريكية

كان فاترًا إزاءها، وأدى- فضلاً عن غيره من الجدل السياسي- إلى عدم الحسم؛ مما أعطى للإسرائيليين الثغرة الضيقة التى كانوا يحتاجون إليها لشن هجوم مباغت على مصر دون أن يشغلوا أنفسهم حتى بمعرفة رد فعل واشنطن، وبعد ما لا يزيد على ستة أيام من القتال لم تسقط فى يد إسرائيل سيناء فحسب بل واستولت أيضًا على مرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية من الأردن ومدينة القدس بأكلمها.

بالنسبة إلى المستعربين كانت تلك أبناء سيئة فقد تدعمت إسرائيل ولحقت المهانة بالدول العربية وأغلقت سفارات أمريكا فى الأقطار العربية؛ مما أجبر أكثر من مستعرب على تغيير المسار الوظيفي، واحد منهم هو أندرو كيلجور، وصف الحرب بأنها كارثة للسلك الدبلوماسي، لكن انتصار إسرائيل فى معناه الأوسع ظل انتصارًا للغرب على الاتحاد السوفيتى وعلى سلاحه فى مستواه الأدنى؛ وكما يقول المثل: الهزيمة يتيمة وللنصر أكثر من والد؛ فبدلاً من أن يسود مناخ منذر بعواقب ساد شعور فى الإدارة الأمريكية بأن الأمور قد سارت على ما يرام.

من ناحية أخرى؛ أصبح الشرق الأوسط بالنسبة لمن بقوا فى سلك الاستعراب فى مقدمة المسرح منطويًا فى ذلك على تحد جديد وهو: حمل إسرائيل على مبادلة الأراضى مقابل السلام... وأدى هذا إلى تخفيف الاكتئاب الذى شعر به كثير من المستعربين إزاء انتصار إسرائيل.

*   *   *

حرب الأيام الستة من منظور الماضى؛ يمكن اعتبارها وكأنها هى التى مهدت المسرح كى تلعب عليه الشخصيات التى قدر لها السيطرة على مقاليد صنع السياسة بالشرق الأوسط حتى عقد الثمانينيات ، ونتيجة لذلك فقد أفضت إلى تغيير وجه تيار الاستعراب الأمريكي. روى أثرتون مثلاً- الذى تعين عليه إدارة غرفة عمليات الخارجية الأمريكية خلال حرب الأيام الستة بحكم كونه مديرًا لمكتب الشئون العربية- الإسرائيلية فى إدارة الشرق الأدنى بالوزارة- اعتاد النوم على أريكة والتعامل مع تفاصيل شتى من سير الحرب ما بين إجلاء الأمريكيين فى الأقطار المتأثرة إلى كتابة تقارير موقف استنادًا إلى آخر برقيات المخابرات... «هارولد سوندوز» كان أيضًا مشاركًا بعمق فى الأمر بوصفه خبيرًا فى الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومى.. أخيرًا وليس بالتأكيد آخرًا، كان هناك الدكتور «جوزيف سيسكو» مساعد وزير الخارجية للمنظمات الدولية وكان مكتبه يتولى شئون الأمم المتحدة والوفد الأمريكى لديها.. ولما تولد عن حرب الأيام الستة كثير من النقاش والقرارات فى الأمم المتحدة؛ فقد تعين على سيسكو حضور- كثيرًا- من اجتماعات إدارة الأزمات التى شهدها الرئيس جونسون.

ولقد صعد نجم «سيسكو» خلال الأزمة وغيره من عناصر الإدارة الأمريكية، نظرًا لندرة وجود العناصر الخبيرة بالشرق الأدنى؛ بل وكثيرًا ما كان الصوت الوحيد من خبراء الشرق الأدنى فى تلك المناقشات هو مساعد الوزير لشئون الشرق الأدنى « لوشيوس باتل» الذى تقوضت

سلطاته بواسطة وكيل الخارجية أيوجين روستو، والسبب فى هذا الضعف الذى اعترى دائرة الشرق الأدنى وقت أزمة الحرب، على نحو ما يشرح مصدر مطلع، هو ذلك الاعتقاد الذى كان يساور كبار أعضاء حكومة جونسون بأن دائرة الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية كانت موالية للعرب أكثر من اللازم.

إن السفير لوشيوس باتل يرفض هذا التصور.

«لوشيوس باتل» يسمى نفسه أول مسئول من غير فصيلة المستعربين، تولى منصب مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأدنى، وكان قد خلف فى المنصب سلفه رايموند هير قبل أشهر قلائل من اندلاع حرب الأيام الستة. أما جانب التحيز الوحيد الذى يعتز «باتل» بالاعتراف به فهو انتماؤه إلى الحزب الديمقراطى وقد كان صديقًا شخصيًا ومؤيدًا للرئيسين كيندى وجونسون وللسياسى هيوبرت همفري، من هنا فإن تحديد هوية «باتل» أمر لا غنى عنه لفهم الفكرة المنطبعة عن هوية المستعرب كما كانت سائدة فى أروقة الخارجية الأمريكية.. «لوشيوس باتل» يتكلم الفرنسية ولكنه لم يتعلم العربية قط، وقد عينه الرئيس كيندى مساعدًا لوزير الخارجية للشئون التربوية والثقافية، وبعد أن ثارت مشكلة فى كوبا سنة ١٩٦١ وفى أماكن أخرى؛ كان المنصب التالى الذى اختاره باتل قائلاً: لكننى لا أستطيع حتى ملء الخريطة بأسماء أمريكا اللاتينية.. وهنا أجاب الرئيس كيندى بقول: أعرف ذلك.. لكنك الشخص الذى أريد.

فـى تلك الأيام كان التركيز على صنائـع أمريكا وحوارييها جنوب حدودها وليس فى بلاد العرب...

وكان كيندى يريد زرع دائرة الموز - جمهوريات أمريكا اللاتينية الصغيرة - بأفراد ممن ليسوا خبراء فيها، بيد أن القدر تدخل حيث قتل كيندى وجاء عام ١٩٦٤ مباشرة لتسوء العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر.

وهنا أوفد الرئيس جونسون «لوشيوس باتل» إلى مصر سفيرًا لتلطيف جو العلاقات مع جمال عبد الناصر. هنالك استطاع باتل - كما هو ذائع ومشهور - إنشاء علاقة طيبة مع جمال عبد الناصر وهو يدلى بملاحظاته قائلاً: كان عبد الناصر ذكيًا لماحًا بغير ثقافة، كان يفتقر تمامًا إلى فلسفة سياسية - اقتصادية، والاشتراكية العربية عند عبد الناصر كانت عبارة عما يريد فعله فى أى يوم من الأيام.

وعندما أعاد جونسون باتل إلى واشنطن بعد ثلاث سنوات ليصبح مساعدًا للوزير لشئون الشرق الأدنى؛ كان قد تولد عند باتل- فى واقع الأمر- موقف أكثر تعاطفًا إزاء النظام المصرى بأشد ما كان يساور المسئولين الآخرين فى الإدارة الأمريكية، وعلى نحو ما يعبر أحد أصدقائه الأقربين عن أن عواطف باتل ضد إسرائيل معروفة للقاصى والداني. وفى أعقاب حرب ١٩٦٧ ؛ حارب السفير باتل معركة لمنع إعطاء إسرائيل طائرات فانتوم «إف - ٤» قائلاً: إنهم ليسوا بحاجة إلى تلك الطائرات فأوضاعهم بدونها قوية للغاية.

هذا الموضوع ما لبث أن برز على السطح فى الحملة الانتخابية التى تنافس فيها هيوبرت همفرى وريتشارد نيكسون؛ وكانت تلك المرة

الأولى التى تصبح فيها مسألة بيع أسلحة إلى الشرق الأوسط قضية من قضايا الانتخابات.

* * *

ومع حلول عام ١٩٦٨؛ كان السفير باتل يسدى مشورته إلى صديقه المرشح الرئاسى هيوبرت همفري، وكان «باركر هارت» قد أصبح مساعدًا جديدًا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى.. «هارت» هذا كان من المدرسة القديمة.. عطوفًا جم التهذيب ويراعى أدق قواعد آداب السلوك، يحمل الليسانس من دار تماوث والماجستير من هارفارد.. كان سفيرًا فى السعودية فى أوائل الستينيات إلى أن حل محله هيرمان إيلتس، كان يجيد الألمانية والعربية، وكان شأنه شأن غيره فى سلك المستعربين قد تعامل مع اللاجئين اليهود النازحين من أوروبا محاولين الدخول إلى الولايات المتحدة، وعلى الرغم من أن تجربته مع اليهود لم تكن فى ألمانيا بل فى النمسا وكانت قبيل نشوب الحرب العالمية وليس بعد اندلاع الحرب، فإن هارت استطاع أن يعاين النازية فى فجاجتها الأولى فى النمسا ولم يقدر له نسيان هذه التجربة يومًا من الأيام.

وهارت مثل باتل لا يضمر مشاعر مناهضة لليهود، إن ما يشعر به من تعاطف مع العرب لا يعدو كونه أحاسيس ليس إلا، وقصاراهما أن يضمنا أن موقف العرب أمكن - حسب الأصول - تفسيره وفهمه فى أوساط واشنطن؛ بل وإذا أمعنا النظر فى الأمور لوجدنا أن باتل كان يؤيد علانية

فى انتخابات نوفبر ١٩٦٨ المرشح الذى كان يجهر أكثر من منافسه بتأييد إسرائيل؛ وهو هوبرت همفرى الذى كان يبالغ فى مشاعره تجاه أزمة اليهود التاريخية بقدر ما كان يبالغ فى سائر مشاعره على الإطلاق.

كل هذا يؤثر كثيرًا فى سياق الأحداث، وإذا نظرنا إليه فى إطار ما جاء من بعد؛ لرأينا أن كلاً من لوشيوس «لوك» باتل وزميله باركر «بيت» هارت، هما بالضرورة آخر من قام من المدرسة القديمة بترأس إدارة شئون الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية، وكل منهما كان يرى الإدارة المذكورة من نفس منظور سلفيهما لوى هندرسون وحدة محكمة الإغلاق على نخبة من أهل الاختصاص تعمل تمامًا خارج إطار الخطاب السياسى المحلى؛ وتقصر نفسها على إجراء حسابات على البارد للمصالح الأمريكية فى العالم العربي.

وقد وقع عبء هذا التعريف لإدارة الشرق الأدنى على عاتق ريتشارد نيكسون الذى هزم همفرى وانتخب رئيسًا فى عام ١٩٦٨، وعلى كاهل هنرى كيسنجر مستشاره الجديد للأمن القومى الذى استولى أيضًا على موقع قيصر الشئون الخارجية.. أما أدوات هذا التغيير ممن كانوا مرءوسين للسفيرين باتل وهارت؛ فقد كانوا رجال الصف الثانى - سيسكو وأثرتون على وجه الخصوص.

*　*　*

لم يكن ثمة ود مفقود بين ريتشارد نيكسون ووزارة الخارجية الأمريكية. يقول بارى روبين فى كتابه بعنوان «أسرار الدولة: وزارة الخارجية والصراع على السياسة الخارجية»: إن نيكسون أصبح مشهورًا شهرة عدو الشعب «الجار هيس» (الدبلوماسى الأمريكى المتهم بالتجسس لحساب السوفييت عام ١٩٤٨) ؛ بمعنى كونه رمزًا فى أعين الكثرة لعجز الدولة وعدم الولاء لها؛ بل إن نيكسون كان قد أبلغ الرئيس أيزينهاور أنه كان يلتقى مع بعض من ألمع عناصر السلك الدبلوماسى فى البلاد فى أثناء رحلاته - باعتباره نائبًا للرئيس - إلى الخارج؛ فإذا بعدد كبير منهم لا يظهر أى إخلاص يذكر لأمريكا؛ بل ويتبدى منه موقف الغريب عنها، والأدهى من ذلك أن نيكسون كان يرى أن هوى معظم أفراد السلك الدبلوماسى كان يجنح نحو خصومه الديمقراطيين.

ثم إن نيكسون كان من مقاتلى الحرب الباردة، وكان يرى الشرق الأوسط من ثم، لا من حيث كونه الشرق الأوسط بل من خلال الصراع العالمى الأشمل مع السوفييت... وهكذا كان يفعل فى هذه النقطة «لوى هندرسون»؛ بيد أن حرب الأيام الستة التى سبقت ارتقاء نيكسون مقاليد السلطة كانت قد أعطت إسرائيل مزيدًا من الأراضى؛ ومن ثم قيمة استراتيجية أكبر مما كانت عليه يومًا فى مرحلة هندرسون.. فضلاً عن ذلك كان السوفييت قد باتوا إلى غير رجعة فى عناق مع العرب؛ مما جعل إسرائيل رصيدًا ثمينًا فى بورصة الحرب الباردة، وفيما كانت لكل من نيكسون ومن قبله هندرسون علاقة بالغة العناء مع اليهود؛ فإن أسبق ولاءات هندرسون كان لسلك الخدمة الدبلوماسية، وهو مؤسسة كانت

تتعاطف بيروقراطيًا مع العرب بحكم وجود عدد كبير من السفارات فى العالم العربى؛ إلا أنها كانت مؤسسة ينظر إليها ريتشارد نيكسون بقدر كبير من التوجس والارتياب.

* * *

وقع أول اختيار لنيكسون لمنصب وزير الخارجية على «ويليام روجرز» وكان نائبًا عامًا أيام أيزنهاور، وكانت تعوزه الخبرة فى السياسة الخارجية والتمتع بشخصية حازمة وحادة، وكان خيار نيكسون معتمدًا- كما كان عاقدًا العزم على تصريف السياسة الخارجية بنفسه وبمساعدة مجلس الأمن القومى الذى عمد إلى تدعيمه؛ فوضع على رأسه هنرى كيسنجر اللاجئ اليهودى الألمانى الذى كان صنيعة جون ماكلوي، الرجل الذى جعلت منه سخرية القدر مسئولاً عن منع الجيش الأمريكى من قصف الخطوط الحديدية الموصلة إلى معسكر اعتقال النازى فى أوشفيتز والذى كان قد حث الرئيس ترومان على عدم الاعتراف بإسرائيل؛ ذلك أن ماكلوى استخدم كيسنجر فى عام ١٩٥٦، وكان وقتها أستاذًا فى هارفارد لا يكاد يعرفه أحد لإجراء دراسة حول العلاقات الأمريكية- السوفيتية؛ وبعدها حصل كيسنجر على وظيفة لدى المليونير نيلسون روكفلر الذى قدمه فيما بعد إلى رجال ريتشارد نيكسون.

وفيما عمدت الإدارة السابقة فى البيت الأبيض إلى تحاشى نشوب النزاع فى الشرق الأوسط؛ فإن نيكسون وكيسنجر كان من رأيهما أن توصيل الأمور إلى حافة المجابهة إنما ينطوى على سلسلة من الفرص التى

تتيح إعادة ترتيب أجزاء اللغز المسمى بالصراع العربى- الإسرائيلى؛ بما يروق أكثر للولايات المتحدة ويستهويها، وكما يقول أحد محللى الشرق الأوسط: «كيسنجر كان يكره مجرد فكرة مساعدة الأطراف على الخروج من الورطة» (!).

كيسنجر كان يقول أساسًا: «لا تساعدهم فى الخروج، بل اجعلهم يصلون إلى حيث اليأس؛ وبهذا يشعرون بمدى الاحتياج إلينا». مع ذلك فقد جاءت تبعات قتال ١٩٦٧ بحرب باردة من نوع ما بين الدول العربية وإسرائيل ؛ حيث كانت إسرائيل ثملة بغرور فوزها فى حرب الأيام الستة؛ فيما ظلت الدول العربية على رفضها القبول بوجود إسرائيل.

هكذا بدأ الوضع فى المنطقة مجمدًا، وعليه فقد شرع نيكسون وكيسنجر فى معاملة المنطقة بإهمال محسوس. ثم أن يهود أمريكا- وقد انتفضوا فخارًا ونشاطًا نتيجة لفوز إسرائيل- جعلوا نيكسون ينظر إلى مفاوضات الشرق الأوسط بوصفها ورقة خاسرة فى السياسة الداخلية فى أمريكا، وعلى كل فقد تصل المنطقة يومًا إلى حال من الفوران المضطرم؛ ما يعطى للرجلين القدرة على صياغة الواقع المحلى على صعيدها.

* * *

وزير الخارجية «ويليام روجرز» ما كان يكتفى بالانتظار كى يقع الفوران المرتقب. وإذ كان يملك فى يده اثنتين من أوراق اللعب على ساحة الشرق الأوسط؛ فقد عقد عزمه على الدخول فى التجربة، الورقة الأولى

تمثلت فى أن نيسكون وكيسنجر لم يعيرا اهتمامًا كبيرًا إلى منطقة الشرق الأوسط؛ بل وتركاها ساحة تنشط فيها السياسة التقليدية للخارجية الأمريكية. ولم يكن كيسنجر قد أقدم بعد على تطويعها وإلحاقها بمجلس الأمن القومى.

أما الورقة الثانية؛ فكان اسمها «جوزيف سيسكو» الذى كان الوزير روجرز يعرفه أيام كان سيسكو يعمل مساعدًا لوزير الخارجية المكلف بأنشطة الأمم المتحدة، وإذا كان روجرز عضوًا مرتين فى الوفد الأمريكى لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ فقد كان يعول على سيسكو التماسًا لمشورة، ولقد كان «جو سيسكو» هو الذى كتب قرار الأمم المتحدة رقم «٢٤٢» (*) فى أعقاب حرب ١٩٦٧ الذى دعا إلى مبادلة الأرض بالسلام.

هكذا كان سيسكو هو أول تعيين أجراه الوزير روجرز؛ حيث نقله من الخمول النسبى فى شئون المنظمات الدولية ليصبح فى المركز الأكثر تألقًا مساعدًا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى مكان «باركر هارت». وقد تبين أن هذه النقلة كانت ضربة بحق؛ حيث قدر لجوزيف سيسكو أن يكوّن؛ أنشطة العناصر الوظيفية من بين مساعدى وزير الخارجية فى تاريخ الولايات المتحدة، وقد لا يباريه فى ذلك سوى «لوى هندرسون»، ولقد كانت فترة ولاية روجرز بالخارجية تتسم بحسن النية ثم تفتقر إلى

(*) هذه الرواية مخالفة للمتعارف عليه من أن القرار من صياغة الدبلوماسى البريطانى اللورد كارادون. «المترجم».

الفعالية، ولو لم يفعل شيئًا له قيمة لكفاه أنه قام بتعيين «جو سيسكو» مساعدًا للوزير للشرق الأدنى وروى أثرتون نائبًا لمساعد الوزير.

مع ذلك، فلم يكن الذى تدخل فى هذا الأمر هو الوزير روجرز بشخصه بل هو التاريخ أيضًا، يفسر ذلك ويليام كوانت بقوله: لقد اختير سيسكو بحكم الحاجة تحديدًا إلى عنصر ملم ببواطن الأمور يتولى إدارة الشرق الأدنى غداة حرب ١٩٦٧؛ عندما أصبح الشرق الأوسط فجأة قضية عالمية الأبعاد.

أثرتون يقول: «إن التحولات التى طرأت على الإدارة المذكورة حدثت عندما جاء سيسكو إلى هيرمان إيلتس «فيرى» أن سيسكو جاء إلى الشرق الأدنى بقدر كبير من التوازن كانت الحاجة ماسة إليه».

كان سيسكو مصداقًا للقول الشعبى الدارج: «عليك أن تكسر البيضات كى تصنع العجة». كان عنصرًا فعالاً، على الرغم من أنه كان مكروهًا فى بعض الأحيان لأنه حطم مستقبل أفراد.

ومن المثير أن عناصر السلك الأمريكى الدبلوماسى لا تزال تحتفظ بأشرس الانتقادات؛ بما يبلغ كراهية التحريم أو يكاد لرجال من طراز جوزيف سيسكو وهنرى كيسنجر وجيمس بيكر، ولقد كان كيسنجر وبيكر من الطراز الفعال لوزراء الخارجية لكنهما أساءا معاملة هيئة السلك الدبلوماسى، سيسكو بدوره، مثل كيسنجر وبيكر، فهم واستوعب أن بيروقراطية السلك الدبلوماسى مهما كانت موهبة العناصر لا تعدو كونها إدارة تنتظر صاحب اليد الخبيرة الذى يبادر إلى التقاطها ثم يستخدمها لتحقيق غرض بعينه، غرضه هو شخصيًا.

*   *   *

فى مقابلات شخصية مع مؤلف الكتاب توالت شكاوى أعضاء السلك الدبلوماسى بحق سيسكو، يقول «لوشيوس باتل»: «إن لى رأيًا سلبيًّا للغاية حول الطريقة التى كان يعمل بها سيسكو». أما ريتشارد باركر فيقول: «أنا أكره سيسكو شخصيًّا» فيما يقول جيمس إكنز وكان سفيرًا فى السبعينيات لدى السعودية: «سيسكو لم يكن يعرف حرف الألف من كوز الذرة عن الشرق الأوسط، لم يكن يدرى شيئًا عن المنطقة ولا قرأ يومًا كتابًا حولها ولم يخدم فى الخارج قط. لكن كان بالطبع صديقًا شخصيًّا لهنرى كيسنجر» و«نحن المستعربون رأينا فى هذه الرابطة الأساسية ودًا عميقًا تجاه دولة إسرائيل حيث كانا يتطلعان إلى إنجاز ما تريد إسرائيل إنجازه » هكذا يقول أندرو كيلجور وكان سفيرًا فى قطر، وعباراته هذه مقتبسة من مقابلة حول تاريخه الشفوى أجراها تشارلس ستبورات كيندى فى ١٥ يونيو ١٩٨٨ تحت إشراف جمعية الدراسات الدبلوماسية وهو السفير الوحيد الذى تم الاتصال به لكنه رفض مقابلة مؤلف الكتاب.

هناك أيضًا من مستعربى السلك الدبلوماسى الأمريكى من يقول:»إن سيسكو وأثرتون كانا مجرد خادمين وضيعين يركضان فى ركاب كيسنجر أو يقول إن دعيت للعشاء فى بيت سيسكو فأحضر معك من يذوق لك الطعام... فى حين يقول مستعرب ثالث: إن سيسكو لم يكن سوى شخص خسيس، لئيم خبيث وكذوب لكن كان لجوزيف سيسكو معجبوه أيضًا ولو على استحياء.

يقول أحد مؤرخى الشرق الأوسط: صحيح أن سيسكو لم يكن عارفًا بالقضايا على نحو متخصص؛ لكنه كان قادرًا على تصريف الأمور، ويقول

هيوم هورن- وكان سفيرًا فى السودان ثم السعودية فى الثمانينيات: كان مشاكسًا له صوت جهورى، والأهم من ذلك كان قادرًا على أن يتذكر لفوره ما شاء من مستندات وأحداث، أما إيلتس فيتكلم وهو ينفض غليونه رافعًا حاجبيه وكأنما هو بانتظار أن تسعفه العبارة المناسبة ويقول: سيسكو كان بمثابة مدير التشغيل البيروقراطي، كان مدير الإدارة الوحيد بالخارجية الذى استطاع أن يبعد المكتب عن كيسنجر ورجاله فى مجلس الأمن القومي.. ولهذا حاز احترام كيسنجر.

وغنى عن البال؛ أن سيسكو كان بحق مديرًا للتشغيل من الطراز المهم.. بصوته الحافل بالرنين وسلوكه غير الحافل بالآخرين ممن ارتقوا إلى قمة مواقع السلك الدبلوماسى دون أن يخدم هو شخصيًا فى الخارجية مرة واحدة، ربما لم يكن يعرف الكثير عن العرب أو اليهود قدر معرفة زملائه الذين عاشوا بالشرق الأوسط وتكلموا لغاته؛ لكن هذا لم يحل بين سيسكو وبين أن يكون فى جعبته كل الإجابات عن الأسئلة أو أن يتظاهر بذلك، كان أستاذًا فى فن العضة السليمة حتى قبل أن يخترعوا هذا التعبير، بمعنى أنه كان داهية سياسة يجيد فن الصفقات السياسية أكثر من كونه من شاكلة الدبلوماسيين، بل وكان يستعد لخوض انتخابات للفوز بمنصب مقاطعة مونتجمرى من أعمال واشنطن حين اختاره روجرز مساعدًا لوزير الخارجية، لم يكن ينهج أنصاف الحلول بل كانت آراؤه وأفكاره جد واضحة لا لبس فيها... وما كان يفتقر إليه من حيث الفكر عمد إلى تعويضه من خلال النشاط الوافر، يتذكر أثرتون قائلاً: كان بوسع «جو» أن ينجز ورقة سياسات ويضعها بيد الوزير قبل أن يفرغ الآخرون بالمكتب من

مجرد تدارس المسألة كان من الطراز المكتبى الحاد والفعال والمسئول، وكان نيكسون ومستشاروه يعرفون ذلك ولهذا السبب اختاروه؛ إذ كانوا يريدون شخصًا يحدث هزة فى قوائم إدارة الشرق الأدنى.. نيكسون كان يُكِنُّ احترامًا هائلاً لسيسكو وكثيرًا ما كان يقوله له على الهاتف: إن هنرى كيسنجر أوغل فى التصرفات حتى انخلع أنفه ولقد عرض نيكسون مرتين على سيسكو منصب السفير لدى الاتحاد السوفيتي ورفض يصاحبنا العرض؛ فلم يكن يريد أن ينغرس فى موسكو. « بينما تعكف أنت (نيكسون) وهنرى على عقد الصفقات السياسية من خلف ظهري».

ولد جوزيف سيسكو عام ١٩١٩ فى شيكاغو وهو الجيل الأول للمهاجرين من إيطاليا إلى أمريكا فى فترة الكساد الاقتصادى الكبير لعائلة قوامها خمسة أبناء، كان أبوهم يتقاضى سبعة دولارات أسبوعيًا فى متجر للملابس، وفى الحرب العالمية الثانية عمل ملازمًا للمدفعية فى غينيا الجديدة؛ حيث أصيب بحالة من مرض الملاريا كانت قاسية الوطأة بل كانت تعاوده طيلة العمر، وأدى ذلك إلى أن ظل يعانى من إعاقة جزئية سنوات قليلة، ويقول: أنا رجل لم أحصل على أول عمل لى إلا بعد أن بلغت الثلاثين، ولم أكن من الميسورين ذوى السراويل الأمريكية المخططة مثل المستعربين؛ بل ذهبت إلى المدارس الغلط وجئت من الجانب الغلط فى طريق الحياة، مع ذلك فلم أبال وانغمست فى شغل من نار وهذا كل ما فى الأمر.

* * *

تخرج سيسكو فى كلية نوكس فى ولاية إلينوى، وحصل على الماجستير والدكتوراه فى العلاقات السوفييتية من جامعة شيكاغو ثم التحق بالسلك الخارجى فى الخمسينيات وأعجب به رؤساؤه لدرجة أنه كلما أوشك على الابتعاث إلى الخارج- إلى بلجراد- فى أواخر الخمسينيات ثم - فيتنام - فى أوائل الستينيات كان الانتداب يلغى للإبقاء عليه عنصرًا يحفز البيروقراطية على الحركة والنشاط خاصة فى الأمم المتحدة، ولم يمض عليه بعد دخول الخدمة الخارجية عشر سنوات إلا وقام وزير الخارجية «دين راسك» بترفيعه إلى رتبة وزير مفوض.

لكن كان هناك ما يتجاوز ذلك- يقول هيوم هوران: «مع وجود سيسكو انصهرت السياسة الخارجية مع السياسات الخارجية فى الشرق الأوسط»، ويضيف أثرتون على ذلك قوله: كان يتمتع بحنكة على المسرح السياسى الداخلى بأمريكا بشكل لا يبارى فى تاريخ وزارة الخارجية، ولقد تعلمت من «جو» أنه ليس بوسعك أن تضع السياسة بالنسبة للشرق الأوسط فى معزل بالتعقيم عن السياسات والحقائق الداخلية.

معنى هذا دون لف أو دوران - أن العلاقة بين الرئيس الأمريكى والجالية اليهودية الأمريكية باتت - مع سيسكو - أوسع وأعمق بأكثر مما عليه العلاقة بين المستعربين والصلات التى أنشئوها من منطقة المشرق العربى.

فى ٧ نوفمبر ١٩٧١؛ كتب جوزيف كرافت مقالاً فى مجلة نيويورك تايمز الأسبوعية عن المستعربين قال فيه: ما أن تولى جوزيف سيسكو مقاليد وظيفته حتى انطلق فى تحطيم تركز المستعربين فى إدارة الشرق

الأدنى – المعنية بالشئون العربية أساسًا – خذ روجر ديفيز مثلاً وكان كما يصفه زميل له حكيم المستعربين فى ذلك الوقت.

لقد تلقى روجر ديفيز ركلة من سيسكو؛ حيث خلع عليه رتبة فخيمة دون مسئوليات؛ اللهم إلا عن اليونان وتركيا وقبرص، وفى مكان ديفيز– يضيف الصحفى كرافت – أتى سيسكو بالفريد أثرتون نائبًا لمساعد الوزير، ذلك لأن أثرتون مع إلمامه الواسع بشئون المنطقة؛ فإنه لا يعرف اللغة العربية.

على أن السفير«لوشيوس باتل» ينعى على سيسكو ما فعله مع روجر ديفيز، ويصفه بأنه كان أمرًا سيئًا ؛ وذلك « لأن ديفيز كان يعرف عن أمور الشرق الأوسط بما يفوق معرفة سيسكو ومعرفتى أنا مجتمعين»، حتى أثرتون نفسه– وقد حل محل ديفيز؛ يتذكر أن ديفيز كان من أصفى وألمع العقليات التى عرفتها وكان كبير نواب السفير باركر هارت، وعندما تقرر إحلال سيسكو محل باركر عمد ديفيز إلى التماس النقل بغير ضجة؛ موعزًا إلى موظفيه أن يظلوا على ولاء لجوزيف سيسكو، مع ذلك فما أن وصل سيسكو إلى إدارة الشرق الأدنى حتى قلب ظهر المجنَ للسفير ديفيز وكان دافعه الذى ساقه لهذا التصرف ما قاله من أنه كان بحاجة إلى من يكتب بسرعة المذكرات السياسية فى غضون ساعات لا تزيد.. ولم يكن ذلك باستطاعة ديفيز لكنه كان باستطاعة روى أثرتون.

* * *

أدى قيام جوزيف سيسكو بنقل ديفيز إلى الشئون اليونانية- التركية إلى ترشيح ديفيز سفيرًا لدى قبرص؛ حيث اغتيل فى صيف ١٩٧٤م خلال أحداث العنف التى صاحبت الإطاحة بحكومة الأسقف مكاريوس وما تلا ذلك من قيام تركيا بغزو الجزيرة..ولقد كان روجر ديفيز موضع محبة زملائه المستعربين؛ وكان جديرًا بأن يظل حيًا يرزق حتى الآن ، ولو لم يعمد سيسكو إلى إزاحته من الشئون العربية وربما تفسر هذه الحقيقة جانبًا من العداوة التى يضمرها المستعربون تجاه جوزيف سيسكو.

على أن ديفيز لم يكن المستعرب الوحيد الذى أزاحه سيسكو لقد كتب كرافت فى مقال التايمز سابقة الذكر يقول: إن أشد المستعربين انحيازًا للعرب وهو السفير «ريتشارد باركر» نقلوه من مكتب الشئون المصرية إلى مكتب المغرب، والمستعرب الأمريكى الذى اشتهر بأنه الأشد عداوة لإسرائيل وهو السفير «روبرت مون» نقلوه من مكتب إسرائيل إلى مكتب تركيا، أما مناصب السفارة التى أصبحت مفتوحة فى ليبيا والكويت وفى لبنان والأردن فقد عهدوا بها إلى عناصر من غير المستعربين.

لكن الأمر لم يكن تمامًا بهذه البساطة، وهذا يفسر السبب فى أن بعض المستعربين لا يزالون- بعد عشرين سنة من تلك الوقائع- يتميزون غيظًا عندما يرد ذكر مقل كرافت: السفير ريتشارد ديك باركر مثلاً كان قد خاض معركة الرجل الوحيد فى واشنطن لحمل أولى الأمر هناك على أن يعاملوا مصر بصورة جادة على الرغم من هزيمتها فى حرب ١٩٦٧، وأدى هذا إلى أن باركر قد وضع أصابعه العشرة فى الشق حين جاء سيسكو إلى إدارة الشرق العربى- الأدنى فى عام ١٩٦٩.

ولم تكن المياه جارية بين سيسكو وباركر؛ حيث يدعى الأخير أن ثمة كراهية بين الطرفين لا تتصل بالاختلافات السياسية، ولا أدى النقل إلى مكتب شئون المغرب إلى الإضرار بالتدرج الوظيفى لباركر الذى رشح فى سنوات قلائل سفيرًا بالجزائر وسفيرًا فى لبنان؛ وهو بلد له أهميته فى إطار المشكلة العربية - الإسرائيلية، ثم سفيرًا لدى المغرب... مع ذلك فلا ريب أن وصول سيسكو جاء علامة على تغيير الحرس العامل، داخل إدارة الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية... ويعترف السفير باتل فى هذا السياق قائلاً: بالقطع حصل تنزيل درامى فى رتبة دبلوماسيين وخبراء، وهذا التنزيل ساعد فى تحويل جيل مستعربى ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى ما أصبح يوصف بأنه خبراء المنطقة المهيضة، رجال أضيروا باستمرار بسبب ولائهم للعلاقات العربية - الأمريكية وذلك من أجل تلبية احتياجات تولدت جزئيًا عن مقتضيات السياسة الداخلية الأمريكية بكفالة الأمان والضمان لإسرائيل.

* * *

ومن المؤكد أنه لم يكن ثمة مستعرب غص بالمرارة من التغييرات الوظيفية التى أجراها جوزيف سيسكو بأكثر من الدبلوماسى «أندرو كيلجور»... ولد آندى كيلجور فى عام ١٩١٩ السنة نفسها التى ولد فيها سيسكو.. طويل القامة لطيف المعشر من أهالى جنوب الولايات المتحدة، وكان مولده فى بلدة صغيرة فى غرب ولاية آلاباما حيث شب عن الطوق فى مزرعة، يصغى إلى حكايات الرجال المسنين عن «شيلوه» و«شيكا موجا»

وسائر معارك الحرب الأهلية الأمريكية التي سبق أن خاضوها. جاء كيلجور، كما جاء سيسكو، من أصول متواضعة وقد أشاروا إلى أصوله في مقابلة ضمن برنامج التاريخ الدبلوماسي الشفوى، بأنه من أرياف البروتستانت. ذهب للتحصيل في دار صغيرة للمعلمين لا في واحدة من كليات القمة، وحارب معارك الباسفيكي في الحرب الثانية. ومثل سائر المستعربين بدأ كيلجور أولى درجات السلم الدبلوماسي بالعمل مع اللاجئين في ألمانيا بعد الحرب وتحت إدارة جون ماكلوى المفوض الأمريكي السامي في ذلك الوقت، ومثل ماكلوى وسيسكو كان لدى كيلجور إحساس حاد بأنه إنما جاء من الجانب الغلط من الطريق، وفي هذا السياق يلاحظ كيلجور أن الذين يأتون للسلك الدبلوماسي من الخارج، بمعنى خارج عائلات مؤسسة الحكم والنفوذ، ينعقد طموحهم في أن يلتحقوا بصفوف تلك المؤسسة.

*   *   *

ومثل سيسكو أيضًا؛ جاء دخول كيلجور السلك الدبلوماسي في عقد الخمسينيات ضمن برنامج مبكر للإصلاح- سعى إلى أن يأتي بعناصر خلفيات اجتماعية متباينة إلى صفوف السلك الدبلوماسي، وفي عام ١٩٥٥م تطوع كيلجور ليتعلم اللغة العربية وظل طيلة ربع القرن الذى تلا ذلك وحتى اعتزاله الخدمة؛ يخدم في أقطار عربية وفي مواقع الشئون العربية داخل الخارجية الأمريكية يقول: «كان معظمنا - معشر المستعربين - يشعر بأننا من فصيلة شديدة الخصوصية، كنا في الغالب الأعم من قدامى محاربي الحرب الثانية، وكان في هذا إحساس بيننا برفقة السلاح، أما

تعلم العربية فأمره صعب وعليك أن تعمل ليلاً ونهارًا لإتقانها، وكذا نجمع بين المتعة وبين إحساس يكاد يكون مقلقًا إزاء مصطلح مستعرب الذى يستخدمه الصهاينة - فى واقع الأمر- كناية عن قولهم: «احذر.. هذا الرجل»؛ ثم إن السفير كيلجور يرى أن من الإهانة بمكان أن تصف موظفًا لامعًا فى السلك الدبلوماسى يتصف بجوانب متعددة ومتشابكة ربما من طرازه هو بأنه مع هذا البلد الأجنبى أو ضد ذاك البلد الأجنبى.

* * *

مع أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات؛ كان كيلجور قد سافر إلى كل درب من دورب الضفة الغربية وكانت وقتها فى يد الأردن «ولا تكاد توجد قرية إلا وزرتها، حيث وجدت الفلسطينيين قومًا فى غاية الجاذبية وهم أقرب نوعًا ما إلى أهل الجنوب فى أمريكا بمعنى التصاقهم الشديد بالعائلة، مجبولون على الكرم، فيهم كل ما تعلمته صبيًا بالمزرعة فى آلاباما فشدونى إليهم إلى حد بعيد... ثم ما هذا الاهتمام الهائل بالمأكل والطعام... يا الله! أتظن أننا نأكل حقًا فى بلدنا؟ إذًا فاذهب إلى هناك».

فى عام ١٩٦١ ، وبعد سنوات أربع بالأردن نقل كليجور إلى مكتب شئون العراق بالخارجية؛ ثم أوفد فى عام ١٩٦٥ إلى سفارة أمريكا فى بغداد.. إلا أن فوز إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ جاء كارثة عليه شخصيًا ؛ فقد أغلقت سفارات أمريكية كثيرة فى العالم العربي، ومن ثم نقلوا كيلجور إلى دكا عاصمة بنجلاديش النائية؛ حيث أمضى ثلاث سنوات قبل عودته إلى

الوزارة ليعمل تحت رئاسة تالكوت سيل فى شعبة شمال الجزيرة العربية بإدارة الشرق الأدنى، إن السفير «كيلجور» لا يزال يوجه اللوم حتى يومنا هنا إلى وزير الخارجية الأمريكية دين راسك وإلى اللوبى الإسرائيلى؛ على إعداد العدة لشن حرب ١٩٦٧ فى مرحلة مبكرة ترجع إلى عام ١٩٦٣ - ١٩٦٤.

وبعد أن جاء سيسكو إلى إدارة الشرق الأدنى؛ أرسلوا كيلجور فى عام ١٩٧٢ مستشارًا سياسيًا فى إيران... وفى عام ١٩٧٤ تصور كيلجور أنه سوف يرشح سفيرًا لدى البحرين عندما وجد نفسه بغتة وقد نقل نائبًا للسفير فى نيوزيلندا، «وكان ذلك هو المنفى بكل المعانى ، وتصورت أنه ما دام بقى سيسكو هناك فلن أحصل يومًا على منصب مرموق- فى العالم العربي- إذ كان يتربص بى الصهاينة فى ذلك الحين».

إن السفير كيلجور يعتبر جوزيف سيسكو متعاطفًا مع الصهاينة؛ ويوجه اتهامه بأن سيسكو كان مندمجًا فى اللعب مع السفارة الإسرائيلية.. سيسكو من جانبه حيرته هذه التهم ويقول: ماذا فى جعبته ضدى؟ لم أكد أتعاطى مع أى من شئون «آندى» كيلجور، بل إن تلك القرارات كانت تتخذها لجان شئون الموظفين.

عن كيسنجر يقول كيلجور: هنرى بالطبع لم يكن سوى طابور خامس فيما يتعلق بي. كان يعمل من أجل الإسرائيليين... كان الهدف الحقيقى الذى يقصده هنرى هو أن يبعد من الشرق الأوسط عناصر المستعربين الذين ليسوا على هوى الإسرائيليين؟ ولم يكن هنرى ممعنًا فى التستر بالسرية بل كان صهيونيًا بغير مداراة.

ولم يكن سيسكو هو الوحيد الذى كانت تراوده شكوك فى مدى وجاهة ترقية كيلجور، يقول مساعد آخر للوزير لشئون الشرق الأدنى: «إن آندى- كيلجور يصل إلى حد الخلط بين مواقفه المعادية لإسرائيل ومعاداة السامية»... ويقول مساعد ثالث للوزير:« وصل كيلجور إلى حد أن أصبحت لديه نقاط معتمة فى الرؤية تجاه إسرائيل».

واستدعوا كيلجور فى عام ١٩٧٧ من نيوزيلندا ليرشحوه سفيرًا لدى قطر ويقول هيرمان إيلتس وهو يهز رأسه: « قطر كانت الموقع المثالى له؛ فلم يكن مطلوبًا كتابة تقارير ذات أهمية محورية ولا كان كيلجور من أصحاب الفكر أو التنظير».

بعد أسابيع من اعتزاله الخدمة الدبلوماسية فى عام ١٩٨٠؛ أصبح السفير كيلجور من عناصر اللوبى المؤيد للعرب متحدثًا باسم القضايا العربية، وقد شهد اجتماعًا فى عام ١٩٨٢ فى واشنطن عقدته لجنة الأرض المقدسة؛ وهى جماعة متحالفة مع لوبى ليبرتى المتطرف ، وقد نذرت نفسها لقضية تحرير الولايات المتحدة من سيطرة الصهيونية، ويومها قال كيلجور: ثمة شئ واحد أمارسه شخصيًا وهو ألا أدع بياناً صهيونيًا يصدر بغير دحض أو تفنيد، ثم فى اجتماع عقدته الجماعة نفسها بعد عام كامل ذكر هذا السفير الأمريكى السابق أن «مركزى كمسيحى وأمريكى مهدد بفعل التصرفات الإسرائيلية».

وللسفير كيلجور تعليقات أخرى منقولة عن تقرير واشنطن عن شئون الشرق الأوسط يوليو ١٩٨٧ وفبراير ١٩٨٧ ومنها ما يلى :

من الخطأ والانحراف أن تعمد عناصر متعصبة ضمن ٢,٥٪ من سكاننا ممن هم يهود، إلى ارتهان الكونجرس لمصالحهم. إن على أمريكا أن تنظر إلى انتقال إسرائيل من مرحلة التسلل إلى مرحلة توجيه السياسة الخارجية الأمريكية بوصفه عملاً اقترفته عقلية إجرامية كبرى.

على أن أفضل ما يعرف به كيلجور فى الثمانينيات والتسعينيات فى واشنطن أنه رئيس تحرير«تقرير واشنطن عن شئون الشرق الأوسط»، وهى مجلة شهرية تنشر مادة هى بكل مقياس من أشدها تأييدًا للعرب ومناهضة لإسرائيل، وفى عدد أبريل - مايو ١٩٩٢ أشارت مطبوعة كيلجور إلى أن الموساد - المخابرات الإسرائيلية - ربما تكون هى التى أطلقت النار على الرئيس جون كيندي:

«من اللافت للنظر أن نرى كيف يسارع الأمريكيون إلى اتهام المخابرات المركزية سي. آى. إيه؛ لكنهم قلما يشيرون إلى إمكانية تورط الموساد... لكن النتيجة تمثلت فى وفاة رئيس كانت الحكومة الإسرائيلية تشعر نحوه بقلق عميق؛ ومن ثم حل محله أشد الرؤساء تأييدًا لإسرائيل على مر التاريخ».

فى العدد نفسه يكتب كيلجور: إنه لو لم ينزح اليهود إلى فلسطين لما تعين على هتلر أن يقتلهم، فبغير وعد بلفور عام ١٩١٧ هل كانت ألمانيا المهزومة سوف تتحول كى تنتقم من يهود أوروبا عام ١٩٣٣؟ إن مؤسسى إسرائيل استغلوا أسطورة نفوذ اليهود أو قوتهم؛ لكى يستولدوا وعد

بلفور وها هى إسرائيل الآن بعد خمسة وسبعين عامًا من ذلك التاريخ تعيش على ميراث تلك الأسطورة بدعوى محرقة الاضطهاد فى أوروبا.

لم يكن كل المستعربين - فى الخارجية الأمريكية - ساخطين على النظام الجديد الذى استحدثه جوزيف سيسكو على نحو ما كان السفير كيلجور ساخطًا، على الرغم من كل شيء فقد أضفى سيسكو قسمات جديدة على إدارة شئون الشرق الأدنى فأصبحت بفضله تتمتع بالأهمية والبروز الإعلامى على نحو لم يسبق لها أن نعمت به من قبل.

التقى سيسكو مع الرئيس نيكسون على فترات بأكثر مما كان متاحًا فى السابق لسلفه فى الإدارة لوشيوس باتل أو باركر هارت بالنسبة إلى الرئيس الأسبق جونسون.

وفى مؤلفه «عقد من القرارات السياسية الأمريكية تجاه النزاع العربي- الإسرائيلى ١٩٦٧ - ١٩٧٦»، يقول ويليا كوانت: «إن سيسكو كان داهية فى أمور السياسة البيروقراطية يعرف دخائل الأمور ودقائقها فى وزارة الخارجية، كان رجلاً شديد الحمية متحدثًا لبقًا وأستاذًا بارعًا فى فن التكتيك ؛ فى حين كان ألفريد أثرتون، وقد عمل معه باعتباره مديرًا لمكتب شئون إسرائيل والدول العربية، ثم نائبًا لمساعد الوزير، كان يكفل بوجوده الاستمرارية والخبرة والدراية المهينة، أثرتون كان يواريه سخونة سيسكو وقد شكل الرجلان ثنائيًا شديد التكامل فى دوائر صنع السياسة للشرق الأوسط».

عمد سيسكو وأثرتون إلى تقسيم الاختصاصيين بالشئون العربية إلى مجموعتين: من يمكن استغلال مهاراتهم فى إطار النظام الجديد

بالوزارة ومن يمكن أن يثيروا المتاعب أو لا يستحقون عناء الإبقاء عليهم في الأساس، ولقد كانت مكانة روجر ديفيز العالية بين زملائه المستعربين تشكل تهديدًا بما قد يجعله خصمًا صعب المراس في أمور السياسات ولذلك كان يتعين التخلص منه، ثم هناك رجال من طراز تالكوت سيل وبيل ستولفوز ومايكل ستيرنر وجيمس إكنز وديك باركر - كانوا في عداد الكفاءات الواجب الإبقاء عليها ؛ في حين أن آندى كيلجور لم يكن كذلك. سيل مثلاً كان في أيام سيسكو الأولى مديرًا لمكتب شئون الأردن ولبنان وسوريا والعراق ، وهو موقع لا يستهان به بحال من الأحوال.

وفي عام ١٩٧٢؛ رقى إلى رتبة سفير وأوفد إلى تونس أربع مرات؛ وبعد إتمامه مأموريته هذه رشح سفيرًا في سوريا التي يقال إنها البلد العربي المحوري في سياسات الشرق الأوسط. ويجدر القول بأن «سيل» لا يزال يحتفظ بذكريات طيبة من أيام العمل مع سيسكو ومن بعده كيسنجر بعد أن أصبح الأخير وزيرًا للخارجية في عام ١٩٧٣.

مع هذا كله - وكما يعترف روى أثرتون - أنه فيما أصبح جميع هؤلاء الرجال سفراء؛ فلم يرتق منهم أحد ليصبح لا مساعدًا للوزير لشئون الشرق الأدنى - ولا حتى نائبًا لمساعد الوزير؛ بل ولم يتح لأي منهم أي اطلاع حقيقي على الشئون العربية - الإسرائيلية. يقول نيكولاس فيلوتس المساعد السابق لوزير الخارجية للشرق الأدنى، وكان سفيرًا لدى كل من الأردن ومصر: عمد سيسكو وأثرتون إلى إبقاء هؤلاء الرجال بعيدًا عن السلطة والنفوذ طيلة وجوديهما في الإدارة ولمدة عشر سنوات أخرى؛ وإلا فمن الذي يشك مثلاً في كفاءة رجل من طراز تالكوت سيل الذي أنجز

عملية كبرى تمثلت فى إجلاء الرعايا الأمريكيين من لبنان عام ١٩٧٦ ولا فى إحاطته بتخصصه المهنى خارج الحدود؟

لكن من يتصور أيضًا أن مثل هذه النوعية من الرجال «سيل» سيكون مساعدًا للوزير ومترددًا على مقر الحكم فى «كابيتول هول»؛ حيث يتعامل مع النواب وممثلى هذا اللوبى أو ذاك. ألم يكن معنى هذا استخدامًا مؤسفًا لقدراته الواسعة؟ ولقد كان سيسكو يعرف ذلك ولم يكن كيسنجر من ناحيته ليشك فى كفاءة سيل الميدانية وهو الذى انتقاه للمهمة الحساسة التى تعاون فيها سيل مع منظمة التحرير الفلسطينية، وأمكنه إتمام الإجلاء الحثيث بغير ضجة للدبلوماسيين الأمريكيين وعائلاتهم من بيروت على مرحلتين بالبحر فى يونيو ويوليو من عام ١٩٧٦.

* * *

يواصل السفير فلييوتس مداخلته فيقول : أنت فى الخارج تتعامل مع أجانب، ومنهم العرب لكنك. فى واشنطن عليك أن تتعامل من موقع مساعد وزير الخارجية مع أمريكيين آخرين. كذلك فالخارجية الأمريكية ليست بالخارجية البريطانية؛ فهى تؤدى عملها فى إطار حقائق الديمقراطية الأمريكية؛ حيث تجمعات اللوبى لا تشكل طفيليات على هامش السياسة بل هى من الأطراف المشروعة اللاعبة على مسرحها، ومع الانفتاح الذى اتسم به مجتمعنا - الأمريكى - فى السبعينيات؛ زاد عدد هؤلاء اللاعبين على الساحة، وسط هذا المناخ يمكن أن تلقى على طاولة اللعب سنوات خدمتك

الاثنتى عشرة مثلاً التى أمضيتها فى موريتانيا أو فى الكويت أو سوريا؛ مع ذلك فقد لا تفوز بشيء ذى بال؛ فأنت هنا فى واشنطن بإزاء قواعد جديدة تتطلب مهارات جديدة.

جوزيف سيسكو يعبر عن ذلك على نحو أكثر صراحة يقول: لم يكن لا باركر ولا سيل ولا ديفيز- ناهيك بالتأكيد عن كيلجور- يتمتع بقدرات الصياغة والتحرير ولا بحس تحليل مرهف ولا إحاطة بالأمور، بما يؤهله للتواصل مع الكونجرس، إنهم أفضل إذ يكونون سفراء خارج الحدود.

ليس معنى هذا أن سيسكو لم يكن ليحترم القنوات الدبلوماسية التى ورثها: «لقد أمضيت خمس سنوات فى موقعى تلقيت فيها من المستعربين مشورات صريحة وبناءة ولم يعملوا يومًا على أن يجعلونى أسيرًا لآرائهم بل كانوا يطرحون الأمور بموضوعية، ولست أتذكر حالة تعيين واحدة فى إدارة الشرق الأوسط الأدنى تمت على أساس سياسى غير مهنى ؛ بل اقتصر الأمر على الموظفين المحترفين، ولكن لأن الإدارة كانت تستلم دومًا زمام المبادرات فلم يكن من محيص أن تصبح عرضة لسهام النقد المرير، ولأن الجماعات الموالية لإسرائيل لا يمكنهم «شخصنة» خلافاتهم لا مع الرئيس ولا مع وزير الخارجية؛ فكثيرًا ما كانوا يجدون أن الأجدى لهم مهاجمة الدبلوماسيين المستعربين.

على أن سيسكو لا يلبث أن يقول: إن صفوف المستعربين كانت تسودها ولاءات مشدودة إلى إبعاد الواقع المحلى فى العالم العربى بأكثر مما كان سائدًا بين ظهرانى غيرهم من الاختصاصيين. كانوا عازفين عن

اتباع الأسلوب المباشر مع العرب يواجهونهم بحقائق الأمور، بل كانوا يشعرون بأن العنصر الثقافى- السياسى- الاقتصادى العربى لا ينال ما يستحقه من اهتمام ومكانة فى سياسة أمريكا.... ثم كان هناك على الخصوص مجموعة الخمسينيات من الرجال الذين كانوا يتناوبون على المناصب الدبلوماسية فى كل قطر عربى دون أن يخدموا قط فى إسرائيل؛ لكن لم أكن أطلب منهم تفكيرًا استراتيجيًا فلم يكن ذلك عملهم فى أى حال.

وكان سيسكو يعنى بذلك أن مجرد معرفتهم بالعالم العربى بحكم اتساعها وعمقها ولحمتها وسداها؛ فعلت فعلها فى تجميد قدرتهم على الفكر التحليلى بالنسبة إليها.

* * *

بيد أن سيسكو نفسه كان يفتقر إلى تلك المعرفة العميقة.. وهكذا كان أثرتون ولو بدرجة أقل، ويقول سيسكو إنهما بدلاً من الالتصاق بالمنطقة بأى معنى حضارى أو حتى سياسى عام؛ فقد انصب التصاقيهما نحو تركيزيهما على المشكلة: «عندما كُلفت بالتعامل مع منطقة الشرق الأدنى أصبت بهذا المرض الذى لا شفاء منه: إن هذا الأمر لابد من إيجاد حل له. هكذا أصبح النزاع العربى- الإسرائيلى بالنسبة إليهما بمثابة لعبة الشطرنج، أو رقعة من الكلمات المقاطعة أو حتى مسألة فى الفيزياء لا يستطيعان الفكاك منها إلا بعد أن يتوصلا إلى تصور المعادلة المكتملة التى تفضى إلى ترتيب أجزاء اللغز فى وضعها السليم، وفيما كان

زملاؤهـا المستعربون ينعمون بالسجاجيد الشرقية ويقتنون كتب الرحالة البريطانيين القدامى، وقع سيسكو وأثرتون فى غرام الوثائق والمذكرات؛ بل إنهما ومعهما هارولـد سوندر- عضو مجلس الأمن القومى الأمريكى- اصطنعوا تصنيفًا جديدًا لمعنى المستعرب: وهـو ألا يكونوا مغرقين فى الأمـر بوصفهـم مستعربين قـدر إغراقهم فـى كونهم قائميـن على تجهيز عمليـة السـلام. وكانـوا بذلـك إرهاصًـا للمنعطفات الحـادة التـى سلكتها سياسـة واشنطن فى الثمانينيات والتسعينيـات، وكان هارولد سوندر أول مـن استخدم مصطلح «عملية السلام» ؛ فيما كان جوزيف سيسكو هو أول من استخدم تعبير «دبلوماسية المكوك».

*   *   *

يقول كوانت فى كتابه «عقد من القرارات»: إن أثرتون كان النظير المثالى لجوزيف سيسكو شديد التقلب. وكما يتذكر زميل لهما : كان روى لطيف المعشر لين الجانب لا يتسم بعقلية استراتيجية وإن كان يتمتع بقدر كبير من حسن التقدير الكامن وراء دماثته. على أن روى كان- على نحو ما- موظفًا بيروقراطيًا بغير ملامح دقيقًا وهيابًا فى بعض الأحيان، ومن العجيب أنه شارك بعمق فى جميع المفاوضات المشهورة فى السبعينيات دون أن يترك أى بصمة خاصة على مجريات السياسة.. إن روى أثرتون لم يكن رجل فكر وإنما كانت مقدرته تكمن فى توخى الحذر فى إسداء المشورة، وقد أسهم فى العملية من خلال دأبه على أن يحول دون أن يشوبها ما يعكر الصفو من توافه الأمور.

إلى جانب الثنائي، سيسكو - أثرتون، نجمت علاقة محورية أخرى في تلك الفترة التي أنشأت أواصراها بين أثرتون وهارولد - هال - سوندرز الذي ما فتئ يرتفع صوته بين حين وحين في السنوات الأخيرة مساندًا الفلسطينيين في معاناتهم ؛ إلا أنه كان في تلك الفترة أقرب ما يكون إلى أثرتون؛ حيث إنه يلتزم كثيرًا البعد عن الضوء ويسهل على كل من يعرفه التعامل معه، ويقول أحد المصادر: إن السبب الرئيسي في قلة الاحتكاك وقتها بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية فيما يتصل بالشرق الأوسط؛ إنما يرجع الفضل فيه إلى كل من أثرتون في الخارجية وسوندرز في مجلس الأمن القومي بالبيت الأبيض: لقد حرصنا على تبادل الاطلاع على مجريات الأمور، ومن ثم أدى إلى توطيد العلاقة بين فرعي الحكم هنا وهناك.

* * *

في ١٩٦٦ وبدعم من وزير الخارجية ويليام روجرز؛ بذل جوزيف سيسكو جهودًا جبارة لبدء محادثات سلام بين مصر وإسرائيل.. وبينما لم يعد سيسكو ينظر كيلجور وأمثاله من المستعربين مؤيدًا لإسرائيل فحقيقة الأمر أن سيسكو في معظم سنوات ولايته في إدارة الشرق الأدنى ظل يضغط لاتباع استراتيجيات للسلم كانت موضع خشية عميقة من جانب الإسرائيليين. يقول سيسكو: مع ذلك فقد أحبني الإسرائيليون من البداية حتى وأنا أحثهم على إعادة الأراضي. أتدري لماذا؟ لأنهم كانوا يعرفون أنني لست من المستعربين؛ بل كنت مثلهم سواء بسواء؛ بمعنى فرد ينتمي إلى عنصر ما جاء من المنعطف الغلط من الطريق.

أولى محاولات سيسكو سعيًا نحو إقرار السلام؛ توجت بمبادرة روجرز(*) التى لم تستجب لها مصر والتى رفضتها جولدا مائير شكلاً وموضوعًا، وكان مشروع روجرز يطلب من إسرائيل الانسحاب من جميع الأراضى التى كانت قد استولت عليها منذ سنتين مقابل اعتراف غامض بسيادتها من جانب كل من مصر والأردن. على أن العيب القاتل فى ذلك المشروع أن الإسرائيليين نظروا إليه بوصفه أحد مشاريع وزارة الخارجية، وأنه لا الرئيس نيكسون ولا مستشاره كيسنجر استثمرا فيهما ثقليهما ومكانتيهما، وجاء عام ١٩٧٠ ليشهد نقطة تحول فى الشرق الأوسط وليكون عامًا وقعت فيه أحداث أشعلت غضب المستعربين تجاه جوزيف سيسكو.

فعلى الرغم من فشل مشروع روجرز، جهد سيسكو فى اصطناع وقف لإطلاق النار بين مصر وإسرائيل بعد جولة قتال متقطع بين الطرفين فيما عرف بحرب الاستنزاف التى دامت عامين بعد ١٩٦٧؛ لكن بعد أن أكدت المخابرات الأمريكية أن مصر خرقت وقف إطلاق النار قرر نيكسون بعد اجتماعه مع روجرز وكيسنجر وسيسكو فى أول سبتمبر ١٩٧٠ بيع إسرائيل ١٨ من نفاثات الفانتوم ف- ٤.

من جهتها كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تخشى احتمال سلام منفصل بين مصر - عبد الناصر- وإسرائيل مع استمرار تزويد إسرائيل

(*) بعد استعادة مصر لإمكانات الدفاع فى العمق - أسبوع تساقط الفانتوم الإسرائيلية - الأمريكية فى يوليو ١٩٧٠، أعلن الرئيس عبد الناصر قبول مبادرة روجرز. «المترجم».

بالسلاح؛ فقامت الجبهة باختطاف ثلاث طائرات وأمرتها بالتوجه إلى الأردن، وساعد هذا الاختطاف فى إشعال حرب أهلية فى الأردن سعت فيها عناصر المقاومة الفلسطينية بدعم من وحدات مغيرة من الدبابات السورية؛ إلى الإطاحة بالنظام الأردنى الموالى للغرب، أما نيكسون وكيسنجر فقد أطلا على الأزمة من المنظور الكلاسيكى لعلاقات الشرق والغرب؛ حيث راودهما الشك فى أن الأيدى السوفيتية تلعب سواء فى حالات خرق مصر وقف إطلاق النار أو فى تحريك الدبابات السورية إلى الأردن.

وسواء أذنب السوفييت فى هذا أم لا، فقد كانوا جديرين بأن يكسبوا جراء الإطاحة بالنظام الأردنى؛ لكن عندما طلب الملك حسين العون قال البنتاجون (وزارة الدفاع) فى أمريكا للرئيس نيكسون: إن الجيش الأمريكى يفتقر إلى قدرات التدخل السريع على الأرض. هنالك واجه نيكسون وكيسنجر حقيقة بالغة السفور وهى أن إسرائيل وليس غيرها هى التى بمقدورها التدخل فى الإنقاذ وحفظ توازن القوى فى المنطقة... هكذا كان التهديد بالتدخل العسكرى الإسرائيلى هو السبب فى تراجع السوريين؛ وفى إتاحة الفرصة لسحق المقاتلين الفلسطينيين فيما أصبح يعرف باسم «معركة أيلول الأسود».

* * *

وسط رماد هذا التمرد الفاشل للفدائيين؛ ولدت العلاقة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، وفى السنوات الثلاث التى أفضت إلى أزمة الأردن عام ١٩٧٠؛ كان متوسط المعونات العسكرية الأمريكية إلى إسرائيل يقل عن ٤٧ مليون دولار سنويًا؛ لكن فى السنوات الثلاث التى أعقبت تلك الأزمة ارتفع هذا المتوسط ليزيد على ٣٨٤ مليون دولار، وفى هذا الإطار زادت قوة «الإيباك» - لجان العلاقات العامة بين أمريكا وإسرائيل - وهى الذراع الطولى التى يملكها اللوبى الإسرائيلى فى أمريكا- فيما زاد اشتعال غضب المستعربين الذين وجدوا فى شخص جوزيف سيسكو كبش الفداء.

* * *

ومع انحسار أزمة الأردن؛ توفى جمال عبد الناصر وخلفه أنور السادات الذى كان يبدو شخصًا لا يكاد يُعتد به أيام كان نائبًا للرئيس... وإذ شعر نيكسون وكيسنجر بالثقة بدأ نجاحهما فى كبت العناصر الموالية للسوفييت فى الأردن ، وكان افتراضهما أنه قد أصبح من المأمول تجاهل الشرق الأوسط والتماس أمجاد جديدة فى مجال السياسة الخارجية فى الصين، بيد أن سيسكو الذى لم يهمد له نشاط - ما لبث أن بذل- بدعم من روجرز محاولة جديدة تجاه عملية السلام فى الشرق الأوسط. هذه المحاولة الثانية التى قد لا يعرف عنها الكثيرون؛ كانت نتائجها أكثر إثارة وتعمقت جذورها فى صميم التجربة الشخصية لمستعرب بعينه هو «مايكل ستيرنر».

«مايك ستيرنر» كان من الدبلوماسيين المخضرمين بالخارجية الأمريكية، واختتم حياته الدبلوماسية سفيرًا فى دولة الإمارات العربية المتحدة، ولد فى نيويورك عام ١٩٢٨م وتخرج فى مدرسة سان جورج الداخلية فى رود أيلاند ثم فى هارفارد دفعة ١٩٥١ - درس الفرنسية والعربية وتأثر كثيرًا بكتاب لورانس «أعمدة الحكم السبعة»؛ ويقول: قرأت كذلك كثيرًا عن كتابات المستعمرين الإنجليز دوتى وجيرتورد با ٠ فيلى ثايجر. كان البريطانيون مؤلفين مقتدرين... وأنا أتذكر - يقظة العرب- لأنطونيوس ذلك السفر السياسى القيم الذى يجرى من الإنسان مجرى الدم، ثم حدث أن استطاع صديق للعائلة تدبير وظيفة لـ «مايك ستيرتر» فى شركة أرامكو بالسعودية؛ حيث استطاع السفر منها إلى مصر وسوريا والعراق ولبنان، وفى السعودية عقد صداقات مع كثير من الفلسطينيين وهو يعترف قائلاً: إنه تولد بين جوانحه قدر من التعاطف إزاء القضية الفلسطينية ونجم عن تجربتى فى السعودية أثر عاطفى هائل فيما يتعلق بالجوانب التى أتحيز لها. لم يكن هناك لا إسرائيليون ولا يهود من حولى بل كان يرافقنى دومًا عمال فلسطينيون وكنت أسمع عن الكيفية التى طردوا؛ بها من هذه القرية أو تلك حيث كانوا قد نشأوا وترعرعوا».

* * *

بعد ذلك التحق ستيرنر بالسلك الدبلوماسى وعينوه فى اليمن بعد سنة أمضاها فى إتقان العربية فى بيروت، وبين عامى ١٩٦٠و ١٩٦٥؛

خدم فى مصر؛ حيث انصب عمله فى السفارة الأمريكية بالقاهرة على كتابة التقارير عن السياسة الداخلية لمصر، وبهذه الصفة أمضى ستيرنر وقتًا طويلاً يرصد أحوال مجلس الأمة المصرى؛ حيث كان رئيسه أنور السادات يدير الأمور بصورة هزلية على طريقة كبير العيلة؛ مما جعل الأمر كله ملهاة ساخرة وإن كان مفيدًا فى ممارسة اللغة العربية، فضلاً عن كونه فرصة لمعرفة السادات. وهنا يواصل ستيرنر الحديث: «لك أن تفهم أننى كنت الأمريكى الوحيد الذى يحضر جلسات مجلس الأمة؛ ومن ثم كان السادات يحرص على دعوتى لتناول الشاى وتجاذب أطراف الحديث فى بيته بالجيزة وسط ديكور أقرب إلى طراز لويس الخامس عشر، له أبعاد متسعة لكن بغير ذوق رفيع».

فى فبراير ١٩٦٦، وبعد عودته إلى واشنطن عمل ستيرنر ومعه لوشيوس باتل - سفير أمريكا فى مصر وقتئذ- على الترتيب لزيارة «نائب الرئيس» أنور السادات إلى الولايات المتحدة(*) ولأن جمال عبد الناصر لم يكن محبوبًا - بصورة خاصة - فى أمريكا لا هو ولا سياساته الموالية للسوفييت؛ فقد كان على السفير باتل تحريك جميع الخيوط كى يرتب لزيارة السادات: أكثر من يقول نعم لعبد الناصر على طول الخط فى مصر. ويتذكر باتل هذه الواقعة قائلاً: حصلنا لأنور السادات على بدل سفر بمبلغ ١٢ دولارًا فى اليوم وتذكرة سفر بالدرجة السياحية على طيران تى دبليو

(*) السادات وقتها كان رئيسًا لمجلس الأمة، ولم يكن قد عين نائبًا للرئيس «المترجم».

إيه – ومن ثم حملنا الشركة على ترفيعها إلي الدرجة الأولى ، أما السادات فكان أشبه برجل يتلمس الظلام بيديه سائلاً: ترى هل ستعاملوننى حسب الأصول؟

وبعد وصول السادات إلى أمريكا رافقه ستيرنر إلى كل مكان، وكانت تلك أول زيارة للسادات لأمريكا على الرغم من أنه تردد كثيرًا على موسكو فى مهام كلفه بها عبد الناصر؛ وأردنا أن نبهره، ومن ثم فقد أرسلناه جوا إلى كاليفورنيا.

وفى «سكرامنتو» أمضى السادات طيلة اليوم فى صحبة حاكمها «إدموندبات براون». ذهبا أولاً إلى جلسة لمجلس الولاية حيث كان النواب يسلقون حاكمها بألسنة النقد حول شتى القضايا، وبعدها إلى اجتماع رتّبه الحاكم براون مع تلاميذ مدرسة ثانوية؛ حيث تعين عليه ثانية الرد على أسئلة قاسية، ويضيف السفير ستيرنر: كادت عيون السادات تطل من محجرها وهو يشهد تجربة التواصل بين الحاكم براون وعامة المواطنين؛ خاصة أن طلبة الثانوية كانوا قد شددوا النكير ؛ بيد أن براون تحمل سخونة الجلسة بروح من المرح. أما السادات فقد ملكت عليه التجربة جماع جوارحه وتعمق لديه الإعجاب بما رآه من تميز الحياة الأمريكية بالحيوية والانفتاح، وعليك أن تتذكر أيضًا أن السادات كان قد عرف موسكو فى أيام ستالين المظلمة(*).. وأعتقد أن تلك كانت لحظة حاسمة لحظة أن«باعوا» صورة أمريكا للمرة الأولى لأنور السادات.

(*) لعله يقصد أيام ما بعد ستالين الذى توفى عام ١٩٥٣ – «المترجم» .

وفى نيويورك رتبوا غداء للسادات قبيل عودته إلى مصر فى «نادى ٢١» كان مقررًا أن يحضره العمدة جون لندساى.

ويواصل «مايك ستيرنر» ذكرياته قائلاً: وبسبب الضغوط التى مارستها الجماعات اليهودية؛ ألغى لندساى حضوره قبيل ساعات ثلاث فقط من موعد الغداء، وشعر السادات لحظتها بالإهانة؛ لكنه ما لبث أن تجاوز الأمر وساعتها سألته: «إن كان ثمة ما يريد فعله كى يقتل الوقت؛ فما كان منه إلا أن قال إنه يريد شراء مجموعة كاملة من روايات «زان جراى» عن رعاة البقر فى الغرب الأمريكى؛ فعندما كان سجينًا لدى البريطانيين مع سائر العناصر الوطنية المصرية إبان الحرب العالمية الثانية؛ لم يكن لديهم ما يقرءونه فى مكتبة السجن سوى روايات «زان جراي». ثم إنه وخاصة بعد زياراته لكاليفورنيا أصبح مدمنًا على هذه الصورة التى انطبعت فى ذهنه لأمريكا، صورة رعاة البقر، ولأننى نيويوركى أصيل كنت أعرف إلى أين أقتاده ؛ إلى مكتبة فى شرق الشارع الرابع، ولك أن تتصور الفرحة التى غمرت أنور السادات عندما وجد الكتب التى طلبها، وهكذا أصبح العمدة جون لندساى فى طى النسيان. لقد كان السادات ينطوى على هذه القسمة الرومانسية من قسمات شخصيته. كان -بوضوح- رجل الحركات المسرحية وما زلت أتذكره مرتديًا معطفه الإدواردى فى الصباح وكأنه إحدى الشخصيات فى أفلام ديفيد نيفن.

*   *   *

فى عام ١٩٧٠؛ وإذ تولى السادات بعد جمال عبد الناصر أصبح مايكل ستيريز مديرًا للشئون المصرية فى وزارة الخارجية، «وكنت أعرف أننا بإزاء لعبة كرة جديدة ونصحت زملائى ورؤسائى بألا يهملوا شأن الرجل الجديد فى مصر بوصفه نسخة بالفاكسميلى عن أصل اسمه عبد الناصر ذلك لأن السادات سوف يأخذ مصر إلى اتجاه جديد».

قليلون يومها أخذوا آراء ستيرنر على محمل الجد وعلى رأسهم طبعًا لجنة العلاقات اليهودية - الأمريكية وجولدا مائير. ألم يكن ستيرنر قبل كل شيء مجرد واحد من المستعربين الرومانسيين، وقد اجتذبته تلك النسخة الجديدة التافهة من عبد الناصر؟ لكن الذى حدث مع بدايات الربيع من عام ١٩٧١؛ أن بادر أنور السادات ليصعق «دونالد برجس» - أقدم دبلوماسى أمريكى فى القاهرة - عندما قدم له مشروعًا للتسوية بين مصر وإسرائيل.

كانت مصر قد قطعت العلاقات رسميًا مع أمريكا فى عام ١٩٦٧؛ ولم يكن برجس يتمتع برتبة سفير... بعدها طار ستيرنر إلى القاهرة من واشنطن وفى ٢٣ أبريل ١٩٧١ كان هو ومعه برجس يجتمعان مع أنور السادات.

يتذكر ستيرنر قائلاً: «التقينا شمال القاهرة فى إحدى استراحات الملك فاروق حيث جلسنا إلى كراسى البامبو نحتسى القهوة والمشروبات الباردة؛ وصفر السادات يطلب الخرائط.. وجاءت خريطة لسيناء من وضع هيئة المساحة الأمريكية، وقال: إذا كان الإسرائيليون على استعداد للانسحاب إلى الموقع كذا، فأنا سأكون على استعداد لفتح قناة السويس..

بعدها استرسل فى الحديث.. كان قد عانى كثيرًا فى فترة عبد الناصر.. وأدركنا فجأة أن هذا الشخص يريد التفاوض على السلام ، وأنه كان يعنى ما يقول.. وكان الأمر على هذا النحو مهمًا؛ لكن ماذا عسانا نفعل لو أنه أطيح به؟

على أن السادات ما لبث أن هدأ بعضنا من تلك الوساوس بعد أيام قليلة؛ عندما أخرج من الجراب أولى مفاجآته العديدة. لقد اعتقل على صبرى رأس الحزب السياسى فى مصر، القوى الموالى للسوفييت ومع حلول الصيف سيقوم السادات بطرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر. مع ذلك فقد بدأ موقف السادات الداخلى وكأنه لا يزال هشًا ، وعلى الرغم من أن كلاً من وزير الدفاع موشى ديان ووزير الخارجية أبا إيبان فى إسرائيل أبديا اهتمامًا بمبادرة السادات؛ فإن رئيسة الوزراء مائير كان يراودها مزيد من الشكوك.

بيد أن السفير«ستيرنر» لا يلبث أن يعبر عن أسفه البالغ حين يقول: إنه عندما جاء كل من وزير الخارجية روجرز ومساعده سيسكو إلى الشرق الأوسط لدفع كلا الطرفين إلى التقارب مع بعضهما ، وعلى الرغم مما كان السادات يقدمه من تنازلات جديدة؛ ما لبث الأمر كله أن تبدد بين حبات الرمال.

بدأ الأمر وكأن كل أجزاء المعضلة موجودة ومتاحة، لكن المعضلة نفسها كانت تستعصى على الحلول. إن «أثرتون» الذى كان مشاركًا بعمق فى مبادرة سيسكو يعترف من جانبه قائلاً :«حتى أنا كنت متشككًا فى إخلاص

أنور السادات، ولم نأخذ رئاسته فى مصر على محمل الجد كمؤسسة إلا عندما جاءت حرب ١٩٧٣. هذا النصر أسهم مع غيره من العناصر فى فشل المحاولة الثانية فى التقدم نحو السلام، ويعترف «أثرتون» أيضًا بأن الإسرائيليين كانوا على حق؛ فقد كان ثمة تركيز بالغ على الحدود دون أن تشهد هذه المحادثات التركيز الكافى على جوهر السلام ذاته، وحتى بدون هذه السلبيات؛ فقد كانت تلك المبادرة ينظر إليها على أنها مشروع من مشاريع الخارجية؛ معرض لاحتمال أن ينسحب منه الأطراف على استحياء فى اللحظة الأخيرة دون أن تثير غضب الرئيس نيكسون.

والذى حدث أن فشل مبادرة ١٩٧١؛ أدى إلى المزيد من تدمير مكانة روجرز فى وزارة زمام الخارجية ؛ مما أتاح المجال أمام نيكسون وكيسنجر لتسلم زمام السيطرة على سياسة الشرق الأوسط، ولم يكن لا المصريون ولا الإسرائيليون سعداء عند هذا المنعطف ؛ إزاء تفاعل روجرز تجاه سيسكو بل كانت إدارة الشرق الأدنى بالخارجية تدخل معركة مع لجنة العلاقات اليهودية- الأمريكية المؤيدة لإسرائيل حول كل شحنة سلاح تسلم لإسرائيل، هذا بينما كان السادات يشعر- كما يقول كوانت- بأن إدارة الشرق الأدنى تعاملت معه كرجل أحمق مأفون.

فى عام ١٩٧٢؛ عين السادات حافظ إسماعيل مستشارًا للأمن القومى، وكان ذلك - كما يشرح أثرتون - منصبًا جديدًا تم إنشاؤه لغرض وحيد هو تزويد السادات بقناة اتصال خلفية مع كيسنجر الذى كان يشغل الموقع بالاسم نفسه فى صفوف الحكومة الأمريكية.

ويقول ستيرنر: إن خبراء المنطقة بالخارجية كانوا متبرمين؛ لأن كيسنجر أبدى- بوضوح- عدم اهتمامه بإقرار تسوية سلمية فى فترة ١٩٧١-١٩٧٢، وكيسنجر تنقصه الشجاعة الأدبية للاعتراف بأخطائه، كما يضيف ستيرنر الذى يقول إنه لا الإسرائيليون ولا إدارة نيكسون كانوا يثقون فى مبادرات التقرب من جانب السادات قبل نشوب حرب الغفران (أكتوبر) ١٩٧٣.

إن ستيرنر يعرض على زائره - مؤلف الكتاب - قصاصة من أحد أعداد جريدة « هاآرتس » الإسرائيلية ومعناها «الأرض» ، صادر فى عام ١٩٧١م، يحمل صورًا لكل من ستيرنر شخصيًا، وكذلك روى أثرتون وبعض المستعربين الآخرين بالإدارة الأمريكية وهم يرتدون ملابس لورانس العرب البريطانى الشهير، ويضحك ستيرنر قائلاً: هكذا كانوا يسخرون منا، ولو كانوا قد صدقونا بشأن السادات لما قتل من أبنائهم عدد كبير فى عام ١٩٧٣ على أن ستيرنر يعترف بأن ضروب الفشل التى مُنيت بها عملية السلام وقتها فضلاً عن مبيعات الأسلحة إلى إسرائيل ؛ قد زرعت فى صفوف إدارة الشرق الأدنى ما يشبه عقلية الخنادق المتحفزة والمتربصة. «مع أواخر عقد السبعينيات ساد شعور بأننا الوحيدون فى عموم واشنطن الذين نشكل قطب التوازن إزاء المناخ العام من الشراكة المؤيدة لإسرائيل». تلك هى اللحظة التى بدأ فيها المستعربون يرون أنفسهم بجدية فى صورة أقرانهم من المختصين بشئون الصين الذين تعرضوا للاضطهاد خلال الإرهاب الفكرى المكارثى الذى شهده عقد الخمسينيات.

وما كان لهؤلاء المخضرمين من أهل الاستعراب أن ينعموا بفرصة لالتقاط الأنفاس. لقد جاء استيلاء كيسنجر على مقاليد شئون الشرق الأدنى حتى قبيل تعيينه وزيرًا للخارجية فى سبتمبر ١٩٧٣، وتم هذا الاستيلاء قبل التعيين بأربعة أشهر... ففى مايو ١٩٧٣، وتحت غطاء محادثات باريس للسلام فى فيتنام، عقد كيسنجر اجتماعًا سريًا مع نظيره المصرى حافظ إسماعيل بعد أن أطلعه كل من سيسكو وأثرتون على تطورات الأمور. يومها ظل ويليام روجرز، وكان لا يزال اسميًا وزيرًا للخارجية بعيدًا عن الصورة تمامًا، وجاء مايو ١٩٧٣ ليشهد فى باريس أول تعامل بين كيسنجر وروى أثرتون الذى يتذكر هذا بقوله: أعجبنى فيه سرعة تعلمه فلم يكن بحاجة إلى كثير من الاطلاع على المعلومات.

ثم اكتمل التحول الذى طرأ على إدارة الشرق الأدنى بعد مجيء كيسنجر إلى وزارة الخارجية؛ فقد جاء بمفهومه عن السياسات المبنية على الواقع ليقلب رأسًا على عقب مفهوم الدبلوماسية التى كان كيسنجر يتشكك كثيرًا فى مقدراتها، يقول فى كتابه «سنوات الأزمة»: لقد تطور السلك الخارج فى السنوات الأولى من تاريخنا حين لم يكن يلوح تهديد فعلى ومباشر لأمن أمريكا، وبدا أن تعاطى أمريكا مع الخارج وكأنه لا يصدر عن مفهوم المصلحة القومية؛ مما كان يعد أمرًا قصير النظر من الناحية المعنوية بقدر ما كان ينطلق من الأفكار المستنيرة عن حرية التجارة ووضع المبادئ الأخلاقية أو على الأقل القانونية موضع التنفيذ.. إن الخدمة الخارجية - الدبلوماسية - تنادى بالتفاوضية أو فى معنى آخر بالوعى بما سوف يقبله الجانب الآخر.

فى كلمة واحدة؛ يرى كيسنجر السلك الدبلوماسى الأمريكى بمثابة حفنة من المبشرين انطلقوا إلى الخارج يقصدون إلى الخير؛ فكان أن التقوا بالأشرار فى منتصف الطريق وعلى حساب المصلحة القومية.

وقد تحولت مقدرة كيسنجر على استغلال العناصر البيروقراطية فى قراره بالإبقاء على سيسكو مساعدًا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى حين كانوا ينظرون إلى سيسكو على أنه رجل روجرز، وكانت معروفة تلك الكراهية التى يضمرها كيسنجر تجاه روجرز، بل وكان لكيسنجر آراؤه السوداوية إزاء محاولات سيسكو المتواصلة لصنع السلام التى وصفها كيسنجر بأنها نشاط من أجل النشاط ليس إلا، لكن من الواضح أن كيسنجر تنبأ - عن حق - بأن سيسكو عندما يصبح رجل كيسنجر سوف يشكل أداة مغرية وفعالة، وعلى الرغم من أن جوزيف سيسكو- شأنه شأن هيرمان إيلتس - لم يتردد فى أن يراجع كيسنجر فى أمور شتى بل وإن يصرخ فى وجهه أحيانًا ؛ إلا أن كيسنجر كان يتقاضى عن تمرد الأفراد الذين يكن لهم الاحترام.

«مايك ستيرنر» واحد من المخضرمين الذين لهم أفكار تأملية بشأن التغيير الذى أحدثه كيسنجر وسيسكو فى الخارجية ولا سيما فى إدارة الشرق الأدنى: جاء كيسنجر بتصويب صحى لمسار السياسة الخارجية، رأى كيف تعانى عملية أخذ القرار جراء الشد والجذب بين الأطراف بغير ضابط أو رابط، فمن المؤكد أن ثمة تحيزا مؤسسيًا ومتأصلاً لصالح العلاقات الثنائية فى وزارة الخارجية- أى العلاقات بين أمريكا وهذا البلد العربى أو ذاك؛ لهذا جاء كيسنجر بهيكل معمارى جديد يكفل عمليات

مراجعة وكشف منظمة لوضع الأمور فى نصابها. ذلك لأن من الدول ومن المبادئ ما يفوق فى الأهمية دولاً أو مبادئ أخرى.

وجاءت حرب الغفران (أكتوبر) ١٩٧٣ - التى كانت نتيجة جزئية لما عمد إليه نيكسون وكيسنجر من إهمال الشرق الأوسط بعد المكاسب التى تحققت لهما من أزمة «أيلول الأسود» فى الأردن عام ١٩٧٠؛ لكن الحرب أتاحت أمام كيسنجر فرصة العمر التى كان يرتقبها كى يبدد الأفكار والتصورات التقليدية التى درج عليها المستعربون - خاصة كما أكد عليها سلفه القديم - لوى هندرسون - بأن على الولايات المتحدة الاختيار بين صداقة إحدى وعشرين دولة عربية أو صداقة واحدة فقط هى إسرائيل. ذلك أن كيسنجر كان جديرًا بإثبات أن بالإمكان كسب صداقة الطرفين على السواء.

وكان الأمر مهيأ تمامًا ؛ فعلى الرغم من أن إسرائيل كانت تخوض الحرب على جبهتين فى أكتوبر ١٩٧٣ إلا فإنها تكبدت جراحًا مميتة بفعل الهجوم المباغت للسادات عبر قناة السويس وهجوم الزعيم السورى حافظ الأسد عبر مرتفعات الجولان... هكذا تناقصت بصورة جذرية ميزة إسرائيل الاستراتيجية والسيكولوجية التى كانت تتمتع بها على جيرانها العرب، وهذه النكسة أتاحت ليكسنجر الضغط على إسرائيل من أجل تقديم تنازلات، ثم إن الدول العربية باتت تدرك أن الولايات المتحدة وليس غيرها هى القادرة على أن تعيد إليهم أرضهم الضائعة بحكم علاقتها الوثيقة مع إسرائيل، ومن ثم فعلى الرغم من

استمرار العلاقة الحميمة بين أمريكا وإسرائيل قامت كل من سوريا ومصر بتجديد صلاتيهما الرسمية مع واشنطن.

كان كيسنجر وسيسكو وأثرتون هم نواة الفريق المسافر للخارجية الأمريكية لإجراء المفاوضات التاريخية التى أعقبت حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهى المفاوضات التى شملت إعادة فتح قناة السويس وانسحاب القوات الإسرائيلية من الجزء الغربى من سيناء وخلق منطقة منزوعة السلاح فى مرتفعات الجولان، وكان هيرمان إيلتس هو الرجل الذى اختاروه لإعادة فتح سفارة أمريكا فى القاهرة، وكان ريتشارد ميرفى هو الذى اختاروه لإعادة فتح سفارة أمريكا فى دمشق.

أثرتون كان هو الذى وضع عينه على ريتشارد ميرفى؛ بوصفه يمثل فصيلاً جديدًا من المستعربين - فصيلاً غير تقليدى وغير مستغرق فى الاستعراب؛ بيد أن الخاصية التى ميزت ميرفى عن المخضرمين من أمثال: سيل أو باركر أو ستولفوز أو كيلجور أو ستيرنر أو غيرهم كانت أعمق وأبعد مدى؛ فبدلاً من أن يكون فصيلاً جديدًا. كان يمثل بالأحرى طبعة مخففة من هؤلاء الرجال على الرغم من أن ميرفى- وكذلك يفعل بعض أولئك السادة المخضرمين - لا يقرون كيلجور مثلاً على نوعية تصريحاته المتعلقة بإسرائيل أو الصهيونية.

ميرفى مثل أثرتون تخرج فى كلية أكستر؛ حيث صادف للمرة الأولى كتاب دوتى الأشهر بعنوان «رحلات فى صحارى بلاد العرب»، وبعد دراسة هارفارد أعقبتها فترة موجزة فى الجيش، التحق ميرفى بالسلك

الدبلوماسى عام ١٩٥٤ ثم درس العربية فى الجبال المحيطة ببيروت، فيما قرأ القرآن الكريم على يد شيخ علم فى أحد الجوامع المحلية، وزار ميرفى إسرائيل للمرة الأولى عام ١٩٥٤، وهناك اكتشف أن التحيز هنا أو هناك لجانب ما هو من الحماقة بمكان خاصة فيما يمس المستقبل الوظيفى للمرء، فى فبراير ١٩٦٢، كان عاكفًا على تسلم صور لرائد الفضاء الأمريكى جون جلن بالقنصلية الأمريكية فى حلب فى محاولة لتعزيز صورة أمريكا فى صفوف الأهالى العرب، وفى اليوم التالى اتهمته وسائل الإعلام السورية بأنه إنما كان يسلم صورًا لجمال عبد الناصر(*) كانت تلك فترة قطيعة (الانفصال) بين مصر وسوريا، واشتكى ميرفى إلى المسئولين السوريين وتلقى الاعتذار ؛ لكنه قرر فى صحف اليوم التالى أنه هو الذى قدم الاعتذار، وفى هذا يقول ميرفي: الخطأ الذى ارتكبته هو أننى تعاملت معهم بالمنطق. ذلك هو النوع من التجارب الذى يتكرر مرارًا وتكرارًا حتى ليحصنك من أن تنحاز عاطفيًا إلى العرب.

وبعد أن أصبح أثرتون نائبًا لمساعد الوزير، حصل لميرفى على منصب سفير لدى موريتانيا؛ إذ كان أثرتون يدرك من واقع تجربته الخاصة- أن أفضل شيء لمهمة المستعرب أن يتباعد المرء عن المسار الرئيسى فى العالم العربي. وموريتانيا إلى جانب كونها عند أطراف المحيط العربى فإنها أتاحت لميرفى فرصة الانضمام إلى صف السفراء فى سن صغيرة نسبيًا؛ بما يؤهله لمنصبه فى سوريا عندما يعيد كينسجر إقامة العلاقات،

(*) وكانت تلك جريمة فى نظر نظام الانفصال السوري... فتأمل ! «المترجم» .

وقد تعمدوا اختيار ميرفى متخطين بذلك كلاً من ستولفوز وكيلجور ومن سواهما ممن يفوقونهما فى الأقدمية وفى التمرس فى الشئون العربية.

وفى عام ١٩٧٨؛ عاود أثرتون مساعدة ميرفى فى تولى منصب السفير فى الفلبين بعد مهمته فى سوريا. وما أن جاء مطلع الثمانينيات حتى أصبح ريتشارد ميرفى مؤهلاً بتاريخ خدمة حافل كى يصبح مساعداً للوزير لشئون الشرق الأدنى فى عهد الرئيس ريجان.. هكذا لم يقدر بعد ذلك قط أن يتولى مستعرب متأصل رئاسة إدارة الشرق الأدنى - منصب مساعد وزير الخارجية - فقد حل أثرتون محل سيسكو عام ١٩٧٤؛ عندما قام كيسنجر بترقية سيسكو إلى منصب وكيل الخارجية، وبعد أثرتون جاء هارولد سوندورز معاون كيسنجر السابق فى مجلس الأمن القومي- بالبيت الأبيض - وهو واحد من رواد عملية السلام وبين سوندورز وميرفى تولى المنصب نك فليوتس.

*　　*　　*

ينحدر نك فليوتس من أصل يونانى فى كاليفورنيا وقد التحق بمدارس الحكومة، وحصل على درجاته الجامعية من جامعة كاليفورنيا فى بيركلي، وكان أول مناصبه الدبلوماسية فى نابولى ورما بين عامى ١٩٥٥ و١٩٦٠ وهو يعلق على تلك الفترة بصوت رتيب تفوح منه خبرة الحياة اليومية قائلاً: خمس سنوات ممتعات فى إيطاليا قبل أن يلحقها التلف؛ نتيجة عوامل مختلفة أمضينا فيها أجمل سنوات عمرنا أنا وزوجتى ومنذ ذلك الحين ما برحت فى تدهور.

سنوات فليوتس التالية أمضاها فى مواقع فى فيتنام والهند ولاوس.

وفى عام ١٩٧٣؛ وقد بلغ من العمر ٤٥ عامًا خيروه بين منصب السفير فى بنجلاديش ونائب السفير فى إسرائيل، والمعروف أن الدبلوماسى المحترف سواء اعترف بذلك أو أنكره ينشد - رجلاً كان أو أمرأة - أن يصبح سفيرًا قبل التقاعد، فإذا ما عرض منصب السفير عليه ولما يزل فى الأربعينيات من العمر مهما كان البلد صغيرًا؛ فمن شأن هذا أن يضع الدبلوماسى فى فئة النخبة التى يمكن أن تفتح أمامها أبوابًا أوسع دون سابق إنذار.

* * *

لكن فليوتس، المقامر بطبعه، يقول: لم أكن أريد العودة إلى آسيا لقد أصبت بكل مرض يخطر على البال هناك ولم يكن أريد أن أخترع أمراضًا جديدة ، ثم كنت أخشى الملل الفكري.. هناك وكان عندى أبناء وإسرائيل موقع أفضل بالنسبة إلى العائلة.

وما لبثت إسرائيل أن برهنت على كل ما كان يتطلع إليه بالضبط؛ فعشية حرب ١٩٧٣ واجه فليوتس بدلاً من الملل الفكرى أعباء هائلة من العمل سبعة أيام فى الأسبوع، ووجد أن الإسرائيليين يتصفون بنوع من الغطرسة لا يخلو من جاذبية.. تل أبيب تحمل طابع وسط مانهاتن-

قلب نيويورك - من حيث الجو المحموم والمكهرب، ولأن السفارة الأمريكية تقع فى قلب الحى المشحون بالضوء الأحمر كان المنصب ممتازًا.

فى عام ١٩٧٥؛ عاد فليوت إلى واشنطن ليعمل ضمن هيئة رسم السياسات مع كيسنجر، وفى عام ١٩٧٧ رشحه أثرتون نائبًا لمساعد الوزير للشرق الأدنى.. فى عام ١٩٧٨ أصبح سفيرًا لدى الأردن، هكذا ربح فى المقامرة برفض منصب السفارة لدى بنجلاديش؛ ثم «كان هناك من المستعربين من حاولوا النيل منى للحيلولة دون حصولى على المنصب فى الأردن على أساس الفترة التى أمضيتها فى إسرائيل والذى لم يدركوه أن الأردنيين هم الذين أرادوا مجيىء وبالذات لأن لى رؤية متعمقة بشأن إسرائيل».

المعروف أن فليوتس اختتم حياته الوظيفية سفيرًا لدى مصر بعد أن عمل مساعدًا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى الفترة ١٩٨١ - ١٩٨٣.

على أن الأمور لم تمض بغير عوائق؛ إذ لم يكن سهلاً باستمرار على المستعربين المخضرمين إفساح مواقعهم كى يأتى إليها أمثال ميرفى أو فليوتس.. فى أواخر عام ١٩٧٥ قام كينسجر بطرد «جيمس إلمر أكنز» وكان سفيرًا بالسعودية بتهمة العصيان الوظيفي؛ لأنه - على ما قيل - كان متحيزًا أكثر من اللازم لصف العرب، وقد تعين على«إكنز» قراءة خبر طرده فى سطور عمود كتبه الصحفى جوزيف كرافت، كان هذا هو هنرى كيسنجر

فى أحقر تصرفاته البيروقراطية. فما الذى دفعه إلى هذا التمادى فى السلوك؟ إن الخلافات فى السياسة لم تكن كما قد يتوقع المرء سوى الأسباب الظاهرة – لهذه التصرفات.

* * *

لم يكن « جيم أكنز» من ذلك الطراز الذى نعهده فى مستعربى المدرسة القديمة، لم يكن لا جم التهذيب ولا رقيق الحاشية على نحو ما كان أندى كيلجور وتالكوت سيل أو تيل ستولفوز، ولا حتى من طراز اختصاصى الصين، مثل: جورج بوش. كان «أكنز» خشنًا بحق متوقد الذكاء.

ولد فى أكرون، أوهايو عام ١٩٢٦ من عائلة مبشرين فقيرة من طائفة الكويكرز، وبدلاً من برنستون أو أمهرست أو هارفارد تعلم فى جامعة أكرون ، وبدلاً من أن يحصل على درجة فى الأدب أو العلوم السياسية نال درجته فى الفيزياء؛ وفى هذا يكمن أحد مفاتيح شخصيته؛ إذ هو عالم طبيعيات من النوع الثقيل وكل شيء حول شخصيته وأساليب تفكيره ينطلق من خبرة تحليلية قاسية غير متهافتة – نكرر غير متهافتة – بحال من الأحوال، إنه بهذا نقيض طراز المستعرب الرقيق من أهل العلوم الاجتماعية الذى يجب أن يكرهه بالذات غير المحافظين.

هذه الشخصية العلمية حادة الاستقامة التى جبل عليها «أكنز» واقترنت بنشأته التبشيرية المتقشفة بين ظهرانى الكويكرز؛ جعلت منه

شخصية ديدنها الأخلاق؛ بل وإنسانًا كما يقول بعض يتحلى بضمير يقظ يحاسب على كل شيء، مع بدايات الخمسينيات خدم «أكنز» مع نخبة الأصدقاء الأمريكيين فى بولندا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا إلى أن قام الشيوعيون بطرد جماعة مبشرى كويكرر. كانت تلك سيرة هندرسون الذى شب بدوره فى بيئة فقيرة فى قلب أمريكا وخدم أيضًا مع الصليب الأحمر بعد الحرب العالمية الأولى؛ على أن «أكنز» آنس فى نفسه فى تلك الفترة قدرة على تعلم اللغات. كانت الفيزياء قد أوصلته إلى الألمانية واستطاع بسهولة إتقان الفرنسية، ثم أصبح أيضًا من عشاق الثقافة واللغة اليونانية.

وفى عام ١٩٥١؛ كان قد أكمل جولة فى أنحاء اليونان وآسيا الصغرى؛ حيث زار أقصى الأديرة فى جبل أثوسى وكان ذلك عقب الحرب الأهلية اليونانية؛ إذ كان الريف فى معظمه ممزق الأوصال، وفى تركيا تقصى «أكنز» مسار الإسكندر الأكبر مشيًا على الأقدام وهو ما يلاحظ أنه أمر لم يحتفل به ولا أنجزه كتاب الرحلات البريطانيين من أمثال فرياستارك يقول:«إن شغفى بأحوال شرقى المتوسط تناهى إلى نفسى عن طريق اليونان».

وما لبث «أكنز» الشاب أن وجد لنفسه مستقرًا فى بيروت عام ١٩٥٢؛ حيث كان يتكسب من تدريس الفيزياء والكيمياء.. «كنت قد نشأت فقيرًا للغاية، لم أكن أعرف ما هو السلك الخارجى إلا بعد أن أقمت فى بيروت وتصورت أنه مقتصر على أبناء الأثرياء، وكنت أعرف أننى أفوقهم ذكاء وألمعية، هكذا انتظرت إلى أن دخلت امتحان السلك الدبلوماسى فى سفارة أمريكا، وما داخلنى الشك لحظة فى أننى سأجتاز الامتحان، لكن الذى

حدث أن أوراق الامتحان لم تصل قط؛ بل جاءت السنة التالية عام ١٩٥٣ فأجريت استقطاعات بالميزانية ومورست الضغوط من جانب السيناتور مكارثى، وقد كان يصطاد فى مياه عكرة يراها حمراء فحالت دون تعيينات جديدة»، وبعد فترة تسكع فى لبنان وسوريا كان الفرد أثرتون الدبلوماسى فى سوريا فى ذلك الوقت هو أول من التقاه أكنز من أفراد السلك الخارجى على الإطلاق، وقد عاد أكنز إلى واشنطن عام ١٩٥٤ وما لبث أن التحق بالسلك الدبلوماسى.

وفى عام ١٩٥٦؛ عين «أكنز» فى سوريا حيث أبدى من اللمعان وأيضًا الاعتداد بالنفس ما يجبر المرء على احترامه، وهو يبدأ فى تفسير ذلك فيقول: «كان ذلك فى الفترة التى سبقت أيام دفع علاوات أسرية مقابل تعليم أولاد الدبلوماسيين أو الإجازات التى يمضونها فى الوطن، بمعنى آخر كان السلك الدبلوماسى لا يزال بعد مؤسسة الأغنياء:.. رواتب ضعيفة أساسًا، وعليك أن تدفع من جيبك الكثير وكان من السهل أن تكون أمينًا فى البرقيات الدبلوماسية، فأنت عائد فى حال أن يغضبوا عليك إلى حيث دخلك الخاص الوفير. أما أنا فلم أكن لأملك هذا الترف ، هنالك قررت - ومهما كانت عواقب التصرف كما يفعل أبناء الأغنياء - أن أكتب تقاريرى لأودعها بالضبط ما كنت أفكر فيه».

وعليه جلس أكنز ليكتب تقريرًا بخط يعدد فيه ١٦ علامة تنبئ بوحدة سياسية وشيكة الحدوث بين مصر وسوريا، وأرسله خلال قناة معارضة؛ ولكن عمد نائب السفير إلى تدمير تحليلى ثم ثبت أننى كنت مصيبًا وكان هو المخطئ إذ قامت بالفعل الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨؛ ثم تعرضت للانفصال عام ١٩٦١».

بعد ذلك خدم «أكنز» فى مأمورية محدوية فى قنصلية مدارس بالهند قبل أن يتوجه إلى بيروت لدراسة العربية. و« ما أسهل أن لحقت بالذين كانوا متفرغين يدرسون العربية ردحًا طويلاً من الزمن». وهو يحرص على تذكير محدثه بذلك معربًا عن الأسف؛ لأن المعهد تعرض للإغلاق فترة من الزمن عندما قام أيزنهاور بغزو لبنان.

وفى عام ١٩٥٩ ذهب «أكنز» إلى الكويت ليحل محل «سيل» نائبًا للقنصل، وكان سيل قد حل بدوره محل «ستولفوز» وبعدها بدأ أكنز فى عام ١٩٦١ مهمة استغرقت أربع سنوات فى بغداد مستشارًا سياسيًا بالسفارة، وهو يلاحظ بسعادة أنه بفضل الانقلاب البعثى عام ١٩٦٢؛ فقد نعمنا بعلاقات أفضل مع العراق ومن تصاريف القدر أيضًا أن سبق «أكنز» فى منصب المستشار السياسى بالسفارة فى بغداد زميله «بيل ليكلاند» الذى يراه أكنز «أفضل موظف فى السلك الخارجى الأمريكى التقيته على الإطلاق» وهو نفس بيل ليكلاند الذى وصفه أثرتون بأنه من غلاة مؤيدى القومية العربية وجمال عبد الناصر وحكم الأغلبية من أهل السنة.

وفى عام ١٩٦٧؛ حصل جيمس أكنز على وظيفة مدير مكتب المحروقات والطاقة بوزارة الخارجية بفضل معرفته عن العالم العربى الغنى بالنفط من جهة وبفضل خبرته العملية من وجهة أخرى، ويومها أثبت أكنز أنه كاسندر(*) فى عام ١٩٧٠. وعندما كان سعر البنزين ١٧

(*) عرافة ضرووارة أو زرقاء اليمامة عند العرب «المترجم» .

سنتًا للجالون اقترح أكنز رسميًا فرض ضريبة على البنزين بهدف الحد من الاستهلاك وإعداد أمريكا لأزمة مقبلة فى البترول، تنبأ بوقوعها فى ربيع ١٩٧٣– أى قبيل أشهر قليلة من حرب الغفران «أكتوبر»– وما تبعها من فرض حظر عربى على البترول.

وفى اجتماع ضمه مع جون أرلخمان مستشار السياسة الداخلية للرئيس نيكسون؛ دافع أكنز عن خطة ترمى إلى حفظ النفط؛ بمعنى الاقتصاد فى استخدامه خشية النضوب.. إلا أن أرلخمان أجاب بقوله: إن الحفظ ليس مما يتبناه الحزب الجمهوري، ويعلق على ذلك أكنز بقوله: وهذا غلط فإن أول دعاة الحفظ الكبار هو الرئيس الأسبق تيدى روزفلت ، وكان جمهوريًا ثم يسترسل أكثر ضاحكًا: طبعًا لم أجسر على أن أقول ذلك إلا بعد أن غادرت مبنى البيت الأبيض.

بدأ تعيين «جيمس أكنز» سفيرًا لدى السعودية، فى نفس لحظة اندلاع حرب «يوم كيبور – الغفران – أكتوبر»، بمثابة اختيار مثالى.. فأى اختيار أفضل من مستعرب وكذلك خبير فى الطاقة سفيرًا لدى المملكة العربية التى كانت تتصدر منتجى النفط فى العالم؟ لكن «أكنز» ما لبث أن تسبب فى مشكلات على الفور.. فى ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣، وبعد أسابيع قلائل من اضطلاعه بواجباته فى المنصب... أبلغ أكنز مديرى «أرامكو» بأن يستخدموا اتصالاتهم كى يؤكدوا بيقين فى أمريكا أن رفع القيود عن النفط لن يتم إلا إذا جرت تسوية النزاع السياسى بطريقة ترضى العرب.

وقد جاء ذلك فى وثيقة من أرامكو مطبوعة فى لجنة مجلس الشيوخ الأمريكى الفرعية بجلسات الاستماع للشركات المتعددة - أو المتعدية الجنسيات (*).... بعد ذلك وتحت عنوان «آل سعود الأمريكيون: عصابة البترو دولار السرية»، كتب الصحفى المحقق «ستيفن أمرسون آن»: تصرفات أكنز كانت من الغرابة بمكان، فها نحن بإزاء سفير أمريكى يحاول أن يعزز من ابتزاز العرب للولايات المتحدة».

كيسنجر وسيسكو كانا- فى أهون الأحوال- غير راضين عما حدث.. ومن ناحيته فإن السفير أكنز لا يخفى كراهيته لكل منهما وتفضيله لوزير الخارجية الأسبق ويليام روجرز.. بيد أن أكنز ما برح ينكر أن هذا الأمر له علاقة بتحيز من جانبه للقضية العربية... بل ويقول إنه خاض معارك من أجل كيسنجر ومن أجل إسرائيل أيضًا... ويقول أيضًا: إن الملك فيصل لم يكن مستعدًا لرؤية كينسجر.. فقد كان فى رأيه يهوديًا وصهيونيًا... فما كان من أكنز إلا أن أكد ضرورة استقباله وإلا فإنه سوف يستقيل؛ إذ لن تكون له مصداقيته كسفير إذا ما فشل فى أن يرتب لقاء على مستوى القمة لوزير خارجيته، وبين رئيس الدولة المعتمد لديها.... ويضيف أكنز قائلاً: «كان لزامًا عليّ أن أمضى الساعات الطوال لإقناع السعوديين بأن كيسنجر لم يكن له يد فى اغتيال فيصل الذى اغتاله أمير سعودى مختل فى مارس ١٩٧٥، ويشير أكنز إلى أن جور

(*) الشركات المتعدية الجنسيات والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الجزءين ٧ ، ٢٠ و ٢١ فبراير ٢٧ و ٢٨ مارس ١٩٧٤، ص ٥١٧.

حبش – الزعيم الراديكالى الفلسطينى– وصفه بأنه أخطر الأمريكيين فى الشرق الأوسط؛ بعد ما تردد من أن لى نفوذًا سلبيًا على فيصل... وفى واقع الأمر، فقد حولت موقف فيصل إزاء إسرائيل من عدم القبول نفسيًا بدولة يهودية– أيما كانت– إلى القبول عقليًا بإسرائيل فى حدودها فيما قبل ١٩٦٧...«لا يزال أكنز بقامته الطويلة وشخصيته شديدة التأثير على نحو يشوبه قدر من الخشونة التى يكاد يختفى وراءها جوهر روحى أرهف إحساسًا – لا يزال لديه ما يقوله: « لم أكن أريد لأسعار البترول أن ترتفع.. وطالما جادلت فى ذلك مع أكبر المسئولين بدعوى أنهم إنما يلحقون الأذى بالاقتصاد الغربى»، وإن ارتفاع الأسعار لن يصب إلا فى مصلحة الشيوعيين وكانوا يبغضونهم.... وكان الجواب الذى تلقيته: «إذا أقنعتم إيران وافقنا من جانبنا على تجميد الأسعار» لكن سيسكو وكيسنجر تضايقا من اقتراح بممارسة الضغط على الشاه كى يكبح جماح الأسعار (*)... أرادا أن يجنى الشاه طائل الأموال كى يشترى بها أسلحتنا «الأمريكية»، بيد أننى واصلت الضغط وعدت هنا إلى عقدة سليل الأغنياء التى اصطنعتها وتصورت أن إلمامى بهذه المسألة بما يفوق معارف كل من كيسنجر وسيسكو، وكذلك بفضل صلتى الوثيقة بالملك فيصل.. فإن ذلك كفيل بحمايتى من العزل من منصبى».

(*) «السفير»، كيلفور يشير فى مقابلة التاريخ الشفوى التى أدلى بها إلى أن ذلك كان جزءًا من مؤامرة سيسكو وكيسنجر فى إيقاع العرب بين قطبى قوتين عسكريتين غير عربيتين فى المنطقة، هما إسرائيل وإيران (الشاه).

مـن ناحيـة أخـرى؛ فـإن «السفيـر» هيـوم هـوران - وكان نائبًـا للسفير«أكنـز»- يؤيد جانبًـا من روايته حين يقول: حـارب جيم (السفير) بالقطـع فى سبيل مصالـح الولايات المتحـدة... وكان حازمًا إلى ما يقرب من المواجهة... يوصل الأمور إلى قرب الحافة ، ثم لا يلبث يتراجع ساحبًا قواته (الفكرية) ومعيدًا تنظيمها ومعاودًا الكر مع المسئولين من جديد... كان أداؤه فى قوام الصخر صلابة وفى براعة النغم عذوبة وإتقانا.

هيرمان إيلتس الذى كان قد وصل لتوه إلى مصر سفيرًا لأمريكا وكان مطلعًا على كواليس هذه المحادثات؛ يقول : إن ادعاء «أكنز» حول عزوف كيسنجر عن الضغط على الشاه ما هو إلا تذييلاً ملحقًا بالقصة الأساسية، وفحواها أن «أكنز» كان يرفض أحيانًا تنفيذ تعليمات كيسنجر، ومن ثم كان يعطى الانطباع بأنه يرفض الضغط على الرياض من أجل رفع حظر البترول.... ويضيف إيلتس فى أسى: كان أكنز شخصية لامعة؛ لكنه كان خائبًا فى التفاعل البيروقراطى، مقتصرًا على الدخول فى مواجهات وإن كان الحق معه فى غالب الأحيان...ثم كانت لديه ولاءات محلية (عربية) ولا يرى إلا ذاته؛ كان أكنز يرى نفسه فى نقاء أفضل ماركات الصابون.

(السفير) هيوم هوران يقول: لا شك أن «چيم» كان رجلاً عنيدًا صلب المراس.. هذا هو الرجل الذى خاطب يومًا رؤساء أكبر ٥٠٠ شركة فى أمريكا (يسمونـهم فورتش - ٥٠٠ نسبة إلى المجلة الاقتصادية الشهيرة)، طالبًا منهم إطفاء سجائرهم؛ لأنه من عتاة غير المدخنين».

باختصار لم يكن هناك حيز خال ولا حتى فى مقعد السائق كى يسع الرجلين معًا، جيم أكنز وهنرى كيسنجر.. وقد يكون الرجلان على درجة من تقارب الشخصية على نحو لم يعترفا به أصلاً... وكانت من مشكلات المرحلة ما زاد حدة الصدام بين هذين الرجلين بكل ما اتسما به من توتر وذكاء واعتداد يبلغ حد الغرور... كان واضحًا مدى الضغط الذى يرزح تحته (السفير) أكنز؛ إذ كان يعالج مع الملك فيصل (وقتئذ) مسألة البترول وأياً كان ما حققه لم يكن كافيًا قط ولا تحقق بالسرعة المطلوبة.. وعليه مضى كل جانب يزعم أن الجانب الآخر هو الأسوأ والأضل سبيلاً.. وإذا كان الشخصان اللذان احتملهما كيسنجر وهما يراجعانه فى أمور الشرق الأوسط - سيسكو وإيلتس - ممن لديهم الإطلالة نفسها على المشكلة العربية- الإسرائيلية، فإن (السفير) أكنز «لم يكن يحترم كثيرًا طريقة كيسنجر فى التعامل العربي.... تلك القائمة على الضرب على وتَرَىْ القوة والضغط، وهو يفسر ذلك بقوله: « أذكر عندما ظهرت فى الإعلام الأمريكى تقارير عن قيام الولايات المتحدة باحتلال آبار النفط بالجزيرة العربية، أن أدليت بحديث تليفزيونى قلت فيه: كل من يتصور أن هذا أمر واجب الحدوث هو شخص مجنون أو مجرم أو عميل للاتحاد السوفيتى». حسنًا ثم ينجلى الأمر عن أن كيسنجر «شخصيًّا» كان هو المصدر وراء نشر تلك الأنباء (كانت تلك هى طريقة كيسنجر فى إثارة أعصاب العرب) ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت وعرفت الحقيقة لما كنت قد اخترت ما تفوهت به من عبارات.. فلقد أكون صفيقًا... لكن لست ممن يقدمون على الانتحار».

في الوقت نفسه؛ يشتكي جوزيف سيسكو قائلاً: إن أكنز يكرهني حتى يومنا هذا... وأنا أعرف ذلك ولكن لا أدري له سببًا.... لقد حاول إنقاذ وظيفته.. إنه ينحدر من عائلة فقيرة.... مفهوم.. وكذلك الحال معي.. وكان ينبغي أن نكون حليفين.

إن إيلتس يشهد بمحاولة سيسكو إنقاذ (وظيفة) أكنز. « قال لي سيسكو: ماذا دها أكنز؟ ألا يعرف أنه لو ظل على هذا المنوال من التصرف فلن يجد هنري (كيسنجر) بُدًا من فصله؟ ثم يتذكر إيلتس حادثة محرر الشئون الخارجية في نيويورك تايمز، س. سولز برجر الذي سأل إيلتس يومًا إن كان يمكن مساعدته في دخول السعودية.. كان سولز برجر يهوديًا وهم لا يسمحون رسميًا لليهود بالدخول... لكني قلت له: فقط ابعث رسالة إلى سفيرنا چيمس «أكنز». أنت كاتب في نيويورك تايمز وينبغي أن يسمحوا لك بالدخول.. لكن سولز برجر أبلغني إنه كان قد اتصل مع «أكنز» الذي رفض مساعدته، عندما أجريت اتصالاتي لتأمين تأشيرة لسولز برجر، تلقيت رسالة غاضبة من «أكنز» يقول فيها: إنه ما كان ينبغي لتلك التأشيرة أن تصدر على الإطلاق.

القشة التي قصمت – كما يقولون – ظهر البعير جاءت عندما عاد ديفيد روكفلر من رحلة من الجزيرة العربية وجمعته مع صديقه القديم كيسنجر محادثة خاصة قال له فيها: عليك أن تتخلص من سفيرك بالسعودية.. أولاً: هو يشوه عرض سياساتك.. وثانيًا: إنه ملكي أكثر من الملكيين.

وتصرف كيسنجر لا يلوي على شيء.. وطار «أكنز».

لكن ثمة جوادث مثل سولز برجر، فضلاً عما أدى إلى تفاقمها من بينات عديدة أدلى بها (السفير السابق) أكنز بعد تركه السلك الخارجى فى عام ١٩٧٥، أدت إلى هز الانطباع عن ذلك الرجل الرفيع الموهبة.. ليس أدل على ذلك من خطاب أعده لإلقائه فى مؤتمر للطاقة عقد فى لندن... فى سبتمبر ١٩٨١، واقترح فيه استخدام العرب سلاح البترول ضد أمريكا، إذا لم تكن سياستها مؤيدة بما فيه الكفاية للعرب... ويومها هاجم أكنز أعداء العرب من أمثال «الكتاب اليهود» جوزيف كرافت ووليام سافير اللذين قرنهما «أكنز» مع النازيين، وكان محور هجومه على كرافت وسافير أنهما يسارعان إلى شجب أى مظهر يريان فيه عداء للسامية؛ فيما ينطلقان إلى السخرية من العرب بالأسلوب نفسه الذى كان يسخر به النازى من اليهود.

بيد أن أهم أطروحة لـ «أكنز» كانت صائبة بالطبع: حين ذكر أن وسائل الإعلام الأمريكية كانت تصدر عن نفاق أعمى فيما يتعلق بالتعصب العرقى ضد العرب.. لقد تفشت الإهانات الإثنية تعريضًا بالعرب فى صحف الكاريكاتور الأمريكية لدرجة لم يعد حتى المرء يتوقف عندها.. ولك أن تتصور كيف يكون حال الأمريكى من أصل عربى حين يطالع هذه المادة فى الصحيفة بانتظام؛ لكن للمرء أن يتساءل أيضًا عما إذا كان جديرًا (بالسفير) أكنز؛ أن يقارن اليهود بالنازي.. بدلاً من استخدام مقارنة أقل التهابًا...إنه يتهم سافير وزمرته بأن لهم مهامًا مرسومة ينفذونها... فماذا عن أكنز نفسه؟ (السفير) أكنز يعرض على زائره صورة تخطيطية (إسكتش) يعتز باقتنائها للملك فيصل فى مكتبه ويقول: «السعوديون أوشكوا أن يقلوها بعيدًا؛ إذ تصوروا أنها تعكس ملامح كئيبة فطلبت منهم

الاحتفاظ بها». وهو دائم التفكير في المملكة إلى جانب ذلك فهو متصلب فى منع التدخين ومؤمن بعمق بتحديد النسل.... ويحذر من «مصير بنجلاديش» الذى يخشى أن يئول إليه حال العالم العربى فى الجزيرة وغيرها؛ إذا ما استمر السكان فى تزايد... وآلت موارد المياه إلى نضوب حيث لن يكون بالإمكان إعالة السكان فى القرن المقبل.... وعلى كل حال؛ فقد جاءت تنبؤاته عن البترول منذ الستينيات صائبة وثاقبة.. وقد يثبت الزمن من جديد أن الحق كان مع ذلك الرجل بشخصيته المعقدة التى لا ينقصها الجهامة فى بعض الأحيان.

عندما تولى جيمى كارتر منصب الرئاسة فى البيت الأبيض عام ١٩٧٧، كان أكنز قد ذهب، وتقاعد ستولفوز؛ فيما كان كيلجور فى قطر حيث لا يضر أحدًا ، وكان أثرتون ممسكًا بأعنة الأمور مساعدًا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى.. مع ذلك فمن الخطأ الافتراض بأن إدارة الشرق الأدنى انصلح حالها تمامًا بفضل مرحلة نيكسون - فورد- كيسنجر - سيسكو - أثرتون.. لقد كانت دائرة تعيش مرحلة انتقال.. وفى ذلك العام نفسه عين «سيل» سفيرًا فى سوريا ، وعين باركر سفيرًا فى لبنان... أما العراق فكان لا يزال - كما سوف تشهد لاحقًا، محطًا لأنظار مخضرمى الاختصاصين فى الشئون العربية.. ويمكن الحكم على طور الانتقال المذكور من خلال تجارب السفير صامويل لويس الذى أصبح فى عام ١٩٧٧م سفيرًا فى إسرائيل.. إن سفراء أمريكا فى إسرائيل يشكلون فصيلاً غريبًا.. فلأن العبرية لا تستخدم إلا فى بلد واحد فى العالم كله،

جرت العادة أنه ليس من الحكمة أن يصبح هذا الدبلوماسى الأمريكى أو ذاك من «المستعربين» دارسى العبريات.. لذلك ففى ما يكاد يكون جميع الحالات كان السفير فى تل أبيب عنصرًا من خارج المنطقة ولم يكن يهوديًا قط لسبب وجيه مؤداه أن من شأن سفير يهودى فى إسرائيل أن يناله أوتوماتيكيًا رذاذ من افتراض كونه منحازًا عاطفيًا لإسرائيل.. وربما لأن العلاقات الأمريكية – الإسرائيلية متطورة بعمق، ومن ثم تتسم بقدر من التشابك والتعقيد، فقد جنح السفراء الناجحون فى الاحتفاظ بموقعهم هذا لأجل طويل. مثلاً: والورث باربور الذى عينه الرئيس كيندى، ظل سفيرًا فى تل أبيب أحد عشر عامًا من بدايات الستينيات إلى أوائل السبعينيات ؛ صمويل لويس بقى فى منصبه ثمانى سنوات من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٥ وعمل تحت ظل رئاستين: كارتر وريجان و أربعة مساعدين لوزير الخارجية: أثرتون وهال سوندرز ونك فليوتس وديك ميرفى.

سام لويس ولد عام ١٩٣٠ فى هيوستن تكساس، أقرب فى رطانة نطقه إلى جيمس بيكر.. تعلم فى جامعة « ييل» واتصف ببرود الأعصاب وصواب الرأى؛ فضلاً عما اتسم به مثل هيرمان إيلتس من موهبة يحسد عليها يبدو معها كأنه يقطر حكمة، وتعقلاً، عرف لويس زميله جيم «أكنز» معظم سنين حياته، ومن أصدقائه المقربين فليوتس الذى ورث عنه شقته فى نابولى؛ عندما عاد لويس إلى واشنطن، وجاء فليوتس إلى إيطاليا، وعندما تقابل لويس فكأنك تقابل أى عنصر من سلك الدبلوماسية الأمريكية، فحقيقة أنه خدم فى إسرائيل بدلاً من العمل فى بلد عربى لا تبدو

واضحة لغير المطلع على جوهر الأمر... وعلى الرغم من أن لويس عمل مساعدًا للسفير فى أفغانستان المسلمة وخدم فى مواقع عليا ضمن هيئة أركان كيسنجر بالوفد الأمريكى لدى الأمم المتحدة؛ فإن تخصصه - إن كان متخصصًا- هو أمريكا اللاتينية مع تركيز على البرازيل.. لكن فى عام ١٩٧٧، عندما قام «أندرو يونج» - سفير كارتر الجديد بالأمم المتحدة- بتطهير البعثة الأمريكية من عناصر عهد نيكسون - فورد، عرضوا على لويس ثلاث سفارات كتعويض: الهند وجنوب إفريقيا وإسرائيل.. ويهز لويس كتفيه قائلاً: «لم تكن إسرائيل قد تبادرت إلى ذهنى لكن الأمر بدا مثيرًا بوضوح للاهتمام ولذا اخترتها».

نقطة البداية عند لويس بالنسبة إلى وزن العلاقة بين المستعربين والسفير الأمريكى فى إسرائيل.. كانت حادثة وقعت عام ١٩٦١ بفندق «ليدرا» فى نيقوسيا، قبرص... يومها كان لويس مساعدًا للسفير «شستر باولز» مبعوث الرئيس كيندى الخاص إلى إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، الذى دعا إلى اجتماع لرؤساء البعثات فى مؤتمر يعقد بقبرص؛ حيث يتاح اجتماع كل سفراء أمريكا فى الشرق الأوسط مع عناصر البنتاجون وخبراء وكالة المخابرات المركزية.. وكان على كل سفير أن يضع زملاءه فى صورة الأوضاع فى البلد الذى يعمل فيه... لكن لويس يذكر ولا ينسى أنه عندما قام «باربور»- السفير فى إسرائيل- بالحديث أمام مخضرمى المستعربين عن الأوضاع فى إسرائيل، ساد الجو ازدراء محسوس وتشكك ملموس.. لم يكن «باربور» عضوًا بالنادى وكان ذلك واضحًا.

لكن عندما رشح لويس سفيرًا بعد ذلك بستة عشر عامًا، لم يكن فى الساحة سوى قلة من المستعربين، وسرعان ما أصبحت مفاوضات السلام بين مصر وإسرائيل هى محور الأحداث.. عام ١٩٧٧ شهد زيارة السادات إلى القدس... وهكذا قدر للويس أن ينعم بتجربة أفضل من بابور مع زملائه فى إدارة الشرق الأدنى.. يقول: «فى الإدارة لم يكن ثمة ما يجعلنى أشعر بأننى مواطن من الدرجة الثانية - وبخلاف ذلك فقد كانوا «هم» مواطنين من الدرجة الثانية»، «هم» يقصد بهم ريتشارد باركر وتالكوت سيل اللذين حيل بينهما وبين عمليات كامب ديفيد؛ لأن لبنان لم يكن له دور، ولأن سوريا رفضت المشاركة.. وطبقًا لما يفيد به لويس؛ فقد كان باركر وسيل يتقلبان على جمر التهميش فيما كان إيلتس بالقاهرة ولويس نفسه فى تل أبيب يشاركان الأضواء مع أثرتون ووزير الخارجية «سايروس فانس»، وعلى الرغم من أن الأردن والسعودية لم يكن لهما دور كبير فيما يجرى؛ فإن لويس يشير إلى حسن علاقته مع فليوتس، وكان سفيرًا فى عمان ومع جون وست، ثم ريتشارد ميرفى السفيرين فى الرياض.. «بل دعانى وست لزيارته فى السعودية... ولم يكن ميرفى يمثل مشكلة على الإطلاق فى التعامل معه. وكنت أزور الأردن على فترات قادمًا من تل أبيب.

لكن عندما طلبت إلى «تالك سيل» أن يرتب لى زيارة إلى دمشق قال: إنه لا يستطيع حقيقة أن يطلب مثل هذا الإذن من السوريين.. وكان ذلك شيئًا مضحكًا».

يواصل لويس الحديث: كانت لدىّ مشكلاتى مع باركر وسيل ، وكانت ترتبط بالمسار المتوازن لبرقياتنا.. حيث يطلعان على تقاريرى عن الوجهة الإسرائيلية والأحداث؛ فيما أطلع على ما يبعثان عن لبنان وسوريا.. وكنا ندخل فى مناقشات حامية تصل إلى حد الوقاحة أحيانًا.. بدأ باركر متعاطفًا بعمق مع مأساة لبنان معاديًا للتحالف الإسرائيلى - المارونى الذى كان يقاتل هناك، سيل كان يرسل برقيات كنت أراها تزداد التهابًا بالحمى؛ حول أن المنطقة موشكة على الانفجار وأن العرب سوف يحرقون سفاراتنا إذا لم نفعل هذا أو ذاك... لكن (السفير) سيل له ذكريات مخالفة عن برقياته تلك التى كان يبعثها: كنت كمن يترافع فى قضية؛ ولذلك فقد عرضت الأمور على حقيقتها الواقعة... ولا بد من أن «سيل» كان وقتها رجلاً وحيدًا فى دمشق فى أعقاب كامب ديفيد.. فلم يكن لويس وحده هو الذى ينتقد برقياته من ميزة وجودة فى تل أبيب.. بل إن «فرانسيس فوكوياما» وهو من التعيينات السياسية للرئيس ريجان فى هيئة تخطيط السياسات فى واشنطن؛ وجد أن كتابات «سيل» كانت مبالغة فى تحيزها لجانب السوريين..

لا عجب إذن أن طفح الكيل بالسفير سيل، فدعا الصحافة فى أغسطس ١٩٨١ إلى انتقاد عملية كامب ديفيد للسلام.. ولم تكن نظرة سيل إلى كامب ديفيد يعوزها الحكمة.. لقد شعر ببساطة بأن عبارة «كامب ديفيد» كانت تنطوى على أثر سيكولوجى سلبى فى المنطقة، ومن ثم ينبغى الامتناع عن استخدامها بالنسبة إلى أى جهود للسلام تُبذل فى المستقبل... لقد كان المنظور الذى يطل به من دمشق أو بيروت مخالفًا لمنظور تل أبيب أو واشنطن.

هكذا توالت الأحداث مثل رواية محفوفة بالحذر حول الكيفية التى تغير بها التخصص العروبي، وكيف أن الساحة شهدت اندفاع خصائص جديدة إلى مقدمة المسرح... ومنها مثلاً القدرة على التعامل الفعال مع الحقائق الداخلية فى أمريكا نفسها... كل هذا جعل من مخضرمى حركة الاستعراب، على طريقة الجامعة الأمريكية فى بيروت، غير ملائمين للعمل فى هذا المجال فى مستقبل الأيام.

الفصل التاسع

صدمة الحقيقة

تحولت بيروت من عصرها الذهبى فى أول القرن؛ إذ كانت موقعًا يجمع بين النبع والخضرة وطابع الريف كى تصبح مدينة شرقى المتوسط التى تنتفض صخبًا وتتلألأ لمعانًا وتألقًا... هنالك احتوت بيروت اثنتين من جماعات المستعربين الأمركيين، (جماعة الثقافة والبر) التى تدور حول محور الجامعة الأمريكية، ثم جماعة السفارة التى تعيش على سياسات الواقع... ولقد كان «تيرى بروثرو» شاهدًا على هذا التحول الكبير. تيرى بروثرو عمل أستاذًا لعلم النفس معظم مراحل حياته وتميز بقدرة مدهشة على أن يطل على نفسه وعلى أصدقاء عمره وزملائه القدامى؛ من مسافة مجردة من العواطف وتستند إلى الموضوعية، وهو يستخدم أسلوبه المعهود من تواضع أهل الجنوب الأمريكى؛ إذ يحكى آخر ما آلت إليه الجامعة الأمريكية فى بيروت.

«أنا من أبناء (ولاية) لويزيانا التى تعد- كما قد تعرف- النظير الغربى للدول العربية؛ من حيث مطبخها المتنوع الأصول ومن حيث ما تشهده من أحداث واضطرابات.. بعد الحرب العالمية الثانية قمت بالتدريس فى جامعة

ولاية لويزيانا، وربما لأننى أنحدر من أوساط تنتمى إلى حزام البروتستانتية (فى أمريكا)؛ فقد وجدتنى واحدًا من خصوم التفرقة العنصرية.. من النوع الليبرالى والمثالى أيضًا.. وهذا هو الذى دفعنى إلى أن أذهب إلى لبنان وإلى الجامعة الأمريكية فى بيروت وصلت، إلى هناك عام ١٩٥١، وبقيت فى هيئة تدريس الجامعة حتى عام ١٩٨٤، وعندما وفدت إليها كان (بايارد دودج) قد غادرها لتوه، وكان ستيف بنروز قد شرع فى الاستقرار رئيسًا للجامعة.. ثم يشرح «بروثرو» كيف أن سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية شهدت جالية الجامعة الأمريكية فى بيروت وهى تدرك ببطء أى وحش ضار كان يجر الخطى نحو بيت لحم»، وهو لا يقصد بذلك فقط قيام دولة يهودية فوق جزء من فلسطين ؛ بل يقصد مجمل الظاهرة المؤسية للقومية العربية إذ جاءت لتوحد نفسها مع قضية فلسطين، يقول «بروثرو»: جاء عام ١٩٤٨ ليشهد هيئة التدريس بالجامعة الأمريكية فى بيروت.. وقد حفلت بمدرسين فلسطينيين كانوا قد هربوا من ديارهم عشية إنشاء إسرائيل.. وفى الخمسينيات أصبحت الجامعة مكانًا يقوم فيه الطلاب العرب بتجريب كل ما يعن لهم من ردود الفعل السياسية إزاء التحدى الذى يمثله اليهود فى فلسطين ومع ذلك فقد ظل المناخ السياسى ساكنًا أو كان علمانيًا: (دون صراع طائفى) بمعنى من المعانى على أقل تقدير، حيث يذكر «بروثرو» أن رئيس جمعية علم النفس كان فلسطينيًا راديكاليًا، وكان نائب رئيسها شيعيًا؛ فيما كان أمين الصندوق يهوديًا.

سادت مثالية الليبرالية جامعة بيروت الأمريكية فى عقد الخمسينيات.. شهدت فى هذا المشرق السنى من العالم العربى هيئة تدريسية مخلصة

تعكف على تعليم الطلاب الأقل حظًا من سواهم، فإذا تخرجوا فهم يتولون مواقع القيادة فى دولهم التى جرى انتزاعها انتزاعًا من بين براثن نظام استعمارى أوروبى عجوز لم يكن لأساتذتهم يد فيما ارتكبه من أفاعيل.. وبفضل تعدد الدول العربية الجديدة؛ فإن إجتماع ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ كان له الفخر فى أن يشمل عددًا من خريجى الجامعة الأمريكية فى بيروت بأكثر من أى جامعة أخرى.

وفى مقال يستعيد تلك الأيام الحافلة بقلم «مالكوم هوبر كير»؛ طالب الدراسات العليا الذى أصبح أستاذًا ثم رئيسًا للجامعة، يذكر كيف كان هو وسواه من الأساتذة يتعاطفون صراحة مع الطموحات السياسية لأصدقائهم العرب، ويقول: «كانت العلاقات بين العرب والغرب هى الموضوع الذى ملك علينا حياتنا وفكرنا، ولم يكن ليتألف فقط من علاقاتنا الشخصية بالتحديد؛ بقدر ما انطوى على وعينا بفكر وأعمال شخصيات مألوفة ومستقرة فى الأذهان، أبطال عاشوا منذ مئات السنين أو(أبطال معاصرون) أمثال فيصل الأول فى العراق أو جمال عبد الناصر؛ بل كان لنا كذلك من نعتبرهم أشرارًا.. وهنا يعدد «كير» بينهم ديفيد بن جوريون مؤسس إسرائيل فضلاً عن المستعمرين البريطانيين، ثم يقول: « وكانت لنا أيضًا نصوص الأسفار التى نضعها موضع الإجلال ومنها مثلاً كتاب (يقظة العرب) تأليف: جورج أنطونيوس، ويكتب«كير» أيضًا عن مشكلات علاقات العرب مع الغرب، ومن بينها كما يقول: «اغتصاب فلسطين على يد الصهاينة».

كتب «كير» مقاله تكريمًا لذكرى عبد الحميد شرف رئيس وزراء الأردن الراحل؛ ومضى فى سطوره يدعو إلى الليبرالية الغربية والقومية العربية والنزعة العالمية التى توحد بين المسيحية والإسلام.. وليفند ما يقال فى جوهر الفكرة التى تدور حول تفوق الغرب وسيادته المعنوية على العرب.. تخرج «كير» فى جامعة «برنستون»، وكان قد ولد داخل حرم الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٣١، وفوق حرمها أيضًا لقى مصرعه عام ١٩٨٤.. سافر«كير» فى كل أنحاء العالم العربي.. لكنه جريًا على التقليد الذى سبق إليه «بايارد دودج» ، فضل ألا يزور إسرائيل إلا من حيث كونها منطلقًا لزيارة الضفة الغربية.... وقد أسرَّ يومًا إلى زميل له بأن زياراته إلى إسرائيل كفيلة بأن تصمه بسوء فى العالم العربى.

على أن قوام الحياة العلمية للرجل أمضاه فى جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجلوس؛ حيث استحدث مشاريع بحوث مشتركة بين العلماء العرب والأمريكيين... وصل الأمر إلى أن أطلقت بعض الدوائر المعنية بالشرق الأوسط تسمية بالإنجليزية تصف مركز ودراسات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا تحت قيادة كير بأنه « لا فلوب» وترجمتها : جبهة لوس أنجلوس لتحرير فلسطين!

«مالكولم كير» كان ابنًا بالروح والجسد للجامعة الأمريكية فى بيروت.. ولقد جاءت الخمسينيات على حد ما تقول إليزابيث وأرنوك فارينا وروبرت فارينا فى كتابهما: (العالم العربي... تجارب شخصية): عقد شهد جيلاً من علماء الاجتماع الأمريكيين تحدوهم اهتمامات شرق

أوسطية؛ ويدفعهم شغف ينتفض حماسًا نحو ما يكاد يكون كل شيء فى لبنان؛ إذ كان يشكل بالنسبة إليهم دليلاً على إمكانية أن يتعايش الإسلام والمسيحية فى سلم ووئام فى ظل مجتمع حر يأخذ بالرأسمالية... ويقوم على التعددية.. هم نفس أساتذة العلوم الاجتماعية الأمريكان الذين سيتميز الكثير منهم شغفًا وحماسًا... مثل هذه النوعية ممن أصبحوا مبشرين علمانيين سبق وأن وصفهم بدقة (الرحالة الإنجليزي) ريتشارد بيرتون منذ قرن مضى من الزمن عندما تحدث عن الأوهام التى يمكن أن يعيش فيها حتى الأمناء من الرجال... وعندما قال: إن ما لا يمكن أن تدركه هذه النوعيات من أهل التبشير هو أن «العقيدة تعبير فكرى عن هذا الجنس من البشر أو ذاك، ولا يمكن أن تتقدم بغير تطوير فكرى بين صفوف معتنقيها.

فإذا عدنا إلى «تيرى بروثرو» فسوف نجده يقول: أذكر حوارًا دار حول قبول «الجامعة الأمريكية» أموالاً من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية «ايدا».. وقد أدى هذا إلى توتر بين صفوف هيئة التدريس الأمريكية التى لم يكن تريد للجامعة أن تتساهل فى هذا الخصوص.. كانت هيئة التدريس فى بيروت تريد التعليم والديمقراطية والليبرالية وتريد طرح وجهة النظر الغربية وما إلى ذلك... ولم يكن الأمر فى هذا مريحًا فى ظل السياسات..«ومن ثم الأموال» التابعة للحكومة الأمريكية.

بيد أن الأموال جاءت- فى كل حال- لا من وكالة «إيد» فقط ؛ بل ومن مؤسسة «فورد» أيضًا ؛ مما أدى إلى تعزيز مكانة جامعة بيروت الأمريكية وكأنها «عاهلة الشرق» القادرة على تمويل منح دراسية للطلاب فى كل

أنحاء العالم العربى - الإسلامى من المغرب حتى أفغانستان، ثم جاءت الستينيات لتجد نفسك بفضل هيئة السلام «الأمريكية» بإزاء دفق جديد من المثاليين الليبراليين داخل أروقة الجامعة.. وكانت ذلك طبقًا لتقاليد الجامعة فترة مجيدة.

لكن أيام مجد الجامعة انتهت فى يونيو ١٩٦٧م عندما رد الجنود الإسرائيليون على مناورة عبد الناصر فاستولوا على سيناء ومرتفعات الجولان وما تبقى من فلسطين وهو ما أفضى إلى إجلاء جماعى ومؤقت للأمريكيين من بيروت. وكما يحكى «بروثرو» وآخرون: فقد جاءت حرب الأيام الستة لتشكل الأولى من بين مراحل ثلاث لصاروخ ثلاثى المراحل أدى إلى«ردكلة» هيئة تدريس الجامعة الأمريكية ونجم عنه انشقاقات محددة بين صفوف الجالية الأمريكية فى لبنان.

وكانت المرحلة الثانية: هى فشل حركة أيلول الأسود التى أحبطها الأردن بمساعدة من إسرائيل ونيكسون وكينسجر ؛ مما أرسل موجات جديدة من الفلسطينيين إلى بيروت الغربية حيث تقع الجامعة الأمريكية. أما المرحلة الثالثة التى كانت متوازية- بمعنى من المعانى- مع المرحلتين السابقتين؛ فقد تجسدت فى ردود فعل الجامعة الأمريكية فى بيروت إزاء حرب فيتنام.

يقول «بروثرو»: إن هذه الأحداث وضعت العملية السياسية بالجامعة الأمريكيـة فى صدر الاهتمامـات. كل شيء أصبح أكثـر مبالغًا فى حجمه. فى جامعة أمريكا نفسها فى تلك الفترة كانت هيئة التدريس معادية للرئيس نيكسون ومعادية للحرب ، وعمدت إلى تفسير إجراءات الحكومة الأمريكية بالشرق الأوسط على ضوء أخطائها فى جنوب شرقى آسيا وكانوا ينظرون

إلــى إسرائيـل بوصفهــا ذراع الإمبرياليــة الأمريكيــة فى المنطقــة تمامًا ؛ كالنظـرة إلى حكومة فيتنــام الجنوبية. وكانت هيئــة التدريس تلمح إلى أن واشنطن لم تعمل بما فيه الكفاية على محاولة فهم العرب؛ بل إن «بروثرو» يذكـر إنشاء جماعة مؤيدة للعرب ومؤيدة للفلسطينيين؛ كان معظم أفرادها مـن أهـل الجامعة الأمريكية فــى بيروت وأطلـق عليها اســم «الأمريكيون، مـن أجل العدالة فى الشرق الأوســط»، ومما عزز من جو الراديكالية أيضًا تنظيم الاحتجاجات على زيادة المصروفات الجامعية.

فى أواخر الستينيات كان كل ما تسمعه فى حرم الجامعة هو «فتح»: نحن سنحرر أرضنا كما فعل الفيتناميون. هذا ما يقوله مراقب كان موجودًا فى الساحة آنذاك. وهو يتذكر أيضًا أنه قال لجماعة من الطلاب الفلسطينيين إنهم سيخدمون قضيتهم أفضل بالدراسة لا بالإضراب، فإذا بطالب فلسطينى يبادر برد كالسهم هاتفًا: لا تحتكم إلى المنطق معي... وكان بهذا يرفض- فى واقع الأمر- قرنًا بأكمله من التفكير الغربى حاول المبشرون زرعه فى نفوس أهل المنطقة.

مراقب آخر يقول: هيئة التدريس بمن فيها من أساتذة أمريكيين كانوا مؤيدين للفلسطينيين؛ لأنهم كانوا مؤيدين للقومية العربية، وكان القوميون العرب قد جعلوا من فلسطين قضيتهم الأولى. على أن «بروثرو» لا يلبث أن يقول: لكن إدارة الجامعة الأمريكية فى بيروت كانت فى صف نيكسون وفى صف الحكومة؛ ذلك لأن الإدارة على خلاف هيئة التدريس هى الأدرى- على التحقيق - بمن يدفع كثيرًا من الفواتير.

فـى صــف الحكومة الأمريكيـة أيضًــا؛ كان المستعربـون من جماعة السفـارة الأمريكيـة فـى بيـروت، يقـول الدبلوماســى المستعـرب هيـوم هوران:« إن الجامعة الأمريكية كانت تجسد رؤية الرئيس ويلسون لأمريكا بكل نقائها، ولم يكن بمقدور السفارة أن تستبعد هذا الموقف بحكم واجبها فى التعامل مع عالم الواقع».

* * *

لكن لا ينبغى المبالغة فى عرض هذا الانقسام الثلاثى فيما بين الأساتذة أو الإدارة أو السفارة. إن رؤية هذه الظاهرة من أى منظور عميق- باستثناء رؤية جماعة المستعربين المؤيدين للعرب- كفيلة بأن تفيد بأن الأمر إنما كان ينطوى على ثلاثة جوانب لعقلية واحدة فى الأساس. إن «السفير» بيل ستولفوز وزوجته جانيت يعمدان فى صراحتيهما الجليلة إلى توضيح الوضع فى تعليقيهما بأن الجالية الأمريكية فى لبنان كانت - بلا استثناء تقريبًا - معارضة نفسيًا «لقيام دولة إسرائيل»؛ لكن القلة القليلة هى التى عبرت هذا الخط إلى حيث معاداة السامية.

إن القائمين على إدارة الجامعة الأمريكية كانوا ممزقين بالذات بفعل سياسات حرب فيتنام وحرب الأيام الستة، وهم الذين جلبوا ذلك على أنفسهم، عندما شجعوا علانية تيار القومية العربية والتمسوا جموعًا من الطلاب لا تأتى من منطقة الشام الكبرى فحسب، ولكن من كل أرجاء العالم العربى بما جعل الجامعة- من حيث لا يقصدون- ساحة لتفاعل السياسة

العربية، ما تحول الأمر معه إلى مزيد من الإحباط؛ بل ومزيد من سفك الدماء بأكثر مما تخيله يومًا الآباء المبشرون الذين أنشأوا الجامعة.(*)

ويعترف مسئول بالخارجية الأمريكية بأن جالية الجامعة الأمريكية في بيروت؛ كانت على مودة شديدة مع الفلسطينيين لدرجة أنه عند اندلاع الحرب الأهلية كان معظم مصادرنا من الفلسطينيين؛ فقد كان هؤلاء هم الذين كنا نتعامل معهم في الغالب الأعم.

أما التدهور في الحياة الجامعية بعد عام ١٩٧٥؛ فقد جاء بعبارات «بروثرو» جسيمًا يحطم القلب، فما من عناصر راديكالية في جامعات أمريكا ذاتها صدمتها الحقيقة الواقعة على نحو ما حدث لعناصر الجامعة الأمريكية في بيروت.. الحرب الأهلية جعلت شكاوى الأساتذة أو تذمرات الطلاب في السبعينيات تبدو مضحكة، وفي نهاية المطاف بدأت الحرب تجرجر أذيالها ويطول أمدها وبدأ أخذ الرهائن من صفوف الغربيين واغتيل «مالكولم» كير شخصيًا وبعدها يقول «بروثرو»: لم تعد ثمة سياسة بين الأمريكيين في حرم الجامعة الأمريكية في بيروت، كان الأمر الأهم هو مجرد البقاء على قيد الحياة.

جرايم بانر مان، دارس سابق وعضو في هيئة التدريس في الجامعة الأمريكية في بيروت، يصف مشكلة الجامعة على النحو التالي: «كان

(*) بالمقارنة ظلت الجامعة الأمريكية بالقاهرة تقيد عدد الطلاب المقبولين من خارج مصر، بما جعل معظم طلابها مصريين وجنبها التعاطي مع السياسة العربية؛ مما حفظ لها المناخ الجامعي المعتاد.

الجو السائد بالجامعة الأمريكية فى بيروت ديناميًا وغربيًا، كانت المعارك الأيديولوجية تشتعل حول قضايا الاشتراكية والشيوعية والليبرالية وما إليها، كانت تلك الحوارات عميقة ودقيقة، ولم يكن ثمة شيء سطحى حول المناخ الفكرى السائد، لكن المشكلة تمثلت فى أن المناخ «لم يكن لبنانيًا» فقد كان ثمة قلة من الموارنة وقليل من الشيعة، على أن الجامعة الأمريكية فى بيروت أصبح يسيطر عليها عناصر ثلاثة: السنة والروم الأرثوذكس والفلسطينيون».

ومن الناحية السياسية، أصبحت الجامعة الأمريكية تحت سيطرة تحالف من القوميين العرب؛ لأن الروم الأرثوذكس - شأنهم شأن الجماعات المسيحية الأخرى فى الشرق الأوسط؛ مع استثناء ملحوظ هو الموارنة - كانوا منذ الحرب العالمية الثانية من بين أكثر العناصر القومية العربية تشددًا، جورج أنطونيوس، مؤلف كتاب «اليقظة العربية»، كان مسيحيًا عربيًا وكذلك كان ميشيل عفلق، أحد مؤسسى البعث السوري، وأيضًا الزعيمان الراديكاليان الفلسطينيان جورج حبش ونايف حواتمة، كانت القومية العربية بحكم تركيزها على بناء الأمة العربية «الواحدة» تشكل بديلاً علمانيًا (لا يميز على أساس الدين أو المذهب) بالمقارنة إلى الأصولية الإسلامية التى تهدد غير المسلمين. وعلى ذلك جنح المسيحيون العرب إلى تأييد حركة القومية العربية بحماس خاص كى يحموا أنفسهم من سياسات الاتجاه الإسلامى ويؤسسوا مراكز ثقة لأنفسهم فى إطار المحيط العربى الأوسع. وكان أنجع السبل بالنسبة إلى المسيحى كى يدلل لجيرانه المسلمين على أنه عربى بحق، هو اتخاذه

موقفًا متشددًا للغاية إزاء الصهيونية (!) وثمة قوى أخرى كانت تدفع الكنائس المشرقية تجاه معاداة الصهيونية؛ وتمثلت فى العناصر التقليدية المعادية للصهيونية للكهنة من الروم الأرثوذكس ثم المنافسة التجارية التى سادت بين هذه العناصر وبين اليهود فى الشرق الأوسط قبيل اشتعال الحرب العالمية الثانية، كان عداء المسيحيين العرب تجاه اليهود الإسرائيليين قد أشعل أواره المطران هيلاريون كابوت جى، وهو كاهن بالقدس أودعه الإسرائيليون السجن؛ لأنه استخدم منصبه فى تهريب المتفجرات إلى الإرهابيين(*) الفلسطينيين.

وكانت القومية العربية، فى إطار تعريفها كمعادية للصهيونية، قد أصبحت مع مقتبل السبعينيات؛ قضية لا تنكر من قضايا الجامعة الأمريكية فى بيروت، على الرغم من البيانات الرسمية التى كانت تصدر عن إدارة الجامعة ومجلس أمنائها للتبرؤ من هذه الأمور على أساس أنهم لايتخذون مواقف سياسية. الحرب الأهلية اللبنانية التى أدت إلى تفجير التوترات بين الموارنة والمسلمين السنة؛ جاءت مثل ديناميت اشتعل فى مخزن غلال جاف، ومن ثم كانت أشبه بطوق نجاة للمواقف السياسية لجالية الجامعة الأمريكية التبشيرية، خاصة بعد الاجتياح الإسرائيلى فى لبنان فى ٦ يونيو ١٩٨٢ الذى نجم عن دعم الموارنة.

(*) المقصود بالطبع عناصر المقاومة الفلسطينية «المترجم».

جاء الاجتياح الإسرائيلى للبنان ١٩٨٢، ليزيد من تفسخ لبنان وتعريض سكانه المسلمين للخطر، ثم نجمت عنه نتائج غير مقصودة، ومن المفارقات التى تصل حد الرمز أيضًا، أن أول أمريكى أصبح رهينة فى لبنان لم يكن سوى « ديفيد ستيوارت دودج» نجل «بايارد دودج» والحفيد المنتمى إلى الجد الأعلى دانييل بليس (مؤسس الجامعة الأمريكية) والمولود فى بيروت عام ١٩٣٨؛ حيث تعلم هناك فى المدرسة الأمريكية وبعدها فى أكاديمية ديرفيلد وجامعة برنستون بأمريكا، وقد أمضى سبعًا وعشرين سنة يعمل فى أرامكوا وشركة خطوط التابلاين العربية، وكان وقت اختطافه قائمًا يعمل رئيس الجامعة الأمريكية؛ وهو الذى كان أيضًا يعرب عن اعتزازه بأن «الجامعة الأمريكية فى بيروت هى التى هيأت مناخًا شهد فى ظله مولد القومية العربية وتطورها».

* * *

إن «دودج» يرسم خطوطًا متوازية بين اختطافه واغتيال «مالكوم كير» عام ١٩٨٤، يقول: «إن الذين اختطفونى والذين قتلوا كير كانوا إيرانيين ولكن يحملون أسلحة لبنانية»، ويقول: إن الإيرانيين كانوا فى لبنان؛ لأن الإسرائيليين كانوا أيضًا هناك، ويضيف قوله: «لقد اختطفونى فى يوليو ١٩٨٢؛ فور أن بسط الإسرائيليون سيطرتهم على بيروت».

«وقد أطلق سراحى بعد عام، فى يوليو ١٩٨٣؛ حيث تمت مبادلتى برهائن من الشيعة، كان حزب الكتائب المارونى (المؤيد لإسرائيل) يحتجزهم لديه».

مخطط اختطاف دودج شاركت فيه عناصر سورية وإيرانية، وقد حدث أن تفاوض السفير الأمريكى فى سوريا «روبرت باجانيللى» ومعاونوه بمن فيهم «أبريل غلاسبى»- (السفيرة فيما بعد فى بغداد) و«ويليام روخ» صنيعة «هيرمان إيلتس» من أجل الإفراج عن «دودج» الذى قال إن «أبريل وبوب كانا أول من رأيت بعد أن نلت حريتى».

«روبرت (بوب) باجانيللى» حل محل «تالكوت سيل» سفيرًا لدى سوريا؛ بعد أن ترك «سيل» منصبه بسبب عملية كامب ديفيد. وكان السفير الجديد بارزًا بين الدبلوماسيين الأمريكيين بوصفه أبعدهم عن الشكليات وعن تقاليد الدبلوماسية أيضًا. يقول (السفير) فليوتس ضاحكًا: أغضب باجانيللى الجميع فيما عدا أصدقائه المقربين». ويقول السفير هوران:« ولكم أحسست بأننى متهافت بالمقارنة مع بوب»، ثم يتذكر «هوران»: كيف أهان باجانيللى (الدكتور) زبجنيو بريجنسكى بسبب تعيين جون وست؛ وقد كان حاكمًا لولاية ساوث كارولينا سفيرًا بالسعودية، حيث كان يرى فى وست هذا أشبه بكولونيل بغير ضمير من كنتاكي.«باجانيللى» أهان أيضًا (وزير خارجيته) جورج شولتز حول اتفاق ١٩٨٣؛ بين إسرائيل ولبنان؛ حيث تنبأ بحق أن السوريين سوف يرفضونه، ويومها قيل بأن باجانيللى صاح حانقًا فى شولتز: « أرجو أن تعرف أن الاتفاق سوف ينفجر مرسلاً شظاياه فى وجهك». وهنا يقول فليوتس وقد كان مساعدًا لوزير الخارجية وقتها: إن شولتز كان على استعداد لفصله من الخدمة.. لكنى أخبرت شولتز أن «ابن الفاعلة هذا هو بالضبط من نريده للتعامل مع البعثيين فى دمشق». وكان فليوتس

على حق؛ فقد التزم باجانيللى جانب الخشونة الشديدة مع السوريين، وكان باجانيللى - شأن جيمس أكنز - من عتاة الرافضين للتدخين ولم يكن ليسمح لأى مسئول سورى بالتدخين فى مكتبه، والمهم أنه تم الإفراج عن «دودج» بعد فترة قصيرة وارتاح شولتز؛ لأنه لم يطرد باجانيللى من الوظيفة.

لم ينل أى من الرهائن الأمريكيين ولا حتى «تيدى أندرسون» ما لقيه «ديفيد دودج» من اهتمام تمازجه المحبة فى إدارة الشرق الأدنى بالخارجية والسبب ببساطة أن «دودج» كان يمثل التجسيد الحى لارستقراطية الاستعراب الأمريكي، أمضى جانبًا من اعتقاله كرهينة ثم نشر بين أصدقائه ما يفيد بأنه تجربة يفضل عدم الخوض فيها لا بالسؤال ولا بالجواب، لهذا فبدلاً من سؤال «دودج» عن تفاصيل سجنه، سأله زائره عما عساه تعلم سياسيًا من واقع التجربة وعما إذا كان قد أثرت فى آرائه عن الشرق الأوسط بأى حال من الأحوال.

سرح «دودج» لحظة ثم قال: «لأننى كنت مأخوذًا كرهينة فلقد شعرت بأنه ينبغى لنا أن نتذرع بمزيد من الإنصاف، لقد تغاضينا عن غزو إسرائيل لبنان ويرجع اختطافى فيما يرجع إلى تصرفات إسرائيل ودعم أمريكا لإسرائيل، أجل إننى أشعر أكثر من أى وقت مضى وبمزيد من الاقتناع بأن سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط ليست منصفة على النحو الكافي».
وما كان«دودج» بطبيعة الحال ينفرد دون سواه من الرهائن بهذه الآراء. والواقع أن تربيته الرفيعة جعلته أكثر توخيًا للحذر فى تفكيره بأكثر

مما كان عليه المغتربون الأمريكان الآخرون الذين وقعوا فى قبضة الراديكاليين المسلمين.

*   *   *

«ديفيد أوين لونج» كان والده واعظًا وكان هو مستعربًا بالخارجية الأمريكية، حيث ولد فى واشنطن بولاية جورجيا فى عام ١٩٣٧، وتعلم فى كلية «دافيدسون» فى نورث كارولينا، وهى التى تخرج فيها «دين راسك» وزير الخارجية الأسبق، أصبح «لونج» مفتونًا بكل ما هو عربى؛ عندما كان يخدم معاونًا لهيرمان إيلتس فى العربية السعودية؛ حيث كان عضوًا فى شلة الدبلوماسيين فى جدة فى أواخر الستينيات تلك التى كانت تضم «كلوفيريوس» و«إرنست لاثام»؛ لكن لونج تولد لديه التشكك الصحى إزاء جالية التبشير الأمريكية فى لبنان إذ كان يعمل فى وحدة تخطيط السياسات ومكافحة الإرهاب فى وزارة الخارجية فى أوائل الثمانينيات، وكان الأمر هنا يتعلق بواحد من الرهائن اسمه «بن وير» المدرس بكلية الشرق الأدنى اللاهوتية فى بيروت وقد اختطف فى ٨ أبريل ١٩٨٤.

وعلى الرغم من اختلاف المذهب المشيخى الذى كان يعتنقه «وير» وزوجته «كارول» عن مذهب كلية الشرق الأدنى اللاهوتية التى كانت تعد بمثابة مجمع لطوائف البروتستانت المختلفة، فإن الكلية كانت تتولى تدريب رجال ونساء للانخراط فى سلك الخدمة بالطائفية البروتستانتية فى العالم العربي. وكان «وير» وزوجته يمثلان حد التطرف بالنسبة إلى

تطـور ذرية المبشرين الأمريـكان ومغامرة التبشير فى لبنـان، أما جامعة بيـروت الأمريكية؛ فكانت شيئًا مختلفًا عن كليته تلك المتواضعة؛ إذ كانت الجامعـة تربطها صــلات مع كليات القمة فــى أمريكا، فضــلاً عن علاقاتها السياسيـة والأمـوال التــى تتلقاها من وكالـة المعونة «إيد» ومــن مؤسسة فـورد؛ ما جعل الجامعة المذكورة واحـدة من مؤسسات الساحل الشرقى فى الولايات المتحدة أى قلب الفكر الأمريكى النابض.

أمــا الكلية الصغيرة؛ فقد كانت تفتقر إلى مكانة الجامعة الأمريكية ومن ثــم كانت واقعة تمامًا تحت رحمة البيئة المحليــة ولا كانت تربطها علاقات مع الحكومـة الأمريكيــة أو مع مؤسســات معروفة دوليًا ؛ ما جعـل كلية اللاهوت المذكورة، ومن ثم أساتذتها مثل «آل وير» يعتمدون تمامًا على إدارة الحكومات العربية التى تأتى إلى السلطة فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولك أن تتوقــع أن يكون «وير» وزوجته مندمجين فــى إطار الثقافة الإسلامية العربية المحلية بأكثر مما كان حتى أهل الجامعة الأمريكية فى بيروت.

فــى هـذا المقــام يشكو«ديفيد لونــج» قائــلاً: كان آل ويــر يعاملوننى ويعاملــون وزارة الخارجيــة وكأننا أعداء، على الرغـم من أننا كنا بوصفنا حكومتهـم نحاول المساعدة على إطلاق سراح «ويــر»، كانت «كارول وير» وشـعب كنيستها قد تولد لديهم شعور«أننا أنبل منكم وأنقى» – إزاء حكومة الولايـات المتحدة بل ولم يرغبوا فــى أن تحقق وكالة المخابرات المركزية معه بعد إطلاق سراحه وعلى الرغم من أن مثل هذا الاستطلاع المعلوماتى كان كفيلاً بمساعدة رهائن آخرين، بالنسبة إليهم لم يكن العدو هو المختطف بـل كان العدو هو المخابرات المركزية والإسرائيليين، ويطلق «لونج» على

أمثــال «ويــر وزوجته» وصفًا يقــول: إن هذا الطراز« نسيــج وحدة من بين المغتربيــن» طراز يعرف العالم العربى حــق المعرفة؛ لكنه كان يتصف فى الوقت نفسه بقدر لا يصدق من السذاجة السياسية.

* * *

وبعد إطلاق سراح «بن»؛ كتب مع«كارول» كتابًا نشرته مطبعة صغيرة فى فيلادلفيا بعنوان «الرهينة المقيدة رهينة حرة»، وهما يصوران نفسيهما على أنهما زوجان يشعران بالراحة فى العالم العربى أكثر من أمريكا ذاتها من النواحى السياسية والروحية والأخلاقية، بل إن قراءة هذا الكتاب تجعل من الادعاء بازدواجية الولاء الذى يتهم به مؤيدو إسرائيل من بين يهود أمريكا أمرًا هينًا لحد السخرية بالمقارنة مع ما يقول به المؤيدون العرب فى أمريكا أيضًا.

* * *

لقد عاش «بن وير» فى لبنان إحدى وثلاثين سنة قبل اقتياده أسيرًا وكانت صغرى بناته على وشك أن تقبل وظيفة للتدريس فى مصر، فيما كانت أكبرهن تعمل بالسعودية بعد أن سبق لها العمل فى بيروت.«كارول وير» من جهتها تعترف بأنه لا يكاد تربطها أى علاقات بالسفارة «الأمريكية» وأنها لم تكن حتى تعرف اسم السفير «كان اسمه ريجنالد بارثولوميوو

الذى، لم يكن من المستعربين». وإذا كانت ضآلة التواصل مع السفارة أمرًا شائعًا للغاية بين الأمريكيين فى الخارج، فإن السفير - هو على الأقل - أكثر الأسماء شيوعًا فى الدوائر الأمريكية المغتربة، وتغيير السفراء عادة ما يصحبه كلام وحديث، مما يدل على سمة غير مألوفة من التباعد عندما يقال. إن هناك من لا يعرف اسم السفير، وعندما قال أحد مسئولى السفارة إنهم لا يستطيعون حتى حماية موظفيها وأن المطلوب من كل أمريكى لا يعد وجوده لازمًا مغادرة لبنان، وكان ذلك بعد اختطاف «دودج» ومقتل «كير»، ساعتها ردت السيدة «وير» إن المشكلة ليست فى المختطفين؛ بل إن المشكلة هى فى «سياستنا الخارجية».

ولهذا السبب، فإنها لم تشأ - كما تعترف - أن تفاتح أحدًا فى الأمر فى دائرة مكافحة الإرهاب بالخارجية الأمريكية؛ حيث ذكرت أن كلاً من «الزعيم الأمريكى الأسود» جيسى جاكسون والرئيس السورى حافظ الأسد هما اللذان يتحليان بنهج أكثر عقلنة ورشدًا فى معالجة أمور الشرق الأوسط بأكثر من الحكومة الأمريكية. ثم وصلت رحلتها العقائدية إلى ذروتها فى مارس ١٩٨٥ خلال لقاء سوريا لى مع وزير الخارجية شولتز فى واشنطن؛ عندما وجه شولتز الانتقاد إلى خاطفى زوجها بينما بدت هى ومن معها وكأنهم يدافعون عن هؤلاء المختطفين على أساس أنهم قوم مخلصون فيما يعتقدون أن لهم مظالم أسفرت عن مغاضبة مشروعة تجاه الولايات المتحدة، ومن واقع وصف السيدة «وير» لهذا الاجتماع يتضح أن ثمة انفصاما كاملاً بين الرؤية التبشيرية التى جاءت بها من بيروت والرؤية الواقعية التى كانت تعتمدها وزارة الخارجية.

* * *

مـن منظـور السيدة «ويـر» وكذلـك (البروفيسـور) ديفيـد دودج ثم (السفيـر) «تالكـوت سيـل» الذى ولد بـدوره فى بيروت، وعنـد تقاعده فى عـام ١٩٨١؛ أظهر تبرمه الملحـوظ إزاء سياسات بلـده باعتبار أن إغضاء أمريـكا عـن تصرفـات إسرائيل يمثـل جوهر المأسـاة الكاملة فـى لبنان، وكانت المسألة بالنسبة إليهم وكأنها مأساة شخصية لا أكثر.. وذلك بحكم تكوينهـم الشخصى وصداقاتهم التـى أنشأوها وتواريخ عائلاتـهم؛ فضلاً عن السنوات التى عاشوها فى كنف العرب مفعمة بذكريات عن لبنان الوديع المسالـم. وفى ظنهم أنهم كانـوا دون سواهم الحريصين كل الحرص على المصالـح الأمريكيـة والقيـم الأمريكيـة؛ بينما كان خصومهـم اليهود فى أمريكا هم الذين يعانون من شكل معقد من أشكال الوطنية وما كان بوسعهم أن يدركوا حقيقة أن وطنيتهم بدورها كانت معقدة ولو بطريقة أخرى.

*　　*　　*

ولقد نرى فى الهجوم الذى شنه «السفير سيل» من سفارة أمريكا فى دمشـق (ضد كامب ديفيـد) أو فى مقابلة السيدة «وير» مع وزير الخارجية «شولتـز» واقـع الأنفاس الأخيـرة التـى كان يلفظهـا الحرس القديم من مخضرمـى المستعربيـن قبـل أن يغرقهم الطوفان تحت وطـأة المتغيرات اللاهثة الخطى التى كانت تطرأ على أمريكا ثم على وزارة خارجيتها بالذات.

إن السياسة الخارجية لا فى أمريكا وحدها، بل فى كل بلد فى العالم؛ تمثـل انعكاسًا لكيفيـة إطلالة المجتمع فى الداخل علـى العالم فى الخارج،

وكلمـا تغير المجتمع، تتغير سياسته الخارجية، إن العلاقة التاريخية التى كانـت تربط بيـن مجموعة من الأمريكييـن المتميزين وشريحـة من مثقفى العرب فى منطقة الشام؛ لم تكن ببساطة مما يدرى عنه. ناهيك أن يتواصل معـه، المجتمع الأمريكى متعدد الأعراق الذى تسوده الطبقة الوسطى فيما يتعلـق بإسرائيـل، فقد تميز أفراد مثل (البروفيســور) دودج أو (السفير) «سيـل» أو السيـدة «وير»؛ بأنـهم- دون غيرهم - كانـوا شهودًا على أسوأ جوانب الشخصية الإسرائيليـة، فى المقابل كان بوسع الأمريكيين التفهم بعمـق الجوانـب الإيجابية مـن الحيـاة الإسرائيلية بأيسر ممـا يفعلون مع أى مـن جوانب الحياة العربيـة، وخاصة فى لبنان الذى أريقت فى مسالكه الدماء، لقد كانت لجان العلاقات الأمريكية- اليهودية (اللوبى الإسرائيلي) بـكل أخطائهـا وفجاجـة أساليبها؛ أقـرب نفسيًـا إلى الأوســاط الأمريكية العادية بأكثر مما كان الحشد فى الجامعة الأمريكية فى بيروت.

مـع ذلـك، ظلـت الجامعـة تواصـل تأثيرها، إن لـم يكن علـى المسار العـادى فى أمريـكا الفعلى فى العامليـن فى السلك الخـارجـى؛ ولذلك كان تغييـر المواقـف الذى بدأ فـى إدارة الشرق الأوسـط بالخارجية فى حقبة سيسكـو- أثرتون بمثابة تطور تدريجي، بل ظلـت الإدارة المذكورة تأوى عناصــر مــن «الحرس القديم» حتى بعـد عقدين من ذلـك التغيير، ولقد كان حضــور الجامعة الأمريكية محسوسًـا من خــلال المعهد الميدانى الذى ظل يعلـم العربية لأفراد السلك الدبلوماسى حتــى عام ١٩٧٥؛ عندما نقلوه إلى تونـس بسبب انـدلاع الحــرب الأهلية فـى لبنـان، وكل المستعربين الذين ورد ذكرهـم فى هذا الكاتب؛ تعلموا العربية فى هذه المدرسة الميدانية فى

بيـروت، ويفسـر الأمر أحد المسئوليـن السابقين بالخارجيـة قائلاً: «كان ثمـة موقـف فكرى عن العالم فى بيروت الغربيـة المسلمة؛ يتسم بأنه معاد لإسرائيـل وقد اتخذته أجيال من المستعربيـن، وقد زاد من ذلك حقيقة أن المدرسة الميدانية كانت تقع فى العادة على مقربة من مقر منظمة التحرير الفلسطينية والذى حدث أن كلاً من المدرسة ومقر المنظمة أيضًا انتقلا إلى تونس من بيروت، كانت تلك مصادفة تدعو للسخرية لكنها حدثت».

* * *

الفصل العاشر

هوران العرب (*)

ذات مساء في جامعة إكسفورد التقى الشاعر وأستاذ الكلاسيكيات البريطاني روبرت جريفز للمرة الأولى مع ت. أ. لورانس (المستعرب الشهير) كان ذلك في عام ١٩٢٠م ، وكان لورانس قد فاز بمنحة دراسية من كلية «أول سولز» لإنجاز كتابه «أعمدة الحكم السبعة». وفي مذكراته بعنوان « وداعًا لهذا كله »، يورد جريفز وصفًا حيويًا لهذا المشهد... يقول : في الحال تعلقت بي عينا لورانس.. ثم شرعتا تومضان وتجولان في أرجاء المكان كأنما لجرد الملابس وتقاسيم الأجسام... كان لورانس يتحدث إلى أستاذ عن علم اللاهوت على أثر فلاسفة السوريين الإغريق في المسيحية في عهدها الأول وبخاصة أهمية جامعة جادارا القريبة من بحيرة طبرية وذكر أن القديس جيمس استشهد بواحد من فلاسفة جادارا «أظنه ماناسلكاس» في رسالته. بعد ذلك انطلق لورانس يحكي عن ملياجر وسائر من أسهموا في ذخائر الإغريق من السوريين اليونان الذين كان

(*) على وزن لورانس - العرب «المترجم» .

ينوى نشر أشعارهم مترجمة إلى الإنجليزية. ساعتها شاركت فى الحديث؛ وذكرت صورة نجم من نجوم الأسحار أوردها «ملياغر» بطريقة رأيتها غير إغريقية.. ما كان من لورانس إلا أن توجه نحوى قائلاً: «لا بد أن تكون جريفز الشاعر. لقد قرأت واحدًا من كتبك إذ كنت فى مصر عام ١٩١٧ ورأيته كتابًا مفيدًا للغاية».

سرعان ما أصبح جريفز ولورانس صديقين ولم يبادر جريفز أساسًا إلى مفاتحة لورانس فى موضوع بلاد العرب؛ إذ كان لديهما الكثير مما يتجاذبان حوله أطرافًا من حديث، فإلى جانب الشعر اليونانى كان لورانس شديد الاهتمام بالشعراء المحدثين من أضراب زيجفريد ساسون وجون ماسفيلد وتوماس هاردي، ثم كانت هنا دواوين جريفز التى ساعد لورانس فى إعدادها للنشر، وجاء كتاب جريفز عن «لورانس والعرب» أقرب إلى أن يكون سيرة لقديس منه إلى ترجمة الإنسان، لكن كان من الواضح أن جريفز كان لديه ما يقوله بعمق خاص حول لورانس.

وكما تكشف القراءة المتأنية لكتاب «أعمدة الحكمة السبعة»: فإن لورانس كان يستخدم الرموز الجبرية اليونانية لوضع استراتيجية لحرب العصابات... ومن ثم فلم يكن محور الأمر بالنسبة إلى ذلك الرمز الذى صان الإمبريالية البريطانية؛ هو مجرد جسارته العسكرية أو قدرته الجسمانية على التحمل أو حياته الجنسية المعقدة ولا اندماجه كواحد بين صفوف العرب ولا إلى أى شيء من هذا القبيل. وكما كانت الحال مع «سلفه الرحالة» ريتشارد بيرتون، « فإن التنوع الثقافى عند لورانس هو الذى يجعله نسيجًا فريدًا بين معاصريه، ولقد كانت معرفة لورانس

باللغة العربية وإحاطته بالبيئة العربية مجرد جانب من جوانب تلك العقلية المشبعة بالفضول، ولهذا السبب استطاع جريفز فهم لورانس بأكثر مما فهمه أنداده فى مكتب الشئون العربية البريطاني.. كيف لا.. وجريفز نفسه هو الذى مضى كى يكتب مؤلفاته بعناوينها الشهيرة «أنا كلوديوس» و«المعبودة البيضاء»، ثم أعظم ترجمة على الإطلاق عرضت «الأساطير اليونانية» فضلاً عن ثلاثين كتابًا عن أوسع فروع المعرفة، طبعًا كان فى لورانس عيوبه مثل سائر معاصريه من المستعربين البريطانيين: أقرب إلى الهاوى الطموح منه إلى المحترف المتخصص، ثم إن طابع نظام التعليم الإنجليزى وفى مدارس البنين الخاصة فى بريطانيا بالذات؛ أفضى إلى جوانب كثيرة من غرابة السلوك.. منها الإغراق فى الرومانسية والشذوذ، ولم يكن لورانس بعيدًا عن هذا كله.

* * *

لكن -إذا استطعت- تصور لورانس طبعة أمريكية ينحدر من طبقة متوسطة، وينهج أنماط السلوك الطبيعية وينتمى إلى مرحلة الحرب الباردة بدلاً من الانتماء مثل شبيهه الإنجليزى، إلى أيام الإمبراطورية البريطانية، شخصًا جمع بين الذكاء الفكرى والكفاية العملية، لم يقدر له يومًا أن يعانى أزمات الهوية لا الناحية القومية ولا من ناحية السلوك الجنسى.. شخصًا له بيت فى ضاحية وعائلة يأوى إليها، بلغ من اتزان تفكيره ألا يكتفى بالتحيز لجانب على جانب.. بعبارات أخرى نحن بإزاء لورانس جديد، أشد حداثة وينتمى إلى مرحلة ما بعد الصناعة.

لقد ظل «هيوم هوران» - وهو من عنيناه بما سبق من سطور- محومًا حول أطراف موضوع الكتاب كسائر المستعربين من خريجي معهد تعليم اللغة العربية ميدانيًا فى بيروت، ولو سألت أيًّا من كان فى إدارة الشرق الأدنى عن أعظم مستعربيها من ناحية القدرة الفعلية على طلاقة اللسان «العربي».. فإن هى إلا لحظة ويأتيك بعدها الجواب من كلمتين: «هيوم... هوران»... إنه المستعرب الوحيد الذى أكمل مقرر الأشهر الحادية والعشرين فى مدرسة بيروت؛ ولكن فى ١٢ شهرًا لا غيره، وتخرج بأكبر معدل أعطاه على الإطلاق خبراء اللغويات فى السلك الدبلوماسى ممن رءوا فيه أكثر من بليغ تضلع فى العربية وكأنها لغته الثانية الأم.

وفى بيروت كان «هيوم هوران» يمضى أمسياته يترجم إلى الإنجليزية رواية محببة إلى العرب هى «نداء المجهول» تأليف محمود تيمور. بعد ذلك فى ليبيا كان يعكف على تدقيق منهج دراسى فى قوانين الشريعة فى إحدى الجامعات الإسلامية، وفى واشنطن سيعكف على تدارس عبرية الإنجيل «من أجل أن أقرأ عاموس، رسولى المفضل فى لغته الأصلية ثم كى أفهم الإسرائيليين كإسرائيليين وأن أعرفهم من خلال اللغة التى يتكلمونها... وهى لغة تتخطى حواجز كالجنادل فتتردد أصداؤها فى الجبال.. يا الله لا عجب إذن إن كانوا على هذا النحو من الخشونة؛ ثم إن العبرية تسير فى خط متواز مع العربية».. هكذا يتدفق «هوران» فى الحديث حيث عيناه تسبحان فى بحر من الحمية ورهافة الحس... ويود لو كان قد وهب حياة جديدة غير التى عاشها.

مع ذلك فهو- هوران ضليع فى الإسبانية والفرنسية والألمانية... يستطيع ترديد النشيد الوطنى الأرجنتينى، وبمقدوره أن يلقى على مسمعك

فصولاً كاملة من جوته (بالألمانية) وكذلك من «الروائى الأمريكي» إدجار آلان بو.. ثم ينتقل بك إلى حديث عن روايات غرب إفريقيا وعن كشوفات شعوب ألمايا فى أمريكا الوسطى ومن ثم عن أدب الأطفال. يتحدث بتفاصيل مدهشة عن مواضيع من قبيل تاريخ هايتى والمستوطنين الأوائل. فى مقاطعة كيبك «الفرنسية فى كندا»، ولأنه مولع للغاية بأحوال أمريكا، فهو يستعرض على مسمعك دفعة بعد أخرى؛ رحلة «وسلى باولز» إلى مصب نهر كلورادو فى عام ١٨٨٩، بل يستطيع أن يستظهر أبياتًا فى حكم المنسية من أنشودة «الراية تتألق بالنجوم»... ذلك امرؤ باتت شعلة ذكائه من السلالات المنقرضة فى عصر الإعلام الإلكترونى، حيث ساعات القراءة أقل مما مضى حتى عند ألمع الأفراد ذكاء وتوقدًا.

كان «هيوم هوران» فى عمان نائبًا لرئيس البعثة خلال أيلول الأسود عام ١٩٧٠؛ عندما أمسك كل من نيكسون وكيسنجر وسيسكو بخيوط التطورات التى وقعت على مستوى استراتيجى من واشنطن، خلال القتال استطاع هوران أن ينقذ أحد سكرتيرى السفارة، كان فى بناية تعرضت للقصف عائدًا به إلى حيث المجمع الدبلوماسى ومخترقًا أكثر من حاجز تفتيش مأهول بعناصر من الفدائيين الفلسطيين؛ حيث كان يقنعهم بالعربية أنه ممثل للصليب الأحمر! كان السفير الجديد «دين براون» قد وصل لتوه وقت بدايات اندلاع الشرر، وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمام السفير براون لتقديم أوراق اعتماده رسميًا؛ هى إرسال الملك حسين قافلة مدرعة فى السادسة صباحًا لإحضار السفير ومعه هوران. وشقت القافلة طريقها مطلقة نيرانها من السفارة إلى القصر..

كان هوران قد بلغ به الجوع لدرجة أبعدته عن القلق؛ فلم يكن يفكر إلا فى سؤال وحيد: هل سيقدم لنا الملك إفطارًا؟ « وهذا ما فعله الملك حقًا»، لقد أمضى هوران أسبوعين- حبيس السفارة التى أثخنها الرصاص- يعيش على ربع جالون من مياه الشرب يوميًا كان يستقطع منه جانبًا لكى يحلق ذقنه ويغسل ياقة وأكمام القميص، فما «هوران» إلا المدقق الأريب.

وعندما اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣، وأطلقت المملكة العربية السعودية سلاح البترول من عقاله؛ كان هوران فى جدة نائبًا لرئيس البعثة وأدار السفارة بمعرفته انتظارًا لمقدم السفير الجديد«جيمس أكنز».

وإذ التزم هوران بحبل الكتمان؛ فقد عايش الدراما السخيفة التى نشبت بين «السفير» أكنز والوزير هنرى كيسنجر؛ إذ كانت فصولها تتبدى أمام عينيه، وكلما كان كيسنجر يزور المملكة كان هوران هو المنسق على الأرض؛ إذ كان يتعامل مع أهل البلاد من موقع أدق التفاصيل، ولقد أمضى هوران فى السعودية خمس سنوات من عقد السبعينيات نائبًا لرئيس البعثة وعاكفًا على تصريف أمور السفارة لصالح ثلاثة سفراء متعاقبين... بيد أن هذه الإحاطة الدقيقة بجوانب المسائل العربية ستكون من عوامل أفول نجمه بعد عقد يأتى من السنوات!.

«هيوم هوران» مخلوق متوقد الذكاء لدرجة أن حجم رأسه يبدو غير متناسب مع سائر أعضاء جسمه، تمامًا على نحو ما كان لورانس، ترمش عيناه كأنما تشربان الضوء ثم تركزان على مساحة من الفراغ؛ بما يعكس سلامًا مستكنًا بين الجوانح على فحو يروق للفيزيائى أن يتمعن فيه، ذلك

أن الأمر يبدو وكأن هوران قد انقسم إلى عوامله الأولية... فلم يعد أن يكون دماغًا فى وعاء... لهذا تسمعه يدعوك قائلاً: تعال إلى بيتنا نتكلم... بل يقول: تعال عندنا ندرس ونتأمل.

ثم ها هو ذا «هيوم هوران» يتأمل: «اللغة العربية! كلام الله، سبقت رسالات بلغت للناس على نحو أو آخر بالعبرية فى العهد القديم أو اليونانية فى العهد الجديد، لكن القرآن - الذى نزل عربيًا ليس تاريخًا أو سيرة مثل الإنجيل - بل هو وحى منزل، ولهذا فالعربية أكثر لغات الأرض وشيجة مع السماء.. وهى بهذا تختلف عن الإنجليزية التى تمثل كاتدرائية متشابكة الأركان ترحب بالقاصدين.. نعم الإنجليزية أكثر اللغات كاثوليكية أما العربية فهى نظام محكم الإغلاق تقاوم استعارة الكلمات... مثل جهاز جليل يروعك منه المنطق ثم تبهرك سلاسته وسهولة أدواته؛ إذ يبدأ فى الحركة وينتقض بالوجيب.. وما أن يتوافر لك معرفة اللواحق والسوابق من الكلمات فتودعها ذاكرتك ومعها الأفعال المجردة، الثلاثية السواكن، يصبح بوسعك أن تشكل أى كلمة تخطر على البال.

يبدو الأمر كأنه التحام نطفة بأخرى فى إطار يستمد أصوله من معين العقيدة؛ حيث المدد عميقًا وكثيفًا، أين هذا من الإنجليزية حيث لا سبيل إلى أن تعيش المعانى الأصلية للكلمات إلا إذا درست اليونانية أو اللاتينية؟ والمشكلة الأخرى أن العربية من أجمل ما تسمعه الأذن من إيقاع، ومن ثم تجد نفسك ترتبط بأكثر من سبب مع هؤلاء القوم بحكم أسلوب البللور الذى تتشكل به لغتهم فى فضاء الله الواسع... لهذا أعرف كيف قصر المترجمون الإنجليز عن مجاراة (معاني) القرآن.. من آياته

ما يمكن اعتباره استكمالاً لتشريعات اللاويين.. لكن... لله در القرآن إنه يأخذك عبر سورة البقرة فى تكرار وئيد... ثم إذا به يروعك بوحى يتفجر بسرعة البرق... يفاجئك ويزلزل كيانك بمعدل ثلاثة آلاف قدم فى الثانية الواحدة....».

* * *

ما زال هوران يسابق اللحظة وهو يعرض الموضوع، لا يكاد يتوقف لالتقاط الأنفاس يقول: «العربية قد لا تكون أكثر عزلة من الصينية أو من أى لغة أخرى غير أوروبية بل إن الصينية تستعصى- كما قد نقول- على صيغ الفكر الغربى بأكثر من العربية. إن أزمنة الفعل العربى قد لا تكون محددة بصورة قاطعة بين الماضى والحاضر والمستقبل؛ بيد أن الزمن فى العربية، له امتداد خطى والصينية ليست كذلك. على أن العرب هم قوم موحدون من أهل الصحراء لم ينل منهم حلم المن والسلوى بعد الدياسبورا- الشتات - الذى نزل بأهل الغرب... ولعلهم بهذا عازفون عن الصور الحسية المزوقة بل هم يطوون الجوانح- كما يقول لورانس- على أنقى وأصلب عقيدة؛ بحيث تصل فى حدودها إلى مستوى الرياضيات. لهذا فهم ينجذبون نحو المجرد وليس الحسي، ولهذا أيضًا لم يكن من إبداعاتهم فنون الرسم والنحت وغيره من فنون التشكيل والتجسيم».

ومن هنا يقول أستاذ هوران الراحل «سير هاملتون جيب»: إن الوسيلة التى اختيرت أساسًا كى يعبر بها العرب عن حس الجماليات لديهم؛ كانت الكلمة واللغة وتلك أروع الفنون فتنة وهى بالتأكيد أكثرها تقلبًا بل وأشدها خطرًا؛ وعند - الأستاذ - جيب فإن الكلام هو أعظم الفنون. والفن كثيرًا ما يخدع.. ثم يقفز هوران بضع درجات على بوصلة الحوار كيما يلتقط مقولة تتقاطع مع ما كان يشغله من حديث عن فن الكلام يقول: لقد جاء الإسلام وحيا فى القرن السادس وسط عالم من الفوضى السياسية والانحلال الاجتماعى، وأصبح من واجب محمد «عليه الصلاة والسلام» على خلاف عيسى «عليه السلام» أن يحمل على عاتقه مهمة لا تقتصر على الدعوة إلى الدين الجديد فحسب؛ بل وإلى إقامة نظام اجتماعى وسياسى أيضًا. لهذا أقام محمد «صلى الله عليه وسلم» مجتمعًا جديدًا لا يقوم على آصرة الدم بل على وحدة العقيدة. وهذا الصرح الاجتماعى الجديد أثبت أنه قادر على الاستمرار، والذى حدث أن مفكرى الأمة المسلمة، وقد أبعدتهم السياسة فيما انجذبوا لغويًا نحو المثالى والمجرد، شرعوا يركزون الاهتمام فحسب على أصول دينهم وعلى حكم الشرع، وذلك مبحث يصفه هوران نفسه بأنه عالم يبغى انقسام الشعرة والطموح إلى الأكمل بغير حدود.. هنالك تجاهلوا أمر السياسة ولم يعتمدوا سوابق تضفى الشرعية على وقائع الحياة السياسية على النحو الذى تعيشه حاليًا الدول القومية المعاصرة... كل هذا يتم فى إطار عالم يدور حول مبدأ داروين فى البقاء للأصلح؛ وهو ما يجعل الشرق الأوسط موقعًا هو من الخطورة بمكان.

ولد هوران عام ١٩٣٤، ولا يزال يتصف بتلك النزعة من الشقاوة والمعابثة والولدنة.. كأنما ينفس عن طاقة فائقة وحبيسة، إنه يركض ويلعب التنس ولا يمل من ركوب الدراجات.. وبعد أحداث أيلول الأسود فى عمان ذهب ضيفًا على ولى العهد الأمير الحسن فى إجازة للتزلج على الماء فى خليج العقبة، وإذ أخطأ فى نهاية إحدى القفزات فقد اصطدم بكيس رمال حطم ضلعيه وعدة فقرات؛ ومن ثم أمضى شهرًا بطوله مستلقيًا على ظهره بمستشفى فى عمان.

وها هو هوران الآن؛ وقد عاد إلى الاستلقاء على ظهره من جديد لا بعد حادثة بل حادثتين من حوادث الدراجات - لقى لورانس مصرعه وهو يمتطى دراجة بخارية.

طبعًا سيشعر هوران بالحرج من هذه المقارنة مع لورانس، ولقد سأله يومًا أحد مصورى المجلات عن غير معرفة بشخصيته: إن كانت لديه صورة وهو يرتدى اللباس العربى فما كان منه إلا أن أجابه: لو كانت لدى صورة من هذا القبيل لكنت قد أحرقتها، ذلك لأنه ليس كبير الثقة فى رجال الثقافة المصطنعة والتجمعات الدولية الذين يعمدون إلى حشو شخصياتهم بحضارات أو ثقافات غير مأهولة وكأنهم يتظاهرون بما ليس فيهم.

إن هوران يحب ألا يكون مثل لورانس العرب، وإن كان لا بد فهو يود لو كان مثل «لرونو بتلهايم» الذى كان يطل من عدسته المكبرة متفحصًا ومدونًا مذكراته عن الأطفال الانطوائيين. ثم يلوح السفير هوران بيمناه

بينما يهز عكازه باليسرى؛ إذ يتهيأ لسرد ملاحظاته عن ليبيا التى خدم فيها.. حيث عاش هو وزوجته نانسى عددًا من السنين.

نحن هنا بإزاء الصدمة التى انتابت جموع المحرومين؛ حيث الحياة فارغة وقد كانت تعيشها قبائل سيئة الطالع طردتها الظروف خارج مصر وتونس ثم استعمرها الطليان. وفى الحرب العالمية الثانية، شهدت تلك الأرض معارك تروح وتجيء إلى أن اكتمل نهبها كى تصبح من بعد أفقر بلد فى الدنيا ؛ حتى أصبح أكبر صادراتها هو المعادن الخردة (سكراب) من مخلفات الحرب.. ثم تنزل صاعقة الثروة بغير تمهيد وبعدها انقلاب سياسي. هنالك تصاعدت أبخرة الثروة إلى الأدمغة فيكره أصحابها سائر البشر، تسود السلبية وتتفشى الشكوك والعناد والمشكلات النفسية لكن عليك أن تقطع أشواطًا طويلة كى تعرف الناس هناك أن هوران - كما يصفه مسئول سابق بالخارجية الأمريكية- أشبه بعلماء التلمود. ويمضى هذا المسئول السابق الذى قلما يمدح أحدًا من الدبلوماسيين الأمريكيين ليقول: إن هوران عالم مستعرب كلاسيكى من طراز البروفيسور برنارد لويس - المستشرق البريطانى الأشهر والأستاذ بجامعة برنستون - أما جون كوليه وهو من المعهد الأمريكى للدراسات الدبلوماسية فيقول:«إذا ما أدينا واجبنا على النحو الأكمل فالنتيجة اسمها هيوم هوران».

* * *

لو كان هناك امرؤ يحله - السفير - هيوم هوران محل الإجلال والتوقير، ويسعى جاهدًا إلى أن يحذو حذوه وينسج على منواله؛ لكان هو المستشرق الإنجليزى «هاملتون جيب»... يقول هوران: طيلة حياتى كنت أشعر بضرورة أن أبذل قصارى جهدى فى عملى لكى لا أخيب ظن - أستاذى - هاملتون جيب.. لن أنسى الرجل ما حييت... حقيبته الصغيرة التى ما إن يفتحها تجدها حافلة بالآداب - الأدب الحقيقى فى لغات شتى وما عرفه عن الشرق الأوسط ليس إلا موجة ضمن تيار عريض هو معرفته بثقافة بقية العالم. إن كتابات هاملتون جيب تتردد بين سطورها انتقاداته الذكية والعميقة للحضارة العربية.

ومع ذلك فهو مبغض إلى عدد من العلماء الصهاينة واليهود مثل الراحل إيلى قدورى؛ بسبب تفهمه العميق للجانب الإيجابى من القومية العربية. لهذا تجد قدورى يكتب فى عدد يونيو ١٩٩١ من مجلة - كونتري- وكأنما يغمز من قناة هاملتون جيب حين يشير إلى شركة السيد هاملتون جيب وأولاده المؤسسة العتيقة والمنعزلة التى يرى فيها الإرهاص الأساسى المبشر الخواء العقلي، مع ذلك تجد عند الطرف الأقصى من المعادلة المفكر العربى الفلسطينى إدوارد سعيد يقول فى كتابه «الاستشراق»: إن تحيزات السير جيب الأساسية تظل عقبة كأداء بالنسبة إلى كل من يبتغى فهم الإسلام الحديث. على أن السفير هوران الذى عرف هاملتون جيب شخصيًا يرى نفسه فى المحل الأوسط المتفرد بين الثقافتين الفرعيتين اللتين يصدر عنهما كل من إيلى قدورى وهو المفكر المؤيد للصهيونية وادوارد سعيد المفكر المؤيد

للفلسطينيين، وهذه العزلة يتقاسمها هوران مع سائر - الأمريكان - المستعربين فعلى الرغم من طفولته فى وسط متعدد اللغات وعلى الرغم من الليسانس والماجستير من هارفارد فضلاً عما تعلمه بخاصة على يد السيد جيب فمن الخطأ أن نحكم على هوران أنه ببساطة مجرد إنتاج طبيعى لنشأة حافلة أو لتعليم مرموق. إن إجادته الفرنسية والألمانية أمر من صنع يديه وكسبه العصامي. تراه يحجل حول مكتبته يتناول بعكازه رواية ألمانية، ثم يقلب الصفحات معتزًا بأن يستعرض على مسامع زائره حصيلته القديمة من ذخائر المفردات. فى حالة هوران- فإن صفة الاستعراب ما هى إلا جانب من جوانب الاستنارة المشبعة بروح الإنسانيات، وهو من ثم يشكل رادعًا فوريًا أمام أى لوبى مؤيد لإسرائيل يفضل الطريق السهل؛ فيشير إلى رجل مثل السفير كيلجور على أنه المثل الحى لحركة الاستعراب فى الخارجية الأمريكية... فى هذا السياق يصر السفير هوران على أن السفير لا يفترض فيه أنه يمثل فقط وزارة الخارجية؛ بل هو يمثل كونجرس الولايات المتحدة والبيت الأبيض والعاصمة واشنطن ثم مجمل الفكرة التى تسمى أمريكا.

قد تكون فكرة هوران عن أمريكا أكثر من واقعية ، يشهد بهذا مقال كتبه بوحى اللحظة فى عدد مارس ١٩٩٢ من جريدة السلك الخارجى يصف فيه الاحتفالات بفوز فريق - ردسكنز - للكرة فى واشنطن وفيه يتجلى هوران لا بوصفه مغرورًا بمعارفه الدولية، بل بوصفه رجلاً شعبيًا بحق حيث يقول: على مدى ساعة ونصف من يوم ٢٩ يناير لم تكن فترينة

العرض العظمى لأمريكا فى المتاحف؛ بل تجلت أمريكا فى ساحة مول بول حيث تجمع ١٠٠ ألف من مشجعى فريق ردسكنز؛ نصفهم بيض ونصفهم سود يهتفون بحياة الأبطال الذين حصلوا على الكأس رقم ٢٦.. آه لو رأيت منظر الملابس... فتاة ترتدى جاكتة ميدان لا بد وأن تكون قد سرقتها من ديكتاتور بنما - جنرال نرويجًا.. ثم الأساور ذات الشعارات المثيرة.

«كان صباحًا لا يضم يهودا أو غير يهود؛ بل يضم ألف مشجع يهتفون ويرقصون؛ حيث الأصبع الوحيد الذى يرتفع آنذاك هو السبابة».

*　*　*

التحق هوران بالسلك الخارجى بعد دراساته العليا فى هارفارد، وبعد بيروت خدم فى بغداد من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٣، ومن ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦ كان في «البيضاء» وهى مدينة صغيرة فى شرقى ليبيا ثم عاد إلى واشنطن سنوات قليلة قبل ذهابه إلى عمان وبعدها إلى جدة نائبًا لرئيس البعثة، وبفضل أدائه المرموق فى عمان أثناء أحداث أيلول، وفى جدة أثناء حرب أكتوبر رقى إلى رتبة سفير فى الأوائل الأسود الأربعينيات من عمره، وكان أول مواقع خدمته باعتباره سفيرًا فى غينيا الإستوائية والكاميرون وعندما جاء صيف ١٩٨٣ أسند إليه أول منصب سفارة فى العالم العربى وكان فى الخرطوم بالسودان.

الفصل الحادى عشر

أنديانا جونز (*)

بسبب عوامل الجغرافيا. كانت أقطار شمال إفريقيا الناطقة بالعربية (المغرب العربي) تعيش دومًا على حواف دراما الاستعراب الأمريكى.

مصر كانت استثناء بطبيعة الحال وكذلك السودان الذى كان بدوره استثناء آخر إذ هو امتداد لمصر إلى الجنوب بل إن السودان لم يعوزه يومًا أن يشهد دراما أبطالها مستعربين وذلك بحكم حجمه الكبير وموقعه المتاخم لكل من مصر وليبيا ثم السعودية عبر البحر الأحمر وهذا ما توضحه القصة التالية:

السفير «باركرهارت» وقد شارف على الثمانين ويتحلى بأرفع أساليب السلوك يضجع فى كرسيه فى صالة نادى «كوزموس» فى واشنطن بجدرانها التى يأتلف على أديمها الأبيض والكريم والذهبي.

(*) نسبة إلى مسلسل المغامرات الروائى الشهير «المترجم».

يتذكر تعيين «هيوم» سفيرًا لأمريكا لدى المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٨٧، التى كان «هارت»، نفسه سفيرًا لديها قبل أن يصبح مساعدًا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى. العربية السعودية تمثل أكثر من حليف استراتيجى رئيسى وحليف مالى لأمريكا فى العالم العربي. صحراؤها القاسية هى المهاد الذى شهد الأسس التى قامت عليها الثقافة البدوية وديانة الإسلام. وبالنسبة لمستعرب فى وزارة الخارجية فلم يكن ثمة موقع أسمى مكانة من وظيفة السفير لدى الرياض. وبالنسبة إلى السفير هارت، لم يكن ثمة مؤهلات ترشح الفرد لمثل هذا العمل بأكثر من المؤهلات التى حملها هيوم هوران.

«هيوم هوران يتكلم العربية بطلاقة»، هكذا يضيف السفير هارت وكأنه يراه من حكماء بوسطن. «بعد أن أقسم اليمين باعتباره سفيرًا بدأ يلقى أبياتًا من الشعر العربى يحفظها عن ظهر قلب لست أعرف ما هى لكن كانت عذبة فى الأسماع».

فى الواقع كانت الأبيات من قصيدة لمحمود سامى البارودي، السياسى المصرى الشاعر الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر ونفاه البريطانيون إلى سيشيل لمدة عامين(*). ويقارن هوران نفى البارودى بمنفى إسحاق شامير الذى كان البريطانيون قد أرسلوه إلى إرتيريا(**).

(*) الصحيح إلى سيلان (سرى لانكا) والصحيح أيضًا أن النفى دام ١٦ عامًا (يناير ١٨٨٣ - سبتمبر ١٨٩٩) - «المترجم».

(**) هكذا ....! المترجم

أما الشعر المترجم إلى الإنجليزية فيبدأ بهذا البيت:

يارب قد طال بى شوقى إلى وطنى

فأحلل وثاقى وألحقنى بأشباهى....

وينتهى بهذا البيت:

عسى الله يقضى قربة بعـــد عــودة

فــيــفـــــــرج باللــقيـــــــا أب ووليد

والواقع أيضًا أن هوران عمد إلى أن يأخذ بيتين منفصلين من شعر البارودى ويخيطهما معًا فى نسق واحد؛ آملاً ألا يكون هناك من يلحظ لجوءه هذا إلى استخدام رخصة الشعر، وما كان له أن يقلق فى هذا الأمر، فلم يكن أى من الذين شهدوا حفل القسم قد سمع لا عن الشعر ولا الشاعر ولا كان معظم الحاضرين بوسعه أن يفهم العربية أصلاً. مع ذلك فالاقتباسات التى اختارها كانت موافقة للمقام. إن هوران- بمعنى من المعانى- كان كمن يعود إلى الوطن أو على الأقل إلى قطر عربى كان يعرفه حق المعرفة هو العربية السعودية.

لم يكن فيما يبدو ثمة فرد فى مجمع الخبراء الأمريكيين أفضل مؤهلات فى تلك المرحلة؛ ليصبح سفيرًا لدى العربية السعودية من هيوم هوران.. عربيته لم تكن بليغة فحسب؛ ولكنه كان قد فرغ لتوه من

إنجاز ثالث مهمة له باعتباره سفيرًا فى السودان وسط نجاح مشهود. فى الخرطوم كان قد أعطى نموذجًا يحتذى بحق عن دور السفير بالضبط. وعندما غادر الخرطوم، أشار مسئول سودانى إلى تواطؤ السفير فى تهريب الفلاشا وقال لهوران «لم تكن محبوبًا هنا على وجه الدقة » إلا أن هوران أجاب مبتسمًا: ليس من وظيفتى أن أكون محبوبًا، إن وظيفتى أن أمثل قيم ومصالح الولايات المتحدة. وكان هوران يقصد الولايات المتحدة» ليس مجرد وزارة الخارجية ولكن كونجرس الولايات المتحدة والبيت الأبيض أيضًا».. على حد ما قال.

فضلاً عن ذلك، كان تعيين هوران لدى الرياض إشارة مقصودة أو غير مقصودة بأن الولايات المتحدة تعلمت درس إيران فى السبعينيات عندما سقط الشاه وهو: لا تجعل من علاقة عسكرية واقتصادية مع نظام حكم ما تحول بينك وبين التعرف على المعارضة الداخلية فيه. من هنا فالسنوات الخمس التى أمضاها هوران فى العربية السعودية عندما كان يدير السفارة عمليًا تحت رئاسة ثلاثة سفراء مقرونة بإجادته التامة للغة العربية وشخصيته البارزة، كل هذا جعله خبيرًا بأبعاد المسرح المحلى هنالك. يضحك فليوتس المساعد السابق لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى قائلاً: لعلك لا تعرف هيوم؛ هو ذلك النمط من الرجال الذين يتحلون بالمودة الشديدة ويستطيعون إقامة صلات محلية كثيرة. فى خمس سنوات فى مكان مثل السعودية أصبح يكاد يعرف كل فرد دون تدخل من مترجم أو غيره.

ويقول هوران نفسه: فى السبعينيات كنت آكل الدجاج المجهز فى المطاعم البسيطة مع كثيرين ممن كانوا فى شتى مواقع الحكومة

السعودية. بل إن صلات هوران لم تقتصر على الأنماط الحكومية؛ ولكنها تعدت إلى علماء الإسلام مما أصاب السعوديين بالتوتر العصبي. كانت واشنطن مرتاحة لفترة ما إزاء تعيين هوران سفيرًا؛ لكن الحكام السعوديين لم يكونوا كذلك، بل إن هوران كان أسوأ كابوس لديهم إلى حد ما. ربما كانت حكاية هوران مع الفلاشا نوعًا من الرذاذ الذى كان لا يزال يعلق بالرجل فى عيون السعوديين، لكن آخر شيء كان يريده الملك فهد وحاشيته هو أمريكى ذكى فى الرياض يجيد العربية وله اتصالات فى الشارع السعودي، ومن ثم فهو قادر على دحض الصورة الوردية الوحيدة الجانب التى يتولى بيعها عن العربية السعودية فى واشنطن سفيرها الواسع النفوذ الأمير بندر بن سلطان.

من الواضح أن السعوديين كانت لهم تجربتهم مع سفراء أمريكيين كانوا يجيدون التحدث بالعربية. كان أول سفير على الإطلاق لدى المملكة هو الكولونيل ويليام إيدى وكان نموذجًا يحتذى، كذلك كان هناك بيت هارت وهيرمان إيلتس وجيم أكنز وريتشارد ميرفى، لكن مع إمكانية استثناء الكولونيل؛ إيدى فإن عربية هوران كانت أفضل بكثير من كل هؤلاء الرجال. وعلى خلاف هوران؛ كان إيدى ابن مبشر وكان معروفًا عنه جيدا عواطفه السياسية المؤيدة للعرب. والأهم من ذلك أن كان لهوران سمعة أنه ليس «سفير الليموزين» ذلك النوع الذى تقتصر علاقته وصداقته مع الجاليات الأجنبية؛ فيما تقتصر اتصالاته العربية على المواقع الرسمية وعلى الذين يعيشون فى مركز. خدمته. لقد أحب هوران أن يخرج إلى الشوارع وأن يتحدث إلى الناس....

وكانت هناك أيضًا مسألة منبت هوران الإيراني؛ وهذه المسألة لم يكن هيوم يعلنها ولا يبقيها فى طى الكتمان، وربما لم يكن لدى السعوديين حق أو منطق فى هذه المسألة. لقد كانت شأنها شأن كراهية مسأل تبرز أشد الجوانب سلبية فى الشخصية الوطنية السعودية، ألا وهو نزوعها إلى تصور أسوأ أنواع المؤامرات وأكثرها بدائية؛ وهى سمة لا تزل عالقة حتى بأكثر السعوديين استنارة. لهذا السبب بالضبط لم تخضع المسألة لأى نقاش على الإطلاق... اختارت واشنطن الرجل الذى أرادته وكان لديها الحق فى ألا تعتبر أن هذا الموضوع له قيمة وعلى ذلك وافق السعوديون فى صمت...

لكن هذه العوامل كلها ما كان لها أن تتصاعد لولا تدخل سوء الحظ فى مسار الأمور. فى أواخر عام ١٩٨٧، كان هوران قد بدأ لتوه الاستقرار فى عمله الجديد عندما تعين عليه هو ومعه موظفو سفارته، مستعينين فى ذلك بصور الأقمار الاصطناعية وما خلصت إليه نتائج الاستخبارات الوطنية؛ أن يحل أحدث ألغاز الرمال، مثلاً لماذا كانت الأطعمة الصينية تختفى بهذه السرعة الفائقة من الأسواق المحلية؟ وكما عرف موظفو السفارة فيما بعد؛ فإن السبب كان راجعًا إلى أن الفنيين الصينيين يأكلون هذه الأطعمة. فى الصحراء جنوبى الرياض كانت هناك منشآت لصواريخ «سى، إس، إس. التسيارية المتوسطة المدى « القادرة بسهولة على بلوغ إسرائيل والتى كان من شأنها، كما يقول هوران- أن تضع السعوديين فى موقع استراتيجى متميز وجديد، كان السعوديون قد قطعوا وعدا سريًا لواشنطن بعدم نشر هذه الأسلحة لكنها كانت مسألة حساسة. أما الأمير بندر السفير السعودى فى واشنطن، فقد أبرم- على ما يقال- الصفقة

عن هذه القذائف التسيارية بنفسه أثناء زيارته للصين. بندر كان أكثر من مجرد أوسع السفراء الأجانب نفوذًا على نهر البوتوماك فى واشنطن. كان شخصية لا تبارى، يمكن أن تكسب الجميع وهى مفعمة بالدولارات والنفوذ؛ وكان يتمتع بعلاقات ممتازة مع مجلس الأمن القومى ومع الرئيس ريجان وزوجته.

مع ذلك، فقد أوعزت وزارة الخارجية إلى السفير هوران فى مارس ١٩٨٨ بأن يوضح للملك فهد مدى حنق الولايات المتحدة؛ بسبب نشر تلك الصواريخ. وعندما تلقى هوران التعليمات بلغ من فهمه العميق للسعوديين إلى حد أنه كان يعرف أن «تلك مسألة فى غاية الحساسية»؛ وهى كفيلة بسهولة بأن تفقده موقعه كسفير.

وعليه ففى صباح اليوم التالى لتلقيه التعليمات: اتصل مع واشنطن طالبًا إعادة تأكيد للتعليمات وسائلاً إدارة الشرق الأدنى: هل أنتم متأكدون بأنكم تريدوننى توصيل هذه الرسالة؟ وجاء الرد بالإيجاب وكان هوران على بينة أنه فى مثل هذا الموقف؛ فإن بلاغته فى الحديث الطليق بالعربية تشكل سلبية واضحة لا لبس فيها. وكما يفسر الأمر صديقه فليوتس: تلك هى اللحظة التى لا تريد فيها أن تكون عارفًا بالعربية. اللحظة التى تريد من مترجم أن يتفوه بالعبارات الصعبة نيابة عنك؛ ومن ثم لا ترتبط أنت شخصيًا فى عقل الملك بما قيل فى تلك المواقف. وعليه فبدلاً من أن يطلب مقابلة الملك، كتب هوران الاحتجاج على الورق وقام شخصيًا بتسليمه إلى القصر.

كان يمكن لمثل هذا التكتيك أن يؤدى مفعوله: صحيح أن الرسالة احنقت الملك فهد الذى لم يكن حتى قبل تسلمها؛ قد استقبل هوران فى لقاء خاص على نحو ما فعل مع السفراء الأمريكيين سابقًا ولاحقًا. لكن الذى وضع حقيقة السكين على عنق هوران كان تصرف البيت الأبيض فى عهد ريجان. ففى غضون ساعات من تسليم الرسالة تلقى هوران برقية من واشنطن تبلغه أن «يوقف الجهود» المتعلقة بصواريخ «سا' ـورم» لأن «رسالة مختلفة» ذهبت مباشرة من واشنطن إلى الرياض، ويقال إن بندر استخدم قناة خلفية عن طريق اتصالاته بالبيت الأبيض لإلغاء الأوامر التى تلقاها هوران بعد تنفيذها.. هكذا أمسك الملك فهد برسالتين فى يديه: واحدة من واشنطن تقول إن نشر الصواريخ مسألة تحتاج مناقشة وربما لا شيء أكثر من ذلك، ورسالة أخرى. من هذا السفير الفضولى المتحدث بالعربية نصف العجمى، تقول: إن النشر أمر غير مقبول. فى حين أن الأمر غير المقبول فى نظر الملك كان هذه النوعية من السفراء.. هكذا أوضح الملك أن هوران الذى لم يمض فى الرياض سوى بضعة أشهر لا يمكن أن يكون همزة وصل عملية على الإطلاق.

من هنا، استدعت واشنطن هوران وسارعت بإرسال والتر كتلر المعروف باهتمامه بالعموميات سفيرًا جديدًا لها. وعلى الرغم من أن كتلر لم يكن يتكلم العربية فإن نعم بفترة خدمة بعيدة عن المشكلات بل وكان يتمتع بإمكانية الوصول الميسور إلى الملك فهد.

على أنه ساد شعور فى دوائر السلك الخارجى بأن هوران لم يظلم فحسب من جانب السعوديين وأصدقائهم المتنفذين فى واشنطن، لكن أيضًا من جانب كبار موظفى وزارة الخارجية البيروقراطيين لمجرد أنه كان قد بلغ شأو الكمال بوصفه خبير منطقة؛ بمعنى أنه كان يفهم السعوديين بأفضل مما أرادوا أن يفهموا به. لكن هوران يستبعد هذه الوساوس قائلاً: «نحن السفراء أقرب ما نكون إلى ورق الكلينكس، نحن مجرد أدوات للاستخدام ولسنا صانعى سياسة. إننا موجودون كى يلقوا باللوم على أكتافنا ثم يطوحون بنا هنا وهناك حتى تستمر العجلة فى الدوران».

فإذا ما تطرق إلى سلوك واشنطن؛ فإن هوران يكتفى بالقول: «بعد أن أذيعت حقائق إنقاذ الفلاشا وطلبت حكومة السودان الجديدة استبعادى»، قام شيت كروكر (مساعد وزير الخارجية لشئون إفريقيا) بإبلاغ الخرطوم دون مواربة أن لو أراد السودان مواصلة التعامل مع واشنطن؛ فينبغى أن يظل هذا التعامل عن طريق هيوم هوران». ولن أنسى لكروكر هذا الصنيع ما حييت (!) أما عن أسلوب استجابة الوزارة إزاء ممارسة السعوديين ضغطًا مماثلاً فلنكتفِ بالقول إن المسألة لم تكن على غرار جزيرة «كوريك دور»- (وتلك إشارة إلى المقاومة الباسلة لقوات الولايات المتحدة فوق جزيرة كوريك دور قبيل استسلام الفلبين أمام اليابانيين فى شهر مايو ١٩٤٢). بعد استدعائه من العربية السعودية عمل السفير هوران فى عدد من اللجان رفيعة المستوى؛ وبعدها انتخب من زملائه- أعضاء السلك الدبلوماسى- رئيسًا لرابطة السلك الخارجى

الأمريكى ثم عين سفيرًا لدى كوت ديفوار (ساحل العاج)، وهى أهم بلد ناطق بالفرنسية فى غرب إفريقيا. لكن هذا لم يكن ختامًا ناجحًا من الناحية الشكلية لحياة دبلوماسية حافلة بالنسبة إلى سفير سبق أن عمل فى الرياض؛ وهو أفضل من تكلم العربية فى تاريخ إدارة الشرق الأدنى بوزارة خارجية الولايات المتحدة، بيد أن هوران نفسه لم يكن يومًا بالشخصية التقليدية، ومرة أخرى فثمة مشابهة تقرن بينه وبين مستعرب بريطانى هو سير «ريتشارد بيرتون» فعلى الرغم من أن بيرتون تسلل فى أيامه إلى قلب جزيرة العرب، وعلى الرغم من دوره فى اكتشاف منابع النيل التى لا تبعد كثيرًا عن جنوب السودان، فإن الخارجية البريطانية ما لبثت أن انتدبته للعمل مبعوثًا إلى غرب إفريقيا حيث رشحوه سفيرًا فى داهومى المجاورة لساحل العاج، وكان ذلك فى عام ١٨٦١.

* * *

هيوم هوران أراد يومًا أن يصف طائفة المستعربين الأمريكيين من أنداده؛ فقال بلهجته التلقائية التى تنضح سخرية من الذات: «مثلى كمثل زهور أوركيد منقرضة استولدت بذرتها دولة عظمى هى أمريكا. أنا أتصور أن وجود أمثالنا لا يبرره إلا وجود مثل هذه الدولة المنيعة، ولقد كان هوران أينع زهور الأوركيد وأكثرها تألقًا وكان شأنه فى هذا شأن أضرابه ممن عملوا فى خدمة الإمبراطورية البريطانية - لورانس وريتشارد بيرتون؛

على أن هيوم هوران يمثل أكثر أنواع المستعربين تقدمًا وذلك قبل أن يبدأ هذا الفصيل فى الاضمحلال ومن ثم الانقراض. وكما كانت الحال مع «لورانس»، وكذلك مع «ريتشارد بيرتون»، فإن بيروقراطية موظفى المكاتب لم تعرف حق المعرفة كيف تتعامل مع هذه النوعية من البشر.

المؤلف فى سطور:

روبرت كابلان

•كاتب وباحث أمريكى يعمل مراسلاً وطنيًا لمجلة "أتلانتك منثلى" الشهيرة المهتمة بشئون السياسة والثقافة، كما ينشر مقالاته ودراساته فى كبريات الصحف الأمريكية وفى مقدمتها: "النيويورك تايمز" و "والواشنطن بوست" ومجلة السياسة الخارجية (فورين أفيرز)، وتتركز اهتماماته وكتاباته على محاور السياسة الخارجية للولايات المتحدة وعلاقاتها بالأوضاع السياسية والاقتصادية فى العالم خاصة فى إطار التطورات التى استجدت على مسرح السياسة الدولية من تيارات وتوترات اقتصادية وثقافية بعد انتهاء الحرب الباردة عند مطالع التسعينيات؛ ومن ثم مع مستهل القرن الواحد والعشرين. وقد أتيحت لـ "روبرت كابلان" فرصة الإقامة فى مناطق شتى من الشرق الأوسط وأقطار البحر الأبيض المتوسط ؛ بما زوده بخبرة ميدانية مباشرة بتاريخ وأحوال المنطقة بكل ما يرتبط بها من مشكلات وصراعات وتعقيدات؛ وهو ما انعكس فى الكتب التى أصدرها "كابلان" مع سنوات التسعينيات وفى مقدمتها كتاب " أشباح البلقان" ثم كتاب "

المستعمرون" (الذى حملت ترجمته العربية عنوان الحملة الأمريكية). وقد جاء أحدث إصدارات "كابلان" ليحمل عنوان " المونسون" المحيط الهندى ومستقبل القوة الأمريكية". ليعكس تحول اهتمامات المؤلف مؤخراً إلى منطقة المحيط الهندى الممتدة من بحر العرب إلى أصقاع جنوب شرقى آسيا .

المترجم في سطور:

محمد الخولى

- كاتب وخبير فى الإعلام والترجمة الدولية.
- درس الأدب الإنجليزى وعلم النفس وعلوم التربية وعلوم الاتصال الجماهيرى والإعلام، ثم الاقتصاد السياسى فى كليات الآداب والتربية، والإعلام، والعلوم الاجتماعية بجامعات القاهرة وعين شمس ونيويورك.
- عمل مذيعًا وصحفيًا ومستشارًا إعلاميًا فى عدة مؤسسات إعلامية فى مشرق ومغرب الوطن العربى .
- عمل مترجما ثم كبير مترجمين فى منظمة الأمم المتحدة على مدار ٢٥ سنة؛ تنقّل بين مكاتبها فى كل من بيروت وبغداد وأديس أبابا ثم الأمانة العامة للمنظمة الدولية فى نيويورك، وهو حاليا خبير معتمد للترجمة لدى الأمم المتحدة.
- أصدر حتى الآن ٢٠ كتابا بين التأليف والترجمة.
- حازت ترجمته لكتاب "انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم" على جائزة "خادم الحرمين الرشيفين العالمية / اليونسكو" فى عام ٢٠١٠
- عضو نقابة الصحفيين المصريين (القاهرة) والاتحاد العالمى للمترجمين الدوليين (جينيف)، وزميل الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية (نيويورك) وعضو الجمعية العالمية للمستقبل (واشنطن).

التصحيح اللغوى : **كريمان البدرى**
الإشراف الفنى : **محسن مصطفى**